الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

في الأدب الجزائري المعاصر

الشخصية المنفية في الرواية العربية الجزائرية (1970-2000)

إعداد الطالبة:

بن جماعي أمينة

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد مرتاض

لجنة المناقشة:

1- محمد زمري أستاذ التعليم العالي-جامعة تلمسان **رئيسا**

2- محمد مرتاض أستاذ التعليم العالي-جامعة تلمسان **مشرفا ومقررا**

3- أحمد طالب أستاذ التعليم العالي-جامعة تلمسان **عضوا**

4- بلقاسم الهواري أستاذ التعليم العالي-جامعة وهران **عضوا**

5- نور الدين صبار أستاذ التعليم العالي-جامعة سيدي بلعباس **عضوا**

6- محمد باقي أستاذ محاضر-جامعة سيدي بلعباس **عضوا**

السنة الجامعية: 2009/2008

إهداء

إلى أمّي الحنون، دليلي نحو مرفئي عندما كانت تنطمس من أمامي المنارات وتضيع منّي المعابر

إلى أبي سندي الذي ماانفكّ يشدّ أزري بذات عناية الطفولة التي ألفت

إليهما أهدي هذا العمل بعد أن رمته من أجلهما

كلمة شكر

أتقدّم بالشكر الوافي والامتنان المتنامي

إلى أستاذي الكريم الدّكتور محمد مرتاض الذي ظلّ قائما على هذا البحث، يتتبّع هناته فيقوّمها بواسع علمه، ويتقفّى مواطن ضعفه فيُصوّبها بسديد رأيه.

وهذا بسماحة المتفهّم التي لا تُضاهى، وبضمير المنشغل على البحث العلمي، الحريص على أن يصير إلى المكان الحريّ به.

فله منّي خالص الولاء على ثمين وقته الذي أهداني إيّاه، وله جميل عرفاني على فيض معارفه التي أغدقها عليّ.

المقدمة

مقدمة:

إنّ الأدب الجزائري لم يحظ بتلك الأهمّية التي أنيط بها الأدب المشرقي الذي حفّته القراءة، وأحاطه الاستقصاء، ووشاه النّقد، فحدث أن تطوّرت آلياته التّعبيرية وارتقت إمكانياته الفنية وقدراته الدّلالية.

وما ينبغي تعييده هنا هو أنّ الباحث الدّارس الجزائري نفسه راح يُثبّت لهذا الأمر ويُكرّسه عندما فضّل تبنّي الخوض في موضوعات الأدب المشرقي بحجّة توفّر المصادر والمراجع المتّصلة به، الخطوة التي رآها تستعصي عليه وهو ينوي الولوج إلى أدبه.

الفعل الذي كان من نتائجه تأخّر الدّراسات المختصّة في الأدب الجزائري الذي بدا ضعيف الحال، مهزوز المكانة، يُراوحه الاستخفاف والاستجهال وهو يدخل مضمار الاختبار، على الرّغم من تفرّده شعرا وتميّزه نثرا.

والمتمحّص للرّواية المكتوبة بالعربية يُبصر مدى أصالتها وهي تسلك منحى التّعبير عن الرّاهن، كاشفة تنوّع مضامينه وعمقه الإنساني والاجتماعي، وجاهرة بتلوّن شساعة أبعاده الثّقافية والسّياسية، ومؤشّرة إلى مواضع صيرورة حقبه التّاريخية التي غشيته، فاعتنقت نصوصها تبعا لذلك الأفكار والمثل الإصلاحية، كما تمثّلت ثورة التّحرير وما صادفها من مزالق وسقطات صنعت الحائل في وجه العثور على المؤهّل منطقيا وفكريا لقيادتها وتحقيق ما يُنشده الإنسان، لتحمل بعد ذلك ثقل ال؟؟ التي تُبشّر بقلب كثير من الأوضاع التي سيّرها حكم المسلّمات، فيُخلق بذلك البديل المستساغ، ويتواصل صدق تصويرها للصّراع العقائدي المحتدم بعد أن تمكّنت من الوقوف على جملة من حقائقه، فعاينت مكوّناته ومركّباته، وأدركت لحظة قياس كمالها وقصورها وهي تتبعها في حركيّتها وخمودها، فنجح العالم الرّوائي وفق هذا في الاستكناه التّقمصّي للرّاهن.

وأعتقد جازمة أنّ الوقت قد حان للتّقرّب من الإبداع الرّوائي الجزائري بمناجاته ومساءلته واستنطاقه لتحسّس مواطن الحياة فيه، ولاستجلاء مكامن الجمال والفتنة التي تكتنفه شكلا وتستقرّ فيه موضوعا، خصوصا بعد أن تطوّر ونضج بصورة غدا معها أمر الالتفات إليه مفروضا، بل وحتميا، وهو يضمّ بين جوانحه كلمة السّر التي تبصمه بدمغة التّفوّق وتُرشّحه لأن يعتلي، وبكلّ رفعة، مكانة بين السّرديات الأدبية العربية، وحتى العالمية.

وتأييدا منّي لهذه الفكرة جنحت أستجديه الإفصاح فوجدتني وأنا أتصفّحه يُدهشني ما يعجّ به من اتّجاهات إبداعية، وأنساق فنّية، وظواهر مثيرة تتّصل تحديدا بقالب الشّخصيات المجسّدة فيه، والتي كثيرا ما طغى عليها النّموذج المنفي الذي شدّني، فرُحت أحاول تطويق جبلته النفسية، وتقفّي منزلته الاجتماعية، والتّحديق في سماته التّصرّفاتية لتحديد مراميه، وحصر اتّجاهاته، باعتباره جزءا مهمّا من الهيكل العام للبرنامج السّردي، ولم يتأتّ ذلك إلاّ بعد جمع المادة، وتحديد المتون واستقرائها، ورسم الخطّة التي ارتضاها الموضوع، فخرج البحث حاملا لخمسة فصول، إضافة إلى مدخل عرضت فيه لماهية الفنّ الرّوائي ولأهمّ النّظريات التي شرعت تُفسّر نشأته، وتفيض في ضبط أساساته، وتحديد قوانينه، وتعداد أطره، لأصل بعد ذلك إلى فكرة الرّواية الجزائرية بين التّقليد والتّجريب، فأسجّل الحقيقة التي أجحفتها حقّها على الرّغم من انتزاعها لقصب السّبق.

ليكون بعد ذلك الفصل الأوّل الذي تطرّقت فيه لمفهوم الشّخصية الرّوائية وعلاقتها بالحدث السّردي، الذي وهي تُساهم في بنائه يُعطيها نوعية المزاج الذي يتحرّك فيها ويطبعها بسمات تكون المتحكّمة فيها والموجّهة لها نحو المساحة التي يجدر بها المكوث فيها لأخلص وفق هذا إلى أبعاد تشكّلاتها، فأركّز على الصّورة المنفية التي علّمتها ملامح وإشارات خاصّة.

أمّا الفصل الثاني فخصّصته للشّخصية الأوديبية فميّزتها وتتبّعتها وهي تخبط في اتّجاهين، أحدهما طريق الإجرام فلا تحجم عن اجتراح أفظع الآثام باسم كره الأب الذي لم تنجح في صنع نقطة تقاطع واحدة بينها وبينه، فاستحالت علاقتها به تصادمية عدائية في الحقيقة كما في الذّكرى.

والآخر المسلك الاستكاني الذي تكظم فيه غيظها المعتمل على الأب فتصير إلى رثاء حالها واجترار مرارتها بصمت.

كما عالجت في الفصل الثالث الشّخصية السيكوباثية بالتّكوين فعرّفت مرضها، ووقفت عند أعراضه الفطرية فيها والتي تُحوّرها حينا أمومية يُفارقها شبح الأمّ فتنغمس في متوهّم نابض بأمومة سرابية يُرضيها العيش راكضة باتّجاهه في كلّ وقت، مع إدراكها المسبق باستحالة الوصول إليه.

وتُبديها أخرى عقيمة لا تعترف بعلّتها، فتسعى بكلّ الأدوات إلى إثبات بطلانها وتحلّلها منها، ولكن عندما يُكذّبها الواقع وتجد نفسها تُراوح مكانها، تنحرف غارقة في الخيانة الفعلية، وبالدّرجة ذاتها الخيانة المتخيّلة أو المرغوبة.

فأفردت المجال في الفصل الرّابع لأقترب فألمس الشّخصية السّيكوباثية، ولكن هذه المرّة، بعد أن صاغها الاكتئاب فجعلها مضطربة مرتكلة لا يستقيم بيدها أن تتعامل مع ظروفها بإيجابية من الودّ والألفة، فتُعلن عداءها لكلّ ما يتحرّك في دائرتها، وهي ترشقه بعدوانية لا مفسّرة، ولمّا يغيب عنها المنطق تختفي وراء المتناقضات، ولئلاّ يُستكشف شأنها تتشكّل سيمونية تنسج من الدّين غطاء لها تُداري به الشّائن فيها، كما تتّخذ من صفة الثّقافة ذريعة للمراوغة، ومن ثمّ الهروب الجبان من المواجهة والسّجال، حتى وإن وقف الحقّ إلى جانبها يمدّها بعونه.

وعندما كان الفصل الخامس والأخير، اجتهدت في الكشف عن الشّخصية الاكتئابية التي تصير إلى حال من الحزن واليأس والخوف، بعد أن يضيع منها شيء عزيز، أو يختفي عنها قرب إنسان حسب، ما يُدخلها زمنية من تأنيب الضّمير تستمرّ معها في غياب وعيها التّميّزي بين الفعل والنّية القبلية له، فتُحمّل نفسها أوزار أعمال ما تُحقّق لها القيام بها.

ويعتريها شعور بأن لا أحد يهتمّ لوضعها فتنجرّ نحو الشّكوى التي لا تتوقّف من الحظّ، ومن النّاس، ومن الظّروف ومن الدّنيا، ومن ضعف الحيلة وذات اليد.

وتظهر هذه الشّخصية وهي مبرزة في صورتين، إحداهما بسيطة تُلازم فيها البكاء ندما عمّا تعتقد أنّها وقعت فيه من إثم، وقد يصل بها الأمر إلى حدّ الدّخول في العقاب الذّاتي بإحداث الألم الجسدي، تعبيرا عن عدم رضاها بما هي عليه.

أمّا الأخرى فهي مركّبة تصل إليها عندما يرتفع الإحساس بالدّونية فيها فيبلغ ذروته، فلا تُصبح تروم غير الخلاص، فتهتدي إلى فكرة الانتحار لتشرع فيه فعليا بعد ذلك.

وفي الأخير أنهيت البحث بخاتمة بسّطت فيها مجموع النّتائج المتوصّل إليها، وأردفتها بفهرس ثُبّت بالمصادر والمراجع المعتمدة.

أمّا فيما تعلّق بالطّريقة التي توخّيتها في إعداد هذه الدّراسة فبإمكاني تفصيلها فيما يلي:

حاولت في البداية استقراء النّصوص السّردية بالاطّلاع على مجموعة من الدّراسات التي كان جنس الرّواية العربية والجزائرية أساسا لها، كمؤلّف النّثر الجزائري لصاحبه محمد مصايف، وكتاب عمر بن قينة المعنون بدراسات في القصّة الجزائرية (القصيرة والطّويلة)، كما كان لمؤلّف سيد البحراوي الأنواع النّثرية في الأدب العربي مكانة لا تُغفل في تعيين وجهة البحث.

ومن جورج طرابيشي اقتنيت مؤلّفه الرّجولة وإيديولوجية الرّجولة في الرّواية العربية، كما ظهر كتاب في نظرية الرّواية لعبد الملك مرتاض رافدا لا يُنكر في إثراء كثير من جوانب البحث.

أمّا مؤلّف عبد السلام محمد الشاذلي المثقف في الرّواية العربية الحديثة 1952/1882، فقد كان حضوره شارحا لما لِما استعلق في بعض النّصوص.

هذا إضافة إلى مرجعيّات علم النّفس التي أوجدت لها الدّراسة حيّزها مثل موسوعة علم النّفس لعبد الرحمن محمد العيسوي، وكتاب مجدي أحمد محمد عبد الله الموسوم بعلم النّفس المرضي، وأثر مدحت عبد الحميد أبو زيد الاكتئاب.

وبالتّوازي مع هذا فقد عدّ البحث أربعة وعشرين برنامجا سرديا جزائريا مكتوبا بالعربية، كان أوّلها ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة، الذي كانت طبعته الأولى سنة 1970، وقد عمدت إلى توزيع هذه النّصوص بنظام التّساوي على الفصول ليضمّ كلّ فصل منها ستّة سرديّات.

أمّا عن المنهج الذي توسّمته الأنسب إلى الاعتماد والأقدر على إنجاح البحث فهو المنهج التكاملي الذي يرتكز على إظهار الجوانب النّفسية والاجتماعية والاقتصادية والتّاريخية، وهذا دون إغفال الطّابع الوصفي التّحليلي وكذا الجمالي والدّلالي الذي يُعين على إظهار الأبعاد الإنسانية المختلفة.

والباحث كيفما كان ليس بمنأى عن المتاعب وهو يُنجز دراسته، فقد تشتدّ وقد تلين هذه الصّعاب، وقد تتفرّق وقد تتجمّع، وربّما تشعّبت فعادت فالتأمت، والباحث الجادّ هو

من اتّكأ على الصّبر وجامل التّصبّر حتى يُلامس لحظة الرّضا التي يتأمّلها ويبتغيها بعد الجهد والعنت.

ولمّا كنت من الذين لا يُحبّذون الاستغراق في ذكر المتاعب فسأقتصر على أهمّها، وهو قلّة المراجع والبحوث المتخصّصة في الأدب الرّوائي الجزائري، الأمر الذي يُقرّه كلّ باحث، وحتى هذا القليل فهو قاصر لا يُمكن اعتماده في كلّ الدّراسات لأنّه تقفّى المنحى الإيديولوجي الواقعي دون أن يمسّ النّواحي الأخرى للنّص الفنّي.

وعلى الرّغم من هذا لم يكن ينبغي لي التّراجع عن التزام كنت قد قطعته، فظلّ يستحثّني على إتمام البحث، ولم يسمح للحظة تثبيط واحدة في أنّها تُساورني فتُبعدني عن المرام.

فتحوّلت فاقة المرجعية إلى حافز هداني إلى ما يُسمّى بالدّراسة الإسقاطية، فاستفدت من الدّراسات الرّوائية العربية وكيّفتها بحيث يستوعبها النّص السّردي الجزائري.

وفي الحالات التي كان يتعذّر علي فيها هذا السّبيل ويتعقّد كنت أجالس النّص أنادمه ليبوح لي بأسراره، وكثيرا ما كان يستأمنني فيُفصح لي عن خباياه.

وأخيرا أرجو أن أكون قد أنصفت الموضوع حقّه، وأنا لا أدّعي له في ذلك صفة الكمال، وعلى الباحثين الذين يجيئون بعدي استكمال النّقائص التي يكون البحث قد ضمّها، ولا يغيب عنّي تسجيل شكري إلى كلّ من مدّ لي يد العون وإلى كلّ من شجّعني على إتمام هذا العمل المتواضع.

المدخل

الرّواية الجزائرية
بين التّقليد والتّجريب

أ- إطلالة على مفهوم الفنّ الرّوائي بعامّة.

ب- سبق الرّواية الجزائرية.

الرواية الجزائرية بين التقليد والتجريب

أ) إطلالة على مفهوم الفن الروائي بعامة:

إنّ الفنون الأدبية تحتاج في ميلادها، إلى عقيقة تُباركها، فتمدّها ماهيتها، وتجعلها تنفرد بشكلها ذاتا، وبروحها معنى.

ولم يشذّ الفن الروائي عن هذا، فكان المعبر إلى تحديد كنهه، وحقيقته، مثار نقع كبير، فتعدّدت بذلك المحاولات بإزائه، معلنة الاتفاق أحيانا، والاختلاف أحيانا أخرى، متلفّعة بالتعصّب مرّات، وبالموضوعية مرّات أُخَرْ.

وحريّ بالباحث، وهو يتتبّع هذا الفن أن يقف على نحله ومِلله، التي اهتدى إليها منظوره، وواضعو أسسه وقواعده، الذين تذهب بعض نظرياتهم، إلى القول إنّ الرواية ليست إلاّ جمعا لشتات كلّ من التراجيديا، والملحمة والدراما، فجاءت بهذا، تأخذ من الأولى موضوع "صراع الفرد مع قوى أكبر منه" [1]، واستلهمت من الثانية موضوع "اصطدام الفرد مع المجتمع والخيانة، والحسد والفروسية" [2]، واستعانت بالثالثة في توظيف موضوع "تصوير الوضعيات والعواطف، وخصوصا رسم الشخصيات عن طريق الحوار"[3].

اعتمادا على هذا الرأي تكون الرواية هجينا، تشاكلت وتمازجت فيه الصور الثلاث، لتُعطي وجها فنيا أدبيا جديدا.

على أنّ ثمّة نظرية أخرى، ترى أنّ التراجيديا والدراما، لا علاقة لهما بالرواية، ولكنها بالمقابل تُبقي على نسبتها إلى الملحمة، وتعدّها "في أرفع أشكالها الحفيد الوليد" [4]. ومن التطويل المملّ، أن نمضي في إيراد الآراء والمفاهيم التي انصبّت حول الفن الروائي لأنها عديدة ومتنوّعة، ومع ذلك نستعين تارة أخرى برأي لأحد النقاد يقول فيه إنّ "الرواية نص سردي، وتُعتبر الحكاية نواته الأساسية، ويتميّز بأنه يُروى أو يُكتب، بلغة تُثير اللذة والإحساس بالجمال، وله مجموعة من القواعد النظرية، التي تُميّزه عن الأجناس الأدبية

---

[1] روجر ألن، الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة حصة منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1986، ص.10.

[2] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه والصفحة عينها.

[4] رينيه ويليك أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص.221.

الأخرى، مثل الحبكة والشخصيات والمكان والزمان، يُوظّفها كلّ كاتب حسب الطريقة التي يراها[1].

فمبدأ الحكي أو السرد هو حجر الزاوية الذي يقوم عليه النص الروائي، الذي يتوجّب عليه صنع اللذة الجمالية، باستقدام لبنات أخرى، من حبكة وشخصيات وزمكانية، يرصفها الروائي بحسب ما يُحقّق لمعماره الفني من تفوّق وتميّز، هذا المعمار الفني المتفوّق والمتميّز الذي يبقى حلم المنال، في غياب ما يُسمّى بالحدث أو الحادثة، التي يُفترض بشأنها أن تكون "حادثة أساسية واحدة، تتفرّع عنها حوادث أخرى"[2].

هذه الأحادية المؤهّلة لصوغ الالتحام بين العناصر التأسيسية للنص الروائي، الذي تتجاوز نمائيته مجرّد "تنميط الواقع ونمذجته" [3]، إلى التعرّف عليه، بالكشف عن مناظر التوائه وتسطّحه، البارزة والمختفية، ومن هنا يُحقّق الخوض في اعتيادية الزمن برصد أنماطه "استيعاب واستشراق، وطرح وتركيز واستظهار، كوامن الصراعات الجارية"[4].

إنّ عملية الفهم التي تقود إلى الاستشراق المركّز، والاستظهار الصحيح، لعمق التناقضات والصدامات التي تطبع الراهن، هي وحدها القادرة على تمثّله، وعكس التحوّل الحاصل فيه، فتتعمّق بذلك التجربة الروائية فـــ"يُقاس مجالها بمستوى دخيلة الإنسان أو المجتمع، بحيث تتوافق فيها عملية التنقيب بعملية الاستنتاج"[5].

وعندما تُصبح ثنائية الإنسان والمجتمع، محورا في عملية تحقيق التقييم والاستنتاج، يُصبح النص الروائي "عرض حال كامل ومطابق للتجربة الإنسانية" [6]، في جميع أوجه تطوّراتها، في سلوكاتها العفوية والمفتعلة في نزعاتها السلبية والإيجابية، في رغباتها المشروعة والمحرّمة.

وهكذا "تُترجم الطبيعة الإنسانية، وأسرارها الغامضة" [7]، وبهذا يعرى السائد والأني والأني من الأفكار والمفاهيم، فيتكشّف العالم ويُنظر إليه "لا بعيني المرشد أو الطبيب،

---

(1) علال سنقوقة، المتخيل والسلطة، منشورات الاختلاف، ط1، 2000، ص.22.

(2) عزيزة مريدن، القصة والرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص.78.

(3) سيد البحراوي، الأنواع النثرية في الأدب العربي، المكتبة الأنجلو–مصرية، ج1، 2003، ص.82.

(4) حنا مينا، هواجس التجربة الروائية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1982، ص.90.

(5) Roland Barthes, Essais critiques, éditions du Seuil, 1964, p.42.

(6) R. Barthes, L. Bersani, Ph. Haman, M. Riffaterre, I. Watt, Littérature et réalité, éditions du Seuil, 1982, p.41.

(7) Jean-Pierre aubrit, Le conte et la nouvelle ??, Armand Colin, 1997, p.68.

ولكن بعيني الإنسان" [1]، الذي يُفصح عمّا يصطرع في وجدانه الفردي، فيُمكن للنص الروائي بأن يسرد بضمير الأنا، حيث يظهر "التوجّه الفرداني الجديد والمتجدّد"[2].

فتتكرّس الأنوية الذاتية، ويتكلّم الأنا ليحكي نفسه بضميره الذي تتجدّد ملامحه الفردية، ومذاهبه التوجّهية، في حيّز متوهّم، تُصبح الأشياء فيه مرئية، وملموسة ومحسوسة، تلفعها حالة التقمّص مغزى جديدا، يُوصلها بمعنى الراهن، في همومه وغرائزه وصوره الطبيعية، فيستعير منه مجال حركته وزاوية سكونه، وشكله وما يعتريه من اتّزان، وما يسقط فيه من اضطراب، وهكذا تُرفع الحدود وتتداخل المساحتان، فتثبت القناعة النظرية بأنّ فكرة التفريق بينهما، لا يُمكن رسمها أو الدعوة إليها، لدنو النص من "اللغز أو الرمز" [3]، حيث يصنع الخيال المتغيّر ويتحوّل ويضيع وهو يُشير إلى الواقع، فيُواجهه ويُقارعه ليقضّه ضمن زمن يعلو ليصير مدّا تخيّليا ملتبسا يتجذّر بتاريخه التائق لأن يستمر "دائما مغامرة تقريب العالمين الواقعي والخيالي أو قلبهما"[4].

وفي الإقدام على رحلة التقارب والقلب المدهشة هاته، يستسلم النص الروائي إلى البيئة المتشعّبة التي أنشأته ولازمته، وعملت على قدح أتونه، فطفت عناصر الإثارة والاستبطان فيه، بحيث يبرز عمق المتوهّم صنو الراهن، وتظهر قدرته على الحلول في الكنه الإنساني ومطاولته، باستخدام مجمل وظائفه التنظيرية المؤسّسة له والتي يقتبسها المتخيّل ليؤكّد على مدى التفاهم الذي يربطه بالراهن وهو يُحاكيه بنجاح فيه كثير من الكبر.

وعندما تُطرح للمناقشة، إشكالية كينونة الفن الروائي في الأدب العربي، تتضارب الرؤى، فيذهب بعضها إلى الجزم بأنه فنّ متجذّر أصله، في تاريخ هذا الأدب، ويُورد لذلك "صورة من الرواية العربية، في سيرة عنترة، وذات الهمّة، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، وحمزة البهلوان" [5]، وتتوسّع الدراسات، وتتعدّد سماتها، وتتعمّق مداخلها لتخلص إلى اعتراف مهم، هو أنّ هذه الأعمال "تتميّز كلها بوجود الحبكة، القصصية

---

(1) Roland Barthes, Essais critiques, Op. Cit., p.43.

(2) R. Barthes, L. Bersani, Ph. Haman, M. Riffaterre, I. Watt, Littérature et réalité, Op. Cit., p.16.

(3) Izvetan Todorov, Théorie de la littérature, Editions du Seuil, 1965, p.204.

(4) Isabelle Daurrais, Frontière du roman, le personnage réaliste et ses fonctions, Espace littéraire, 2002, p.126.

(5) فاروق حورشيد، في الرواية العربية، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص.75.

والدراسة التحليلية، لنفوس الأبطال، وتعقّد الأحداث وتشابكها" [1]، في ثوب من الوعي الكلّي بالأركان والمواصفات التي تُجادل وتستجوب بحدب "المضمون الإنساني"[2].

فإذا كانت وجهة النظر هاته، تعدّ توفّر الحبكة، والنجاح في سبر أغوار الشخصيات، وحِدَّة الأحداث، وتأزّمها في جوّ من المحتوى الإنساني، كافيا لخلق فنّ روائي، فإنّ هناك بالمقابل طرحا معاكسا، يذهب إلى أنّ "ما يعدّه بعضهم داخلا في إطار الرواية كسيرة عنترة، وقصص سيف بن ذي يزن أو بني هلال، والزير سالم، وفيروز شاه وغيرها، ليس سوى أخبار بطولية"[3].

ويؤيّد هذا الحكم، رأي يقول إنّ الرواية بصفتها اسما دالاّ على نوع أدبي معيّن "كلمة مستحدثة وأنها لم تكن مستخدمة في اللغة العربية القديمة بتلك الدلالة" [4]، وهناك نتيجة أخرى تقترب ممّا سبق تُوضّح أنّ الرواية العربية "بلا تراث وبالتالي فأيّ روائي عربي معاصر لابدّ أن يبحث عن طريقة في التعبير بدون دليل أو بأقلّ ما يُمكن من الأدلّة"[5].

انطلاقا من هذا فإنّ الروائي العربي يتحوّل إلى مبدع أعزل وضائع إن هو راح يبحث عن أدواته الفنية التعبيرية في تراثه، لأنه لن يجد في هذا التراث كلّه ما يُرشده ويُعلّمه ويُصحّحه، فيفشل حينها في إدراك ضالته، يدور على عقبيه، يبحث لنفسه بنفسه عن معلّم.

وعندما يكون باعتبار البعض "نشوء الرواية في الأدب العربي مواكبا لبداية عصر النهضة الحديثة"[6]، ويكون لاتصالنا بالغرب، أثره البالغ في انتشار هذا الفن في أدبنا، فلا غرو أن يعثر على معلّمه هذا في الغرب. وربما قبضة هذه الفكرة وسيطرتها، هي التي جعلت الدراسات المتعلقة بالفن الروائي تُجمع كلّها تقريبا، على انتخاب رواية زينب

---

[1] المرجع نفسه، ص.221.
[2] المرجع نفسه والصفحة نفسها.
[3] عزيزة مريدن، القصة والرواية، ص.76.
[4] أحمد سيد محمد، الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص.17.
[5] روجر ألن، الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، ص.14 (الرأي لعبد الرحمن منيف).
[6] عزيزة مريدن، القصة والرواية، ص.75-76.

1913 لتكون "البداية الأولى والأصلية للرواية الفنية" [1]، ولتكون أيضا البداية الفعلية للرواية العربية.

ب) الرواية الجزائرية:

ولقد ظلّ هذا التواضع، ولمدّة طويلة، سيّدا للتنظير الروائي العربي، رغم ما عجّت به هذه الرواية من نقائص، وما اكتنفها من "المبالغة في المقاطع الوصفية، والخلل في التشخيص، والوجدانية الشديدة، التي تصطدم بأذواقنا" [2]، وأيضا "ما اعتراها من ضعف كبير في النسيج العام، وفي جزئياتها، أحداثا وشخصيات"[3].

وأعتقد أنه بات اليوم من قبيل المغالطة العلمية الأدبية الخطيرة والواضحة، التي تنمّ إمّا عن جهل وإمّا عن تعصّب، استمرار تحكّم هذا الاتفاق بالولاء له، خاصّة بعد التحقيق المتفرّد والمثير الذي قام به أبو القاسم سعد الله لمؤلَّف حكاية العشاق في الحب والاشتياق لصاحبه محمد بن إبراهيم أو الأمير مصطفى الذي يكون قد أتمّ كتابه سنة 1849م.

فسعد الله، وهو يقدّم لهذه اليقينية الإبداعية الأدبية، يُعلن للقارئ، وبجرأة متناهية، أنّ ما بين يديه هو "أوّل رواية عربية، بالمعنى الحديث، أي قبل رواية زينب المصرية، التي يؤرّخ بها النقاد، في العادة، لظهور الرواية العربية الحديثة" [4]، ولقد أيّدت الدراسات النقدية الجزائرية التي أقيمت على هذا العمل، فيما بعد، رأي المحقّق وعدّته "مرحلة أولى في ميلاد الرواية العربية الحديثة، على مستوى الوطن العربي كلّه"[5]، التي "لو أُتيح لها أن أن تُنشر بين الناس في ذلك الوقت لأمكن أن تكون بداية لظهور القصّة الطويلة"[6].

وبهذا فرواية الأمير مصطفى الجزائري تكون متقدّمة على رواية زينب بما يُقدّر من 64 سنة، تتحقق لها فيه صفة الريادة، التي بفضلها نؤرّخ لميلاد الرواية العربية.

---

[1] عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر 1870–1938، دار المعارف، ط4، 1983، ص.323.

[2] روجر ألن، الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، ص.32.

[3] عمر بن قينة، الأدب العربي الحديث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص.104.

[4] محمد بن إبراهيم (الأمير مصطفى)، حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تحقيق أبي القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1983، ص.04.

[5] عمر بن قينة، دراسات في القصة الجزائرية (القصيرة والطويلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.148.

[6] عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978، ص.130.

ولكن مع هذا، لا يُمكن التغاضي عن بعض الدراسات النقدية الجزائرية التي بقيت تغرف ممّا ترسّخ من طرحات بالية، غير آبهة بما استجدّ من أفكار ونتائج، ارتضاها المنطق، فحقّ لها أن تُتبنّى.

الموقف السلبي هذا جنى على أصالة وصدق التجربة الروائية الجزائرية، وشكّك فيها، عندما جعل من روايتي غادة أم القرى، 1947، لأحمد رضا حوحو، والطالب المنكوب، 1951، لعبد المجدي الشافعي، البداية الأولى لهذا الفن عندنا، "على سبيل التجوّز، فتكون الرواية الجزائرية قد ظهرت قبل الاستقلال"[1].

ولقد أمعن بعض الباحثين في تعميق هذا الموقف، فلم يُرَ هذا الفن يظهر عندنا إلاّ في السبعينات، مثل أحمد منوّر الذي قال "كان هذا النوع الأدبي منعدما عندنا من قبل، وقد ظهر بصفة جدّية في بداية السبعينات بأعمال عبد الحميد هدوقة والطاهر وطار"[2].

هذا الرأي قد يكون مردّه إلى الشكل الذي يضعه بعضهم مقياسا لضبط الإبداع الروائي، مغفلين في هذا أمرا هاما، هو أنّ الشكل الثابت "الذي يصطلح عليه النقاد في مرحلة أدبية، سرعان ما يُصبح معبرا إلى شكل جديد"[3].

وهكذا فإنّ مرحلية الأشكال، ووقتية المصطلحات التي تجملها، رهينة بتحرّك الزمن، وتوالي العصور، فما يُستساغ في فترة قد يمج في فترة أخرى، وسيكون من الإسفاف تحنيط أيّ شكل إبداعي وتبليد صورته، حتى لا يستطيع حراكا معها. إنّ مبدأ حرية الأشكال هو الذي يُمكّن لهذا الفن أن "يعيش عدّة حيوات" [4]، هذه الحيوات التي ستضمن امتداده وتواصله، ليُصبح بذلك مستقبل الأجناس الأدبية كلّها في تصوّر حناميناً[5]، لأنها قادرة على مجادلة الحقيقة وإحداث التفاعل معها، بتسجيل تقاطع الائتلاف وتنافر الاختلاف، بل وبالوقوف في وجه بعض أخطائها وهي تُحاول استيعاب مواقفها وقناعاتها، فتُمارس بذلك أهميّتها وأثرها في الوعي، وعلى مستوى كثير من تشعبّاته

---

[1] محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.118.
[2] قراءات في القضية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص.09.
[3] فاروق حورشيد، في الرواية العربية، ص.225.
[4] العقيد دحو، جريدة صوت الأحرار، الجزائر، العدد 2374، 18 ديسمبر 2005، ص.16.
[5] يراجع هواجس التجربة الروائية، ص.163.

عندما تتمثّل ميوله الذوقية المولعة بكلّ ما هو غامض ومختفٍ، فتُخضعه لخرق إشراقي تمتد أسراره لتملأ الزمكانية السردية.

ولأنّ التعبير في الرواية شامل ويتّسع لكلّ الأغراض، فهو يقوى على إدراك غاية الكشف عن المحيط الراهني وما يتطاحن فيه من طيبة خيّرة أو لؤم شرير من حرية ومن مصادرة لهذه الحرية، فتفسح المجال لكافة الاتجاهات السلوكية بأن تُعرّف بنفسها بمنطقية متوازنة، فتكون الرواية بهذا الفن القريب من الطبيعة، لأنها تعرض الصورة المحتملة للراهن.

الفصل الأول

ماهية الشّخصية الرّوائية وتشكّلاتها

أ- ماهية الشّخصية الرّوائية.

ب- تشكّلاتها.

المبحث الأول
ماهية الشخصية الروائية

إنّ أيّة محاولة لتحديد معنى الشّخصية الرّوائية والتّوصّل إلى تفسيرها، تبدو عملية مضنية، وربّما غير مجدية، إن هي لم تُربط بماهية الشّخصية الإنسانية "ذلك التّنظيم الثّابت والدّائم إلى حدّ ما لطباع الفرد ومزاجه وعقله وبنية جسمه، والذي يُحدّد توافق الفرد لبيئته"[1].

هيكل مستقر لا يتبدّل، تتموضع فيه صفات الشّخص النّفسية والعقلية والجسدية، مثبتة حركيته من وجهة، ومحقّقة ذلك الانسجام الذي قد يوائم بينه وبين حيّزه الخارجي من وجهة أخرى، فيُظهره متفرّدا عن غيره.

ترتيب ثلاثي، يبدأ بالهوّة حيث يركن "الحافز أو القوى الدّافعة داخل الإنسان" [2]، ويصل إلى الأنا، حيث تقف "الخصائص الضابطة والتوافقية" [3]، وينتهي أخيرا عند الأنا الأعلى، المساحة التي تعلو فيها "القيم الخلقية والمثل التي تستدمج من الثّقافة والأسرة"[4].

وهكذا تنتظم الحوافز المثيرة، وتُروّض، الكامنة في الشّخص، والتي تُعدّ على الأرجح، الأصل في الشّخصية، وجراب الغريزة التي تولد مع الفرد، ليتكوّن جانبه المثالي، بعد أن تُعقد الألفة بين عالمه الخارجي وغريزته.

هذا الثّالوث إذًا، هو الذي سيُراقب سلوكات الشّخص ويرصدها، ليعرف نشاطه وما يصدر عنه من ردود أفعال واستجابات، حيال ما يعترّضه من أوضاع، وهو يُجابه ويُواجه دائرة العالم من حوله، ليُوقّع أحد أمرين: الانتصار مع البقاء، أو الانكسار مع الهروب.

---

[1] بدر محمد الأنصاري، قياس الشخصية، دار الكتاب الحديث، 2000، ص.30.

[2] الشخصية ريتشارد س. لازاروس، ترجمة سيد محمد غنيم، مراجعة محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، السنة، ص.52.

[3] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه والصفحة عينها.

ثالوث يظهر فيه التّكامل بين الأفكار والسلوكات والعادات والعواطف والمفاهيم والأفعال، هذه العناصر التي يتفاعل بعضها مع بعض، في حركية تُوحّد بين ما هو فكري، وما هو جسدي، فيظهر موقع الشّخص من بيئته، لأنّ "الشخص هو كائن بشري، له وظائف ومهام يؤدّيها في حياته" [1]، فهو يتمتّع بالحضور أو التّواجد المادي والمعنوي الحقيقي، ويُرى هذا من خلال ما يضطلع به من فعل حياتي، وهو يُسجّل انصهاره الزّمني والمكاني مع راهنه، فيكون هذا التّعامل، اعترافا علنيا له، بأنّه يشغل قسما جدّيا في الوجود الحقيقي بشكله، وعلامته، ونمطه وبعده.

أمّا الشّخصية الرّوائية فهي "محض خيال يُبدعه المؤلّف لغاية فنّية"[2]. فهي شخصية وهمية تصوّرية، تولد بداخل النّص الإبداعي، وتتنفّس وتعيش في فلكه، لتتحوّل بعد ذلك إلى حقيقة مفترضة فيه، ومحرّكا ضروريا له، يؤمّن دوران محاوره، وهذا ما تتّسم وتنفرد به "الأعمال السّردية عن أجناس الأدب الأخرى أساسا"[3].

فعبر تنضيد حكائي تستطيع هذه الكينوتة التخيّلية الانتقال والحركة والتطوّر من حال إلى أخرى، حتى الوصول إلى غايتها، بعد أن تكون قد "حدّدت وربطت وأعطت معنى للسّلوكات والأفعال التي تخضع لها" [4]. فعمل هذا الشّكل التصوّري، يتوزّع بين التنظيم السّردي وبين تسطير الأفعال وتحديدها وربطها ببعضها، وبإعطائها ما أمكن من المنطقية، لِما يُسلّط عليها من أعمال، وما تمرّ به من مواقف، بغية حياكة الحدث.

فالشّخصية الرّوائية هي نول الحدث وطرح يوجب عليها، وفي كلّ الأحوال، أن تكون وإيّاه لحمة واحدة، لتتمكّن من بنائه بإيحائية مكتملة، ويخوض هو بالمقابل في نحتها، وبإعطائها الأشكال المناسبة والمتجدّدة، والطّوابع المحدّدة التي تُخرجها من كتمانها، فيتكشّف عمق حيّزها ومعقولية منزعها، فتظهر طبيعية ومقنّعة.

---

(1) بادبس فوغالي، بنية الخطاب الروائي في تجربة رايح خدوسي من خلال روايته (الضحية والغرباء)، منشورات دار الحضارة، 2004، ص.07.

(2) محمد عزام، فضاء النص الروائي: مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، دار الحوار والنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص.85.

(3) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، مجلس الثقافة والفنون والآداب، 1998، ص.103.

(4) Yves Reuter, Introduction à l'analyse du Roman, 2ème édition, Dunod, Paris, 1996, p.51.

زمن الإقناعية هذا الذي رآه بعض الدّارسين، لا يتحقّق إلاّ إذا دنت الشّخصية الرّوائية من الرّاهن "في رشدها وحرّيتها وعجزها" [1]، أي إذا فكّرت بعقل الكائن الحيّ، فاهتدت إلى التّمييز والتّفريق بين الأشياء بقدرة، وقوّة من تخطّي السّنوات، وبلغ الرشد، وإذا تحرّكت أيضا بمثل حرّيته، ونجحت في تجاوز عثرات الفشل لحظة، وأقعدها العجز عن مطلبها لحظة أخرى، فلا تملك حينئذ إلاّ أن تتساوى بشخصية من الراهن، فتغيب بينهما الفروق، ويضمحلّ الاختلاف، وتتماثل التقاطيع، وتتأكّد هويّتها الفيزيولوجية، وتترسّخ كثافتها السّيكولوجية، بعد أن تدبّ الحياة في أوصالها، فتُحمل على تبنّي ناتج من المميّزات الإنسانية، وأشكال وعيوب وفضائل ورؤى وآلام، قد تكثر وقد تقلّ، ولكنّها في النّهاية تُحقّق توازنا مع الكائن الحيّ، في تجسيدها لمتطلّباته وضروراته الحياتية، في شتّى ضروبها، فتحيا هذه الشّخصية الرّوائية من خلال الاسم والعنوان والوظيفة والممتلكات" [2]، صفات خارجية، يؤدّي الأوّل منها إلى الأخير، تتفاعل فيما بينها لتسِمها من الداخل، فتضبط قوّتها المعنوية ومجالها التّأويلي، بأن تربطها بمقتضيات حياتية متعدّدة الجوانب، ومتشعّبة الأنواع، فتُعطيها "وضعا مدنيا منتحلا، يُخفي طبيعتها الورقية" [3].

وهكذا تقف الشّخصية الرّوائية، بأبعادها الزّمنية أو التّاريخية الثلاث، الماضي، والحاضر والمستقبل، لتكون متوقّعة التّواجد في الرّاهن، على الرّغم من ورقيّتها التخيّلية التي تُضيّع صورتها، وهي تُتمّ معاني الرّاهن اللاّمفهومة وتشرحها، وتحُدّ بعضا من مساحاتها المشاعة، وتزداد الشّخصية الرّوائية غمرا بالحياة "من خلال حركة الكلام" [4].

فالخطاب الذي تُقدّمه يبنيها، ويسمح بالتعمّق في فهم حميميّاتها، التي تقبع في دخيلتها الشّعورية، وتعمل على التعريف بما يُحيط بها من حقائق المكان والزّمان والوقائع، هذه الإشارات السّحرية التي تصطحبها في رحلتها صوب مصيرها.

ويعمل هذا الخطاب أيضا على تحقيق أمرين، "أوّلهما إعطاء الحقيقة، وثانيهما إعطاء المعلومة" [5]، الحقيقة التي يشي بها الحوار المباشر، والحديث المتبادل، فينحلّ الغموض الذي يلفّها، فتغدو معرّفة في ظروفها وفي إشكالاتها، وفي انتماءاتها الحقيقية

---

(1) Isabel Daunnais, Frontière du roman : Personnage réaliste et ses fictions, p.124.
(2) Michel Raimond ; Arman Colin, Le Roman, 2ème édition, 2000, p.173.
(3) Françoise Rullier, Approche du roman, Theuret, Hachette livre, 2001, p.81.
(4) نبيلة إبراهيم، فن القصص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، دار قباء للطباعة، د.ط، د.ت، ص.175.
(5) Françoise Rullier, Le dialogue dans le roman, Theuret Hachette, 2001, p.60.

والمظهرية، ويسقط بُرْقُع حوارها الدّاخلي واسترجاعاته، فتقفز المعلومة وتنصع تجلّياتها، وتُصبح خلفية الشّخصية، مكشوفا لونها ومعلنا راهنها، بتعدّد صوتها السّري، والجّهري الذي يُلاعب صعاب نموّها واندحارها.

ولكن على الرّغم من الودّ القائم بين الشّخصية الرّوائية ونظيرتها الحقيقة، لا يُمكن التّغاضي عن ذاك الاعتقاد الذي يقول إنّ الشّخصية الرّوائية "تُشبه الأناس الحقيقيين، ولكنها لا تُشبههم كذلك"[1]، فالتّشابه القائم إذًا، ما هو إلاّ تشابه مزعوم، وأنّ المسألة مبنيّة على مخالفة المطابقة واللاّمطابقة مع الرّاهن، وأنّ السّعي لضبط هذا التّقاطع مع الكائن الحي مقصد مستحيل، إلاّ أنّ التّشابه نفسه لا يحمل في مدلوله، إلاّ المجاراة للصّورة الواقعية فقط، ولا يستطيع أن يكون الصّورة ذاتها، مهما تخفّت الفروق.

وقريب من هذا الاستنتاج، ما يراه عبد العزيز شبيل من أنّ الشّخصية الرّوائية "ليست رمزا لهيكل بشري له ذات متميّزة" [2]، فهي سمة مستفرغة، تعمل على ملئها مجموع العناصر السردية، المتجاذبة والمنجذبة إلى بعضها بعض، في مستوى من الصّراع الظّاهر.

هذه الدّلالة تصنع الحدود وتستبينها، بحيث لا توصلها بالكائن البشريّ المتوحّد مع حقيقته، سوى تلبّسها بهمّه المستمرّ معه، من جيل إلى آخر، فيعكس هكذا عليها بعض أطيافه التي تنشر شذراتها، داخل المنشأة السّردية.

هذا الانفصال يجعل خصوصيات الشّخصية الرّوائية تتوضّح في أدقّ أجزائها، دون الحاجة إلى أن تتموضع في فراغات الرّاهن، ودون حملها على أن تكون تابعة للشّخصية الحقيقية.

إنّ هذا الانفصال يعمل على حلّ أسرار الشّخصية الرّوائية، وترتيب ألوانها، وتحديد أصواتها، واختبار قوّتها وضعفها، ضمن النّص السّردي، وتوجّهاته دون ربطها بالرّاهن أو فكّها منه. فهي وفي كلّ الأحوال، تتكلّم بلغة الكائن البشري، في أزمنته وأزماته، الظّاهرة والباطنة، لتُترجمه وهو يرتدي ويخلع جميع أحاسيسه المتضاربة والمتناقضة، فيتحقّق بهذا ذاك الخيال الذي يتماس مع الرّاهن الحقيقي، محدِثا التّماثل بينها

---

[1] روبرت شولز، عناصر القصة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1998، ص.33.

[2] الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط1، 1987، ص.111.

وبين الشّخص الاجتماعي، فتغدو بهذا ابتكارا اجتماعيا ينبثق من النّموذج الإنساني، فتنشأ وإيّاه آصرة متينة، تقتسم فيها معه نظامه المادّي والمعنوي، الذي يسمح باستيعاب حركيتها، وفهم مواقفها، وقياس خلجاتها، وهي تدنو من الشّخص الحيّ، وتتبنّى سائده، وتؤمّن بيقنياته، بل وتتوحّد وتتفاعل معه لتُفرز راهنا احتماليا، ولكنّه منطقي في تميّز أحواله، وتفرّد مواقفه، فتنطق باسمه العجيب وباسم الرّوابط الواصلة بين شخصياته، فيتوضّح مصيرها، وتتكشف بنيتها التي تحمل الأحداث وتخلقها، منسجمة متوازنة في خطابها الذي يُعرّي شعورها ولاشعورها، ويُجسّد حقائقها اللّصيقة بها، فتظهر شفّافة واضحة، ويعمل هذا الاتّصال اللّفظي الذي يصدر عنها على خلق مضمون خيالي يتواءم مع الراهن المضطرب في عمقه المتصارع في أقطابه. وبهذا تتأهّب الشّخصية الرّوائية لتُصوّر تشعّبات هذا التوتّر، فتتعدّد الأحداث والمشاهد، وهي تومئ إلى الشّخص الحقيقي في زمكانية معيّنة، وقد جمعت من الأوصاف ما يُعطيها قوّة التّغلغل في راهنية عادية، تتمثّل عددا من المنازع والأهواء، بل وتنجح من خلال هذا التمثّل في رفع القناع عن التجربة الحياتية، ميزة وتصرّفا، ضمن طقس من الإيحائية المثيرة.

وتُعبّر بهذا عن أكثر الأشياء سرّية في إيجاز وتركيز، وهي تُضيف الأحداث إلى بعضها بعض، بحيث تظهر ثابتة مرّة، ومتطوّرة ومسبّبة مرّة أخرى، يتطلّبها نظامها الاحتمالي ووضعها الذي يصنع منها فاعلا وموضوعا يتوسّل التّأثيث الكامل لحيّزها.

ويبقى المعمار السّردي، الحاضن الوحيد لمسوغات تفرّدها وندرتها التي "لا تتحدّد إلاّ وفق أفعالها وتحرّكاتها" [1]، فسلوكها هو المؤهَّل وحده للكشف عن بصمة الإيجابية والسّلبية فيها، وهذا بتنامي الشّدّة في وظيفتها، وباتّساع أهمّية الفعل ومساحته، حيث تُشكّل في صور تضجّ بالحدّة، القاتمة مرّة وإلزامية مرّات أخرى، وتظهر منا مراحل تطوّرها، أو تذبذبها، أو جمودها، بحيث تقف عند عتبة كلّ مرحلة، لتعرض قدرة وعجز إمكاناتها على التكيّف مع طقس المستوى السّردي، لترتدي بعدها اللّبوس الذي ترتضيه لها الأحداث، فتتنوّع تشكّلاتها، من فاعلة متحكّمة، إلى منحرفة مهمّشة، وفي الحالين لا يُمكن لمندوحة البناء السّردي إلاّ أن تتبنّى النمطين، بكلّ ما ينتج عنهما من أبعاد وتداعيات، هي في واقع الأمر هويّتهما في الحيّز المتحرّك بهما، وفيهما.

---

[1] Bernard Valette, Esthétique du roman, Modern Nathan, 1993, p.120.

المبحث الثاني
تشكّلات الشّخصية الرّوائية

إنّ أمر تنميط الشّخصية الرّوائية حدا ببعض الدّراسات إلى القول بفكرة تقسيمها إلى ثلاثة أصناف:

"نموذج الشّخصية الجاذبة: الشيخ، المناضل، المرأة.

نموذج الشّخصية المرهوبة الجانب: الأب، الإقطاعي، المستعمر.

نموذج الشّخصية ذات الكثافة السّيكولوجية: اللّقيط، الشّاذ جنسيا، الشّخصية المركّبة"[1].

هذا ويظهر أنّ هذا التّقسيم يعوزه التّحديد، فقد تكون الشّخصية المرهوبة الجانب جاذبة وذات كثافة سيكولوجية أيضا. فالشّيخ يكون أبا أو إقطاعيا، والمناضل يكون أبا والأب قد يكون شاذّا جنسيا وذا شخصية مركّبة، كما قد يكون اللّقيط مناضلا والمرأة شاذّة وبشخصية مركّبة، والمستعمر محتملا أن يكون شيخا وشاذّا جنسيا ولقيطا وبشخصية مركّبة، واللّقيط قد يظهر بصورة الشاذّ جنسيا وبشخصية مركّبة هو الآخر.

ويخوض إبراهيم عباس في أمر وصف الشخصية الروائية، فيُميّزها إلى ستّة أمثلة: الشّخصية الإشكالية، المعاكسة لمحيطها، والشّخصية الواصلة التي يُجسّدها الراوي، والشّخصية الدينامية التي يدور حولها الحدث، والشّخصية العميلة، والشّخصية المستعمَرة والمستعمِرة[2].

إنّ نظرة بسيطة إلى هذا التخريج، تجعله يسير مع نظام التّداخل السّابق، فالشّخصية الإشكالية قد تكون واصلة، أي شخصية الرّاوي ذاته، وقد تكون دينامية، أي إنّ

---

[1] سيد البحراوي، الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، السنة، ص.88.

[2] تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2002، ص.151، 155، 158، 180، 181 و182.

الأحداث لا تبرح تدور حولها، كما قد تكون شخصية العميل هي نفسها شخصية المستعمر، كما قد تختلط الشّخصية الإشكالية بالشّخصية الدينامية، محور الأحداث.

فهذه النّمذجة بقدر ما حدّدت فإنّها أخلطت الأنماط فيما بينها، بحيث لم يعُد واردا أمر فصلها، لا شرحا ولا استنتاجا.

وفي مجال التّمييز والاستدلال على صنوف الشّخصية الرّوائية، دائما يؤيّد جورج لوكاتش حضور الشّخصية السّلبية في البناء السّردي، بل ويعدّه "ضرورة لابدّ منها حتى نستطيع أن نُبرز صورة العالم المتعاظمة"[1].

فالصّورة السّلبية التي تُغلّف الشّخصية تُظهر العالم المتحرّك الذي لا يثبت على تغيير ولا يستقرّ على شكل أو حجم، وكلّما كانت هذه السّلبية جادّة، بدت دقائق العالم الغريبة، وتناقضاته المخيفة أكثر وضوحا. وعلى عكس هذا التشكّل السّلبي، يظهر نظيره الإيجابي الذي يجنح وينجح في ستر العالم بسمك من المثالية المبالغ فيها، وربّما هذا ما يجعل السّلبية في الشّخصية تميمة ملحّة في أيّ برنامج سردي.

والشّخصية السلبية، هي شخصية منفية، صاغها وركّبها وضع ضعيف، ممزّق، متّفق على تسميته بالسّقطة التي "تتلبّس بالماضي عادة، وكثيرا ما تتمثّل في خلل ضمن بناء الشّخصية ذاتها"[2].

فالشّخصية تجيء إلى العالم، وهي تتأبّط وزر هذه السّقطة التي لم توجدها ولم تصنعها، ولكنّها تحمل عبأها الذي ينبض بالمرارة، والعجز والحاجة، وما يتولّد عن هذا كلّه من هوان وتقزّم ذليل، يختمها بطابع الخلل النّفسي، والعقدة التي يستعصي عليها التّنصّل منها، مهما حاولت وانتفضت.

تجيء وهي تُعاني الكبت الذي ينطوي على أنواع من الشرور والانحرافات المتأصّلة والمبرّرة، بحكم النشأة، هذه الشرور التي قد تُعبّر عن نفسها وقد ترتدّ إلى داخلها فتلسعها.

إنّ حالة التّثبيت هاته، تُفقدها الثّقة بنفسها، وتُشعرها بنقص مريع، وحاجة ملحاحة، إلى الآخر، أيّا كان هذا الآخر، وكيفما كان، ليسندها في المواجهة التي لا تستطيعها،

---

[1] الرواية، ترجمة مرزاق بقطاش، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص.22.

[2] عبد العزيز شبيل، الفن الروائي عند غادة السمان، السنة، ص.126.

لنزول توتّر انفعالاتها، وضعف حيويّتها، وانفصامها الشّاحب. وبمجرّد ما يتأكّد جبنها، تنتفي بصمت داخل نفسها، مرغمة إيّاها على وجوب العزلة، ومقنعة إيّاها أيضا على أنّ ما يحدث، إنّما يحدث على رغمها، وأنّها لا تملك بإزائه أيّ لون من ألوان الاختيار.

وفي تطلّعها إلى الرّاهن، لا تراه إلاّ وهو "مفعم بالقبح في الدّرجة الأولى، لا يتراءى على سطحه أيّ مظهر لجمال الروح، ولا تلمع في ثناياه أيّة قيمة حقيقية"[1].

وهكذا يُصبح الرّاهن بالنّسبة إليها شرسا، مُنفّرا، فاقدا للحقائق والقيم، ولا تظهر منه غير الزّوايا المظلمة، وما عداها فهو أمل مبتور، يشلّ فاعليتها، وخواء يُصيّرها نكرة، يطغى على عمق مساحاتها، انكسارات وشروخ لا تُعدّ ولا تُحدّ.

في هذه الهشاشة تلبس الشّخصية المنفية رداء سيزيف، وتُصبح ضحيّة "للحتمية القدرية وبطشها"[2]، فتتولّد عندها المسلمة الاستسلامية، التي تجعلها تحتمي بمظلة القضاء والقدر، فترمي بنفسها في التّسليم الكلّي الذي لا تملك أن تُغيّره، أو توقفه، أو تُحوّل مساره، فتقف مكتوفة اليدين، وقد نفضت عن كاهلها كلّ التّبعات، وتحلّلت من جميع نتائج المسؤولية، لا تعي مصيرها رغم وعيها بوضعها المرتبك الذي يحول دون ضمانها لاختيارها، وتحقيق قرارها.

وعندما يتوحّش قلقها، ويعنف اضطرابها، ويغيب عنها المسكن، تتّجه صوب "التصوّف وسيلة هذائية، من وسائل الدّفاع عن النّفس"[3].

في هذه الأثناء، تختار الشّخصية المنفية الدّين سلوى وعزاء لها، وممرّا من ممرّات الهروب والتشبّث براهن مثالي، ضبابي، تُنفق ذاتها للوصول إليه، معتقدة أنّه الوحيد القادر ليس على تخليصها من أزمتها، وإنّما التّخفيف منها، وهذا يكفيها، فتجري منفلتة من الرّاهن، بعد أن تربط جسرها بالسّماء، لتعيش هلاوس التّصوّف، وهي ترتقي منازله، باضطهاد واحتقار ذاتي، غاية في الإمعان.

وحتى تُحقّق فعليا انسلاخها من الرّاهن، فإنّها تُبالغ في التّهجد والرّهبنة، فتفقد جرّاء ذلك كلّ أهلية تفكيرية، لتغيير وترميم ما تهاوى وتفتّت بداخلها.

---

(1) صلاح فضل، عين النقد على الرواية الجديدة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص.71.

(2) نبيل راغب، فن الرواية عند يوسف السباعي، مكتبة الخانجي، السنة، ص.149.

(3) جورج طرابيشي، الرجولة وإيديولوجية الرجولة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983، ص.65.

فالانكماشية هاته التي تُصيبها، تؤدّي بها إلى اختلاق راهن "فنتازي"، متصوّر تصنعه بحكايات وهمية، محاولة بذلك التّعايش معه وفيه، تهرب إليه متخيّلة بذلك أنها تُجسّد وجودها ورغباتها. وقد تنغمس، بل وتغرق في أحلامها، بحيث تختلط لديها منطقة الخيالي بالرّاهني، وتتداخل، فيتحطّم قانون الزّمن والمكان، فيغدو الزّمان ثابتا لا يتحرّك، ويصير المكان واحدا لا يتبدّل، حتى لا تستطيع الوقوف عند الحدود الفاصلة لكلّ منهما، وهنا يرتفع مقياس انفعالاتها وهواجسها، فتحتدّ الصّراعات وينمو الهوس داخلها.

فالمتخيّل هذا، قد لا يُشبع نهم الشّخصية المنفية، فتروح تُغذّيه باسترجاعية حنينية، عندما تنخر ثقوبا في راهنها المتبلّد، لتُطلّ منه على ماضيها وتُعيد عيشه من جديد بكلّ معانيه، وهي تتصوّره الملجأ الوحيد الذي يكون قد تبقّى لها، فتُحبَس عنها كلّ المنافذ، وتُحجز بإحكام، فلا تقوى على أن تُركّب لنفسها وجهة نظر أو اتّجاها بخصوص ما يُقابلها، فتهوى عرضة لنوبات من العنف، تحتدّ محدثة التقطّع الذهني المعاكس لِما هي فيه، فتفقد إحساسها ومعرفتها بنفسها، فتوصلها استرجاعيتها إلى زمنها الطّفولي، فتتشبّه بالأطفال. وتظهر مصاحبات الطّفولة عليها، فتعمد إلى البكاء لتخليص نفسها من إحراجية الظّروف التي تخلق حرمانها الذي يضطهدها، فتضرب وتصول وتبطش وتجول في الخيال مثلما يفعل الأطفال، فيقع الانفصام، ويتكوّن الحاجز بين الذّات الطفلة المخفية عن الأنظار وبين الصّورة المرئية للعيان.

في هذا التمزّق والتشتّت بين الرّاهني والخيالي، لا تستطيع الشّخصية المنفية أن تُموقع نفسها الغريبة عن الزمنين (زمن الطّفولة وزمن الحاضر)، فيصلب بهذا عود الهزيمة ويشتدّ، فتشرئبّ ناظرة صوب المستقبل المبهم، لتُشيّد فيه الرّجاءات المأمولة الغامضة، فتغرق في سرابه، متوهّمة أنها ستروي عطاشها، لكنّ الدّاء لا يبرحها، فتلوي هاربة، وقد التبست عليها السّبل، فارتبكت خطواتها، وتشوّش ذهنها، وزاغ بصرها، فلم تعُد تفهم فيم هروبها ولمتى؟، إلى أن يطفو فوق وعيها هذا "حبّها للبس الأقنعة المثالية والبرّاقة حتى تختفي حقيقة أغراضها ومآربها"[1].

ولأنّها أسيرة رواسب تتحكّم فيها، تضطرّ في الوصول إلى قضاء حوائجها إلى التحوّل من زمن إلى آخر، مرتدية في ذلك القناع المناسب، وقد يحدث أن يكون الانتقال

---

[1] نبيل راغب، فن الرواية عند يوسف السباعي، ص.240.

سريعا، غير ممهّد ومحسوب له، فتنسى وضع القناع المرجو، فتكون النّتيجة القناع الخطأ، للزمن الخطأ، وحتى تُبرّر تناقض سلوكاتها وأفعالها، تحترف أسلوب الكذب لتُفسّر به للآخرين ما يحدث لها أمامهم، وهكذا تتعدّد أقنعتها، ويكثر نسيانها، ويكبر ويترسّخ كذبها، وتستمرّ حالة انشطارها وتمتدّ، لتصير جزءها الذي لا يُمكنها التملّص منه، لتحكّمه فيها، ومن هنا تتحوّل إلى "مفعول به يؤدّي وظيفة استهلاك الحياة، خارج دائرة المشروع والنظام، والمنطق والتّوافق"[1].

وهكذا تُصبح مجنيا عليها، وجانية في الآن ذاته. مجني عليها، وهي تُقمع وتُرغم على تبديد الحياة بدل عيشها، وجانية وهي تصطدم مع من يعيشون الحياة، فيكون تعاملها معهم بانتقامية متناهية، لا تكترث بالدّين، ولا تَمتثل لأوامر العقل، تدوس الترتيب، وتخرج عن القانون، ولا تهتمّ لأمر تواؤم وتقارب الأشياء، فيغدو هذا ناموسها الذي تُقدّسه، والذّي تُنفّس به عن نفسها، وتردّ به إحساس القهر الذي أفسدها وقادها إلى انتهاك الفطرة، وارتكاب شتّى المعاصي، بحرّية لم يسبق أن عرفتها، حتى تُحوّل الرّاهن إلى صالحها، وتُغذّيه أنانيتها العاملة على تكريس عاداتها، واستخدامها باعتبارها الوحيدة الضّامنة لبقاء واستمرار نبضها، حتى وإن ظلّ يُلازمها "منطق الخوف، والتّنازل، والتّطيّر وتوقّع الأسوأ"[2].

فإدمان الخضوعية صيّر يأسها معقولا بأذى الخوف، ومعلوما بإكراه التّنازل وإحباطية التّشاؤم الذي يُرغمها في كلّ وقت، على توجّس الشّر والتوحّد بأشكاله وألوانه الهوسية، فتظهر ضائعة، لا غائية لها، ومضطهدة مظلومة، لا تملك شروط انفكاكها، لأنّه لا مرجعية لها غير ما صنعته من راهن لنفسها وتكوّمت فيه، غير آبهة في ذلك، بقواعد الغيرية المنقذة.

هذا كلّه قد يكون غير مهمّ بالنسبة للشّخصية المنفية، مادامت قد أوجدت لنفسها طريقة تعيش بها عدميّتها، وفلكا تُحرّك فيه ذاتها. ولأنّها لم تضبط راهنها إلاّ على ذاتها، فهي تميل بشكل سافر إلى تهويل وتضخيم الأشياء من حولها، فتُعملق الهيّن، وتُترجم كلّ

---

[1] بدري عثمان، الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص.46.

[2] جورج طرابيشي، الرجولة وإيديولوجية الرجولة في الرواية العربية، ص.35.

عثار، مهما كان بسيطا، إلى "هزيمة أنوية ماحقة، وأيّ نجاح، مهما ضؤل، إلى انتصار أنوي باهر، يُهلّل له الكون بأسره"[1].

فالشّخصية المنفية يؤلمها مواجهة ضعفها، ويُعمّق إحساسها بقرب نهايتها، هذا حتى وإن كان إخفاقها وقتيا وليس ذا بال، فإنّه في عرفها عظيم، يستحقّ الكثير من البكاء والرّثاء، وهذا في حقيقته ما هو إلاّ صورة من صور التحسّر على الذات، التي لم تعرف شعور الفوز والغلبة من قبل، وأن تَبَدَّى لها ما يُشبهه، أغبطها، فأوصلتْ خبره إلى الجميع وطالبتْ من هذا الجميع أن يشهد لها بهذه الفرحة، ويُشاركها فيها، بعد أن تكون قد أسبغت على هذا النجاح، حلّة الدّيمومة التي لا تبلى. والموقف هذا طبيعي منها، فهو من قبيل إعادة الاعتبار إلى الذات، وتعويضها عن مثل هذه الأحاسيس المبادة والمفقودة، قد يتحجّر شعور الشّخصية المنفية، فتنزع منزع عدم الاكتراث الذي يصل إلى السّخرية، التي تقف معادلا لفظيا وإيقاعيا لفراغ العالم، وفقدان كلّ شيء فيه[2].

هذا المفهوم يدعوها إلى الضّحك من المواقف العسيرة التي تملأ عالمها الفارغ، وهي حقيقة أمرها، تضحك من نفسها على ما ضيّعته، وعلى عدم قدرتها على التّشاكل مع الصعاب التي تُشنّجها وتُنتج عجزها عن إحداث ما يُفرحها وما يُشعرها بالتفوّق، فتتكوّم على نفسها، ويتماثل سلوكها اللاّمبالي، السّاخر في نظرته إلى كلّ الأشياء، وعندما تصل إلى هذه العتبة تتطلّع لمبادرة الآخرين السّحرية التي يقومون بها لأجلها ونيابة عنها، فإن نجحوا سخرتْ منهم، لأنّه كان عليهم فعل أكثر وفعل أحسن، وإن فشلوا تسخر منهم أيضا لأنّه كان بمقدورها النّجاح حيث أخفقوا، لو أنها أُتيحتْ لها السّانحة لذلك.

وهكذا تكتسي السّخرية عندها شقاء يُذكّرها بخللها الذي لا يتقبّل رأي الآخر، وفي الآن نفسه لا يملك تقديم البديل الذي يُنظّم إيجابيا راهنها الذي يمتلئ باللاّجدوى، ويدفعها إلى الهرب من المكان، هذا الفعل الإلزامي الذي يُمليه الظّرف الخاصّ ويُمدّد زمنه، فيكون التّرحال الدّائم الوسيلة المباحة لهذا الفرار الذي يصير حالة فقد كاملة، تُوصل إلى الاختناق أو إلى الانفجار.

---

[1] المرجع نفسه، ص.249.

[2] بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص.24.

وتُعاني الشّخصية المنفية العطب، وتُشاهد عطبها، وتعرف أنه يُعطّلها، وحتى تتجاوزه، تمضي في صناعة أدوات استدراكية لحالتها، ولكنّها عبثا تفعل لأنّها لا تُفلح إلاّ في استحداث ما يزيد في استفحال هذه الأعطاب وتقويتها، خاصّة وهي تزجّ بنفسها في "المعارك العضلية، والمخدّرات وقطع الطرق"[1].

إنّ التمظهر الجسدي، والصّدامات البدنية التي تعتدّ بها الشّخصية المنفية، وتسير إليها، وتسعى للانتصار فيها بأيّ ثمن، إنّما هي محاولة لمخاتلة الذّات حتى تحرمها من رؤية نفسها على حقيقتها، فتنسى حالها المأساوي، الذي لا يَنِ يَذكرها ويُذكّرها، فاضحا عيوبها لحظة فأخرى، حتى وهي تزعم لذاتها بأنّها مهمّة وبأنّها لا تفترق عن الآخرين الذين يؤرّقونها، وهي تتسلّق لاهثة للّحاق بهم، وقد لا تتوانى في الدّوس على أشلائهم للصّعود والوصول إلى ما ترومه.

وقد تستهويها لعبة تغييب الذّات، فيكون المخدّر تأشيرة رحيلها إلى عوالم أخرى، تنقطع فيها وشائجها مع محيطها، فتعيش خلسة متعة الفرح، ولذّة الانتشاء الذي يُدينها، إلى درجة الرّضا عن النّفس، وهي تتخلّص من هيمنة الشّعور بالاندحار، الذي لا يبرحها إلاّ عند نكوص وعيها وتذبذبه.

وتتكشّف الشّخصية المنفية طمّاعة، تشتهي اختلاس النّعيم الذي في يدي الآخر، نكلة فيه، وحتى تحوزه فإنّها لا تعدم في ذلك لا الوسيلة ولا الحيلة. ولتوهّمها بأنّ الآخر يُريد بها الشّر، تعمد إلى تفسير هذا الاغتصاب بأنّه من وسائل الدّفاع عن النفس، وأنّها لا تستطيع أن تأمن هذا الآخر ما لم تُبادر هي إلى الإيقاع به، وهكذا يُصبح فعل الاعتداء، مقياسا للقوّة التي تُتيح لها التحكّم في من وما حولها.

وتتّسع هذه الهشيمة وتمتدّ، فتتجسّم في "أزواج مرضى نفسيا، نساء وحيدات رغم الحياة الزوجية، رجال في خريف العمر، يُكلّمون أنفسهم ويُمارسون العادة السرّية"[2].

في هذا الحطام، تظهر مختلف العقد التي أنبتها حصن العزلة الذي أفقدها الأمان، وكبّدها خوف الوحدة، وأكذوبة ظلم الآخرين لها، فضيّعتْ طريقها، وباكتئاب يائس، راحت تُقيم العلاقات الآثمة والمشبوهة، فظهر عندها الجنس محاججا للتّيه، ومقارعا

---

[1] غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص.172.

[2] انظر سلام إبراهيم، دراسة للمجموعة القصصية بيت النمل لهيفاء زنكنة. www.iraqi writer.com 2003

لقوّته، وخاليا من كلّ معنى روحي، تُسيّره اللذّة الآنية التي انصرفتْ ترتوي منها بجزع من يتمتّع بها لآخر مرّة، فكانت لذّة محكومة بعدوانية التسلّط، وانحطاطية المقايضة بالجسد المتحوّل إلى سلعة تُباع وتُقتنى بالسّعر البخس الدّنيء، فتتشلأ الأحاسيس على خنجر الإدمان، فيكون الزّوج الخائن والمخدوع، والزّوجة المخدوعة والدّاعرة.

ومن هنا "فإنّ الاستسلام الجنسي والإغواء المحموم والخيانات المتبادلة ليست أكثر من تعبير استحال في أوج تألّقه إلى حسّ مرتعش"[1].

فالجنس هنا يقوم بوظيفة تواصلية تنطق فيها الغواية، ممهدّة لذهنية في وضعية خضوع، تُثبت حالة ثقل شعوري يسعى نحو الامتلاء الحيواني والإشباع الذي لا يُراعي أيّ بعد حياتي، عدا الاشتعال الشهواني والشراهة الايمقورية. هذا الاشتعال الجنسي يتحوّل عند الشخصية المنفية إلى فورة مرضية دائمة الضغط، ودائمة المطالبة بالتّنفيس الإلزامي الذي يجعلها تُعاني التآكل واللاّاتّزان الرّاشح بالشّناعة والفزع، يقتنصها من راهنها في حمأة من اللّعنة والشّؤم، ويُقرّبها من أجلها المحتوم، وهي تتّخذ من الجنس قضيّتها التي تُحارب من أجلها، وتهلك دونها.

إنّ حمّى اللذّة المطاعة تُدخل الجنس دائرة الحلم، فتُمارس الشّخصية المنفية هذا النّهم الذي يُولّد لديها التحصيلات الخيالية وأحلام اليقظة والتمنّيات، فيكون التعويض في الفكر الرّغبي الذي يتضوّر ساعيا للإشباع، ومن هنا يُصبح الجنس عندها هو البدء والمنتهى، فيبلغ بهذا الاضطراب حدّ الشذوذ.

وفي هلامية هذا الشّذوذ، تنعكس ذاتها على المواقف والأحداث التي تتشكّل أمامها، وقد تُسقط مشاعرها وأفكارها على غيرها، محاولة منها لإخفاء خبايا نفسها التي ترفض أن توضع محلّ اختبار.

وهكذا فإنّها تصنع من نقائصها وصراعاتها خطوة لبعض الإشباع وبعض قبول الذّات في اجترايتها التي تتمخّض عنها حالات الفصام والعصاب، الاكتئاب والهستيريا وأعراض السيكوباثية في انحرافاتها وإحساساتها الدّائمة الارتعاش.

---

[1] محي الدين صبحي، أبطال في الصيرورة، دراسات في الرواية العربية والمعربة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص.119.

ويرتفع وجع الشّخصية المنفية في الشيخ الذي تجشّأته الحياة وتبرّأت من انتمائيته، فلم يبق له ما يفعله غير مصاحبة نفسه، ومحادثتها طوال الوقت، وقد يوصله الإحباط إلى آخر الطريق، فيُصادف هناك الانتحار المادّي، نهاية موضوعية له.

وقد يكون الانتحار المعنوي هو الآخر مسلكا من المسالك التي تنتهجها الشّخصية المنفية، التي تذهب إلى "التّظاهر بالجنون، طريقة للدّفاع عن النّفس والتستّر" [1]، فيُصبح بهذا تصنّع الجنون من أنجع الوسائل الدّفاعية، ودرعا منيعا تنكسر عليه كلّ الضّربات التي تتّهمها، وكلّما تفنّنت في جنونها وتحويماته، كلّما تزئبقت وصارت بمنأى عن حدود اللّوم والمحاسبة، وصعبت إدانتها، ونجح الجنون بالتّالي في أنّه يتشكّل مشجبا تُعلّق عليه لامعقولاتها، التي تحرص في كلّ ذلك على أن تُلثّمها، ليختفي وجه نفيها الممارس بعنادية من يشتاق دائما إلى النّجاة ممّا يعتريه، ولكن دونما حصيلة تُحسب، وتظلّ بهذا مبطّنة بهذا الجنون الذي اختارته، ويظلّ هو لصيقا بها، يضمن لها النَّزْر من الآمان.

وعندما يتوسّع الشّرخ في الشّخصية المنفية ويتشظّى، يتحوّل الخطاب عندها من صيغة المتكلّم إلى ضمير المخاطب أو الغائب[2]، فتُصبح طريقة "أنا" في الحديث إلى نفسه أو عنها، بانتحال (هو) أو (أنتَ) أو كليهما معا، بعد أن يكون قد انسحب إلى الزّاوية المعتمة، وسجن نفسه فيها، غير مبال بالخراب الذي صنعه، وعندما لا يعثر على حجمه، وتطول المسافة بينه وبينه، تظهر رغباته ليست منه، وسلوكاته وأفعاله ليست من اقترافه، فيُبرّئ ساحته من مجموع الشّطط الذي مارسه وخلّفه، ليُدان به مكانه (هو أو أنتَ) أو معا، وتكون الشّخصية المنفية وفق هذا قد ابتكرت في إسعافها ونجدتها لنفسها، سبيلا آخر، يقيها الاضمحلال، ويُجنّبها الزّوال.

وهكذا تبدو الشّخصية المنفية وسط هذه الاستحالات كلّها، وكأنّها نحتت من "القوى الشيطانية للعالم السّفلي، عالم الدّنايا والرّذائل"[3]، وإنقذفت من دجّة المكاره بقدرات عياثية وتدميريّة حبّبت لها الحياة.

---

[1] عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبة للنشر، 2002، ص.128.

[2] مصطفى التواتي، فن الرواية الذهنية عند نجيب محفوظ من خلال "اللص والكلاب، الطريق، الشحاذ"، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص.129.

[3] إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، السنة، ص.152.

ولأنّها منشطرة، وخيباتها متمكّنة، فإنّها لا تشعر بقوّتها إلاّ إذا تمرّدت على الأناظيم، وارتكبت معاصيها بتعددّية ذاتية كدرة، تنتهي بها إلى ذروة الانفعال والتعقّد، بعدما تكون قد استغاثت بأكثر من منجد وتمسّحت بأكثر من ذيل، ولكنّها نبذت ولم تصل إلى ما ترغب فيه، فرغبت بعد ذلك عن كلّ شيء، صارخة بداخلها أريد أن أرتاح... فلا شيء يستحقّ العناء، فلا يُجيبها غير صدى صرختها النّاشدة للطمأنينة، التي لا يُمكن أن تتحقّق لها إلاّ في جثوة الاستسلام التي تُجرّمها نفسها، وتُحمّلها خطأ الطّريق الذي نهجته وراحت تبحث فيه عنها، وتُحمّلها غياب اختيارها وتجاربها الفاشلة القاسية التي لم تُزهر غير الحقد، ولم تُثمر غير الانحراف، هذه الأوزار التي صنعت منها ضحيّة لراهنها الهارب منها باستمرار، والذي يصوغها كلّ مرّة جثّة، تخرج من تابوت لتنام في آخر، مستقرّة هكذا في ديمومة التّوريط المزمن للذّات، في غياهب طقوسية تدميرية، تطحن فيها الهواجس كما تطحن الرحى قرونا، فتتعدّد لحظات الشدّ والجذب، ويستمرّ تواجدها، خلل تلك الشّخصيات الجزئية التي تعيشها الشّخصية المنفية بداخلها، فتحيا وهي تُمارس تحكّمها في معتنقاتها بتوجيه سيرتها، وتحديد أساليب تعاملها، فتنشأ العقد المهيمنة المتسلّطة عليها، فتُكشف منخورة خربة نفسيا، ومن ثمّة أخلاقيا، ونفعية، تستغلّ مطلق الظّروف للإبقاء على ما هو كائن كما هو، لأنّ تبدّله يُزعجها ويجعلها تنهار أمام آلة الحياة، فتفكيرها الدّائم في ذاتها، والقوانين الشّاقة واللامنطقية التي تُجبر نفسها على الإيمان بها، وريبتها الشّديدة في نوايا الآخر، وعجزها عن التّأقلم معه، كلّ هذا يجعلها تُعاني من حياة الخيال النّاكص، حيث تُفرغ ذاتها في نوع من الهروب التقهقري العنيف، بعد إخفاقها في تقليم نواشزها وهدم الحائط الذي تصطدم به كلّ مرّة.

إنّ اللاّمبالاة التي تصبغها إزاء بعض المواقف سببها ذاك الفراغ المهيمن على محيطها كالعوز المادّي الذي هو من المسبّبات الأكيدة في تخلخل مكوّناتها، فتكون بذلك شكلا من أشكال التّعاكس بين ما هو حاصل بالفعل وما يجب أن يحدث، فتتقيّد حركتها ضمن دائرة مشؤومة تشعرها بالدّوار، ومن ثمّة السّقوط، فتفقد بهذا نظرتها للأشياء، وقدرتها على التّمييز، ويصير بهذا راهنها خالٍ من أيّة وظيفة أو دور، فيضيع منها البعد الحياتي وتتولّد لديها أعراض القلق الذي يُغذّي وهمها المركّب، فتتكوّر على نفسها وقد ابتلعتها موجة من الأسى والألم، لتُحاول بعدها اللعب على أكثر من حبل.

إنّ عقدة الضعف التي تُصاحبها تجعلها كثور الطّاحونة المغمض العينين الذي يستنفد كلّ قواه وهو يدور لأجل لاشيء، فيستفحل بهذا عطبها ويقودها نحو سوداوية تهتزّ ضآلة واضطرابا، فيتضخّم احتقارها لذاتها وهي تندب حظّها العاثر الذي حرمها من كلّ شيء كانت تشتهيه، فتظهر لنفسها ضحيّة مغلوبة على أمرها.

الوضع هذا يُحوّلها إلى شكل شنيع يُشكّلها قاصرا تتأرجح بين أن تكون أو لا تكون، ولكن برغم وضعها هذا تظلّ تُكابر فتنهك نفسها وهي تقفز فوق شللها المميت الذي يجعلها ممتهنة تسعى إلى التّعويض بممارسة الانتفاخ المفتعل أو التعاظم الكاذب، العصا السحرية التي تعتقدها حلاّ لجميع متاعبها.

ثمّ هي لا تُريد أن تعترف بفشلها ولا تُريد أيضا أن تُخطئ في حساباتها لأنّ الخراب الرّوحي المتفشّي بدخيلتها، لم يُبح لها التّجاوب مع أوضاع راهنها الذي عشعشت فيه الوطاويط وتكاثرت واتّخذت كلّ الأحجام.

وبهذا تبتر علاقتها مع الطّبيعة فتتهاوى إلى أسفل الدّرك، حيث لا تملك أن تطلب العفو لتتراجع، فيُصادر منها راهنها ذاك بإيجابيّاته المستحيلة وسلبيّاته المعذّبة، فينزع ما عليها وتظهر عارية تافهة، تجري لتُداري عورتها في إحدى الحجرات المظلمة من ذاتها.

ولأنّ إدراكها لِما حولها يرشح بكثير من الرّجّات، فهي تستحيل من نقيض إلى آخر، دونما أدنى اكتراث، فمن قمّة المأساة إلى ذروة الهزل الذي تُلغي به كلّ الحواجز المكانية والزّمانية، فيكون خداعها لنفسها دون شفقة، ويكون ضربها لها بكثير من الحقد والانحراف، فتفقد توازنها وتنقلب على عقبيها لتخوض في ارتجاعية عقيمة، تُعيد من خلالها النّظر إلى صور حرماناتها الطّويلة التي ما كانت لتنفكّ من أسرها أبدا، فبقيت تعود إليها بمازوخية لا تبغ منها سوى قتل اللّحظة الرّاهنية لتشعر بشيء من الانعتاق.

وهكذا تتجسّد مرجومة ممثّلا بها، ملغية الوجود الإيجابي كلّيا.

وبهذا تُحقّق الشّخصية المنفية للمعمار السّردي كثيرا من الحرارة والتوازن الفكري الذي يعمل على ضبط وتنظيم مضمون حركته وتطوّره وما يعتمل فيه، فتُنير مناجيه السّرية ووقائعه العنيفة التي تنطلق من جذور سلوكية واضحة في رحلة متعدّدة الأنهج، تستطيع الوصول إلى كلّ الحماقات، بل وحتى إلى آخرها، في سردية إجمالية، بداياتها

صحيحة ونهاياتها تامّة ومكتملة، حيث يتوضّح طبعها ليس بالتّواجد فحسب، وإنّما بحركية ونشاط هذا التّواجد.

ومن هنا، فإنّ أيّ برنامج سرديّ هو في حاجة إلى الشّخصية المنفية التي تُسهم في تشكيله وبلورة صنعه ومراقبته، بشكل لا يُمكن تجاهله أو إغفاله.

فبتسطّحها وهامشيّتها وكذا بمعطياتها الفنّية التّطويرية والتّغييرية، تضع مداميك المنظومة السّردية وهي تشرح أحاجي الرّاهن وتُجادل الوعي الآخر المناقض لها. فتتفعّل بهذا حركة الحدث السردي وتتّسع لتحوي عالم الأشياء بكامله، ولتُخبر عن جملة التراكمات والعوائق المتجاورة والمتباينة الأصوات والمتضاربة الأساليب والمظاهر، والتي تُحرّض كلّها على عقلنة الخطّة السّردية وصيرورتها.

الشّخصية المنفية تعمل بسيولتها على التّأسيس لذاك الاحتيال الذي يرتفع بالتّركيب التخيّلي إلى كثافة تُكسب المشروع السّردي مسوغات تجعل منه صنو الرّاهني في أفقيّته وعموديّته، تجربة وخبرة.

ومن هنا، فالشّخصية المنفية تكتسب قوّة امتداد واسعة وهي تستحضر اعترافاتها وتكشف أسرار رحلاتها في الاتّجاه الذي تتّخذ فيه كلّ الأشياء مكانها ضمن هيكل متعدّد الأبعاد، مليء بالإيحاءات التي تجعل من الشّخصية المنفية نقطة التقاء وتآلف لهذه الأبعاد.

الفصل الثاني

الشّخصية الأوديبية

أ- ماهية الشّخصية الأودبية.

ب- الشّخصية الأودبية الإجرامية وصورها في:

1- الطّموح: عرعار عبد العالي.

2- الخنازير: عبد المالك مرتاض.

3- ذاكرة الجنون والانتحار: حميدة العياشي.

ج- الشّخصية الأودبية الاستكانية وصورها في:

1- التفكّك: رشيد بوجدرة.

2- فوضى الأشياء: رشيد بوجدرة.

3- ذاكرة الجسد: أحلام مستغانمي.

مدخل: مفهوم الشّخصية الأودبية.

تُعدّ عقدة أوديب لونا مرضيا، تتلخّص أعراضه وملامحه في ثورة الابن على قوانين السّلطة الأبوية، هذه السّلطة التي تُشكّل في نظره قوّة عثرة في طريق تحقيقه لمطامحه وآماله الحياتية وكينونته الوجودية، وهو يترصّده "كإله الزمن عند الإغريق لا وظيفة له غير أن يلتهم أبناءه عن كره وغيرة"[1].

فصورة هذا الالتهام القاتل الذي لا مناص يأتي، يصنع من الابن شخصية مرعوبة، يعدمها انتظار النّهاية قبل قدومها، ويستحوذ الكره المكبّل على كلّ مناطق حركتها، ويُشرّدها منها ويُلقي بها إلى الغيرة المعوّقة التي تحوّله إلى مُضْطَهَدٍ، ينكشف عنه الشّعور بالعجز الذي ينفيه داخل نفسه وأمامها وأمام الآخرين، فتنفلت منه ثقته بنفسه وتُصبح رجولته ضربا من المستحيل الذي لا يتحقّق، ويتّخذ من العجز حينها وضعية درعية يقي بها ماهيته ويدفع عنها عوامل تفتّتها واندثارها، بتحقيق فكرة تماهيه وانصهاره "مع من يُحبّهم ويفترض بهم كلّية القدرة"[2].

وتكون الأمّ حينئذ هي من يُجسّد هذا الواقع التعويضي الذي يتجاوز به الأب، بل ويلعنه، وهو يحتمي بالأمّ التي ستكون الجسر المنيع الذي يُمكّنه من العبور بسلام، باسترجاع كلّ ما أضاعته منه لاعلاقته بالأب، ولكنّه في هذه الأثناء يقع تحت سلطة أخرى، سلطة "أمّ رءوم تُحبّه غاية الحبّ، وتُحبّ أكثر أن تسحب منه الثّقة في نفسه"[3].

وهكذا يفعل حبّ الأمّ فعله العكسي وهي تُدلّل ابنها وتحوطه بشتّى صنوف الرّعاية والاهتمام، فتزرع فيه وتُنمّي لديه الخوف الذي يتحوّل إلى عاهة تُبطل جميع تحرّكاته، أيّا كان الاتّجاه وكانت المقاصد، فيتقوقع في عالم خالٍ من اللّذة، تُسيّره عقدة القوّة وتصبغه بلون الشّذوذ، المبعد إيّاه عن مجال ممارسة البوح الذّاتي المعلن عن الأنا الذي غيّبته نتشوية الأب وحضن الأمّ.

---

(1) جورج طرابيشي، عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص.188.
(2) جورج طرابيشي، الرجولة وإيديولوجية الرجولة في الرواية العربية، ص.76.
(3) غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1978، ص.81.

فيختلّ بهذا نظامه الشّعوري وتتوقّف صيرورته، فينطوي على ذاته وهو يُضمر لكلّ المحيطين به أشكالا من الأحاسيس المدمّرة القاتلة التي تذهب بالكلّ، فلا يبقى إلاّ هو وقد أمسك بتلابيب أمّه التي لم يعرف يوما غيرها.

وعندما تُطبق عليه عقدة الأمّ وتغمره بهالتها، يُصبح شديد "الحساسية لكلّ ما تقوله أو تشعر به، كما تكون صورتها دائما ماثلة في ذهنه، سوف يُحاول هذا الشّخص إقحام أمّه في ما يرتبط به من أمور وفي كلّ محادثة، سواء كانت وثيقة الصّلة بالموضوع أم لا"[1].

فيتبدّى بهذا صورة منسوخة لأمّه في شعورها وحديثها وتصرّفاتها، بل وحتى في معتقداتها، فيُحقّق وجوده فيها، ولأنّها تتسلّط عليه فهي تتمثّل له في كلّ خطوة يخطوها، فلا يقوى على رؤية غيرها، فهي دائمة القرب منه، حتى وهي بعيدة، يستشيرها في ما يهمّ به من فعل ويستأذنها ويأخذ مباركتها بصورتها محفورة في فكره، لا يتحمّل أن تُمحى لأنّها تُشعره بالطمأنينة والأمان كلّما ارتسمت ملامحها أمام ناظريه. فهو لا يتقبّل فكرة نسيانها لحظة واحدة، دائم الحديث عنها، حتى وإن لم تستدع الظّروف ذلك، فهي تُمارس عليه حضور القوّة والسّيطرة، فيذكرها بلذّة في كلّ أحاديثه ولقاءاته بأصدقائه، وحتى في مواعيده مع نسائه، وكأنه بهذا يُريد أن يستقدمها لتكون معه في كلّ مكان وزمان، لتُشاركه في كلّ ما يفعل وما يقول، فهي مقياسه في الحياة الذي لا يراه يُخطئ أبدا.

ويتّخذ النّموذج الأوديبي صورتان، الأولى منفعلة إجرامية والثّانية منفعلة استكانية.

---

[1] حلمي المليجي، علم نفس الشخصية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص.127.

المبحث الأول
الشخصية الأوديبية الإجرامية وصورها في

الطموح:

وتُشكّل صورة هذا النموذج شخصية خليفة في رواية الطّموح، حيث ينشأ ويعيش في دوّامة من العنف الأبوي الذي يتسلّط عليه معنويا، فلا يراه إلاّ لقيطا أو حلوفا، فيُذيقه من الاضطهاد المادّي ما يسلخ عنه إرادته، فيُحيله مغلوبا في كلّ الأحوال، ويمتدّ هذا الطّغيان الأبوي ليتجاوز شخصية خليفة الابن ويصل إلى أمّه، التي يسمها الزّوج ألوانا من الظّلم والاحتقار والإهانة التي تُدنيها من "الكلبة الشرسة" [1]، هذا الاسم الذي لم يكن يحلو له مخاطبتها ونعتها إلاّ به، فظهرت مستسلمة في طاعتها، عمياء في رضوخها له. وكانت هذه المعاملة تحزّ في نفس الابن، فأضمر الكره الشديد لأبيه والحبّ المفرط لأمّه، ولم يكن خليفة ليُخفي هذا الكره، فقد جهر به أمام أمّه "إنّي أكره أبي لأنّه يكرهك، وأودّ أن لا أراه مرّة ثانية حتى يموت"[2]؟

إنّ هذه الحقيقة الخطيرة التي يعترف بها لأمّه، إنما تنبع من إحساسه بأنّه يُشكّل وإيّاها ذاتا واحدة، وأنّ ما يقع عليها يقع عليه هو أيضا، وبنفس الدّرجة، ولهذا فكُرهه لأبيه يرتبط عنده بكُره أبيه لأمّه، فهو يرغب في أن تُفصم كلّ علاقاته معه، فلا يراه ثانية حتى يموت، والصّحيح الضّمني في العبارة هو أن يموت حتى لا يراه ثانية.

---

[1] عرعار محمد العالي، رواية الطموح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص.82.
[2] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

ويذهب به مقته لأبيه إلى درجة أنه يدعو عليه بالحرق "ليذهب إلى النّار أبي، ليذهب إلى النّار أبي"[1].

إنّ الحرق هو العقاب الذي يرى أباه يستحقّه، إنّ هذه العبارة المكرّرة بترتيبها، تنمّ عن شعور دفين يطلب استعجال القصاص المخلّص له ولأمّه، هذا القصاص الذي يجعل الجحيم الذي قضى عليهما به الأب يرتدّ إليه فيُزيله، فتتحقّق بذلك راحته وأمّه.

وتُولِّد لديه سطوة الأب، الخوف من فقد الأم، خوف يُحسّسه بالوحدة، ويدفعه إلى البكاء عندما يبتعد عنها، فتفشل كلّ قراراته، ومنها قرار هروبه من البيت، فقد جاب الشّوارع طوال النهار، وما أن حلّت الظلمة حتى جرى عائدا إلى البيت، حيث أحضان أمّه، وقد أغرقه التفكير فيها "أخذت أفكّر فيك كثيرا، فكّرت فيك أنت فقط، تخيّلتك ملكة، تمنّيت لو أستطيع الطيران والرجوع إليك في أقصر وقت، بل فقد بكيت وحسبت أنّي فقدتك، وجدت نفسي وحيدا"[2].

إنّ الرّابطة التي توصله بأمّه تجعله دائم التفكير فيها، وفيها دون غيرها، فعبارة (أنتِ فقط) تستثني الأب وغيره، وتؤكّد انبهاره بها واستعداده لركوب التمنّي المستحيل لأجلها، كأن يطير ليرجع إليها وقد قهر إحساسه القاتل بالوحدة.

ولكن برغم هذا يبرز عجزه الذي يُنمّيه الخوف المزدوج من الأب، ومن تضييع الأمّ، ليتحوّل إلى فنتازيا غريبة تروم تجسيد المستحيل، هروبا من الرّاهن الذي لا يملك طاقة التعايش معه، إلاّ بالقفز عليه، لتفاديه مرّة، وتناسيه مرّة أخرى. وفي هذا الخضم تظهر فكرة الرجوع إلى رحم الأمّ، حيث تواجد أوّل مرّة، وأين يتوق العودة ثانية "لماذا لا أستطيع الآن العودة إلى مكاني الأوّل في جوفها. يا ليتني ما خرجت ويا ليتني ما عرفت شيئا غيرها"[3].

فهذا الشكل الهروبي هو وجه من وجوه تأمين الذّات المرتعبة من إحساس تأكيد الانفصال عن الأمّ. فلولا لحظة الميلاد لَما شعر بمرارة النّدم على من يكون قد عرفهم من النّاس غير أمّه، وغيرها في الحقيقة هو الأب، فلو بقي في جوف أمّه لَما كان له من أبيه تلك العلاقة الاضطهادية، ولَما ظهرت هذه السّوداوية في كرهه للنّاس، وحبّه المفرط

---

[1] الرواية، ص.84.
[2] الرواية، ص.75.
[3] الرواية، ص.86.

لواحد فقط من هؤلاء النّاس، وهو أمّه. هذا الحبّ ذاته هو الذي سيدفعه ليصنع لنفسه عالما يستحوذ فيه على كلّ حبّها، بعد أن ينجح في بسط حمايته عليها.

وعندما يستأثر بها لنفسه يطير بها "في أجواء السّماء الزّرقاء على صهوة جواد أبيض مجنّح. تصوّر نفسه بطلا لا يُبعث الخوف فيه، وشجاعا لا يقهره أحد"[1].

إنّ فعل الطيران الذي يتكرّر في القاموس اللّغوي والتّخيّلي لخليفة يُترجم مدى تلهّفه على الفكاك من أسر الأب، وكأنّه يقول له سأستوطن وأمّي السّماء، ولن تظفر بنا مهما حاولت. إنّ الأب الذي زرع في نفس خليفة شعور الخوف، رسّب بداخله إيمانا بالعجز على إتيان أيّ فعل إيجابي. ومن هنا، فهو يُحاول أن يُثبت لأمّه قبل نفسه، ولو في الخيال، بأنّه ليس جبانا، وليس مقهورا، وأنّه بمقدوره أن يكون رجل الأمّ الأوّل، الذي يرعاها ويهتمّ بها، رجل الأمّ الأوّل الذي يُعتمد عليه.

فتسقط بذلك واقعية الذّات، وتتحوّل إلى عكس ما هي عليه لتخدم جانبا من حرب خليفة مع الأب. هذه الحرب التي يُشكّل طرفها الأوّل الابن والأمّ، ويكون طرفها الثّاني الأب. هذه الصّورة التي يُمثّلها "المثلّث الأوديبي المتساوي السّاقين، قاعدته يحتلّها أب شرّير، خصاء ذو وجود عملاق وساحق، وضلعاه واهيان رقيقان يشغلهما أمّ وابن يُساوي بينهما رزوحهما تحت وطأة اضطهاد ذلك الأب"[2].

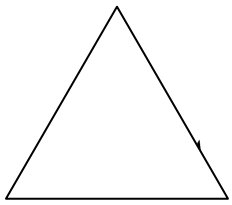

الأب

إنّ هذه الحرب التي تبدو غير متكافئة الأطراف، يكون الإقدام عليها ضربا من البرهنة الإثباتية للذّات على أنّها تملك أن تكون ندّا للأب، الذي ستتحطّم عملاقيته التي صاغت تدجينه مدّة من الزمن.

---

[1] الرواية، ص.95.

[2] جورج طرابيشي، عقدة أوديب، ص.217.

هذه النّدّية التي لا تُخاطب إلاّ الأمّ لتقول لن نكون بعد اليوم مضطهدين، ولن نكون أقلّ قسوة ولا سطوة منه، وأنّنا سنكسر الذّات المنهارة فينا التي مكّنته من كسب معاركه السّابقة ضدّنا.

فالإحساس بالنّدّية من هذا المنطلق هو القادر على أن يُعيد إليهما ذلك الوجود أو تلك الكينونة التي جهد الأب في تجريدهما منها، فاستحالا مجرّد ملغيّين.

ويعمل فعل الإخصاء على تأجيج التصادمية التي تؤكّد فعل الفرار الذي يلوح حلاّ شافيا لراهن خليفة. فبعد العقاب الشّرس الذي خلعه عليه أبوه، يعتزم الفرار، ولكن هذه المرّة ليس بمفرده، ولكن برفقة الأمّ "لن أمكث معك طويلا، سأهرب وآخذ أمّي معي. سأتركك وحيدا"[1].

فالمخصي فيه قد ضاق ذرعا بمعاملة الأب المقيتة، فراح يقذف في وجهه حقيقة يبدو أنّه فكّر فيها منذ زمن، وأنّ الوقت قد آن لتنفيذها، هذا التّنفيذ المشروط بوجود الأمّ طرفا فيه. هذا الطّرف الذي يُمثّل الورقة الرّابحة التي سيستعملها خليفة وقد كشّر عن ضمير الأنا التّهديدي الذي سيحرم الأب من أنيسه، فيُصيّره وحيدا، الوحدة التي سيبذل خليفة جهده ليُذيقها لأبيه الذي زاحمه في أمّه ردحا من الزمن، وعَيَّشَهُ منفيّا مكبّلا لا يقوى حتى على الهروب.

إنّ فشل الهروب الأوّل لن يتكرّر ثانية لأنّه في هذه المرّة ستكون إلى جانبه أمّه التي لن يُخطئ فيُخلّفها وراءه، بل سيأخذها معه، وسيحمل الأخذ هنا مفهوم الالتزام الكفيل وحده بإنجاح ما قرّره.

وستظهر خاصيّة الإجبار مرّة أخرى في لهجة الأمر الذي سيُصدره خليفة لأمّه والقاضي بأن تستعدّ وتتأهّب لهذا الفرار، لهجة الأمر التي يُنبئ معناها عن سياق من التّكليف الذي حمّله خليفة لنفسه لتصيير أمّه مسؤولة منه "في منتصف هذه اللّيلة تماما سنقوم ونفرّ من الدّار، سيكون أبي راقدا، ونستطيع بذلك النّجاة منه إلى الأبد"[2].

إنّ خليفة يظهر هنا وقد ألغى صلاحية الأمّ، فأصبح يُفكّر في مكانها ويُقرّر نيابة عنها، فهو قد حسم مسألة الهرب زمنيا وبلّغها للأمّ المطالَبة بالسّير خلفه في جنح الظّلام.

---

[1] الرواية، ص.96.

[2] الرواية، ص.113.

إنّ توقيت الفرار الذي رآه خليفة مناسبا هو منتصف اللّيل وأثناء نوم الأب الذي لن يتمكّن من إحباط مخطّطه وهو يغطّ في النوم. فخليفة مازال يرهب الأب في يقظته، ولا يستطيع أن يُقرّر أو أن يُنفّذ أيّ أمر مهما كان، فالهرب لا يُمثّل الخلاص الأبدي، في عرف خليفة، إلاّ في رقاد الأب وسكونه، لأنّ حركة الأب تُربك خليفة وتُشوّش مشاريعه وتقضي عليها. ومن هنا، فهو لا يستلذّ طعم العتق إلاّ في هجعة الأب التي سيُحوّلها خليفة من هجعة نوم إلى هجعة موت وهو يُشارك أمّه قتل أبيه. جريمة توهّمها تُزيح أباه من طريقه وتشفي غليله، فيكون حبّ أمّه له وحده. ولكن هذه الأمّ ستصعقه عندما تعترف له أنّها على علاقة برجل آخر غير أبيه، وهذا منذ مدّة، فتميد الأرض به وينقلب اطمئنانه إلى خيبة، فهو لم يُشارك أمّه جريمتها إلاّ ليحتفظ بحبّها ملكا خاصّا لا يقربه أحد، ولكن أن يظهر له منافس آخر في هذا الحبّ، فهذا الذي لم يحسب حسابه.

فحقد على أمّه واتّهمها، بينه وبين نفسه، بالكذب والخيانة، وبأنّها استغفلته ومثّلت عليه العجز والعفّة، لتنسج علاقاتها المشبوهة، فكره عشيق أمّه وتمنّى موته قبل حتى أن يراه ويعرفه، وحمّله مسؤولية موت أبيه، فأمّه لم تُقدِم على جريمتها إلاّ من أجل عشيقها هذا.

وكان يشتدّ بغض خليفة لهذا الرجل ويتعملق كلّما رآه يدنو من أمّه أو ينظر إليها أو يُكلّمها، فقرّر التخلّص منه. وعند أوّل فرصة سانحة، وبكلّ برودة أعصاب، قضى عليه "أعددت بندقيتي ووجّهتها إلى رأس الرجل الغريب وأصبعي على الزّناد. قلت مخاطبا إيّاه: أنظر إلي. أطلقت رصاصة عليه فاخترقت الرّصاصة هذه وتركت ثقبا أسودا في جبهته"[1].

لقد أصرّ على أن لا يترك الرّجل الغريب يعيش لأنّه دخل منطقته المحرّمة والمقدّسة، واستولى على أعزّ أملاكه، وهو لا يظهر متسامحا ولا يغفر لمن يطعنه في الظّهر، فترصّده واستدرجه إلى شرك الثّقة، فاستأمنه الرّجل فلم يُحرّك ساكنا وخليفة يُوجّه فوهة بندقيّته إلى رأسه، بل لم يُقاوم ولم يهرب لأنّه كان يعتقد أنّ هذه الحركة من خليفة ليست إلاّ دعابة. وبأعصاب هادئة وضمير غائب، وبطلقة واحدة، فجّر رأس الرّجل

---

[1] الرواية، ص.227.

الغريب، ليعيش بعدها انتشاء وفرحا غريبين "شعور عجيب بالسّرور يتملّكني ويُسيطر عليّ. قلت لنفسي إنّي الآن مرتاح"[1].

فقد نجح في استعادة أمّه ثانية، ويُمكنه الآن أن يرتاح في حضنها دون منغّص، حتى وإن ظهر منغّص آخر، فسيُسطّر له نفس مصير الأب ومصير العشيق، فهو لأجل الاحتفاظ بها مستعدّ على ارتكاب ما لا يُعدّ من الجرائم.

وسيظلّ يُثبت لها إخلاصه، فهو لم يخنها يوما، ولم يوهمها كاذبا مثلما فعلت هي عندما ادّعت أنها تتخلّص من الأب لأجله ولأجل سعادته.

ويتعرّف خليفة على إحدى النّساء ويتزوّجها ويذهب بها بعيدا عن الأمّ التي بقي حضورها ماثلا يُمارس سيطرته عليه، فيندم على فراق أمّه، وتُعذّبه عقدة الذّنب ويسعى للتّكفير عن هذه الخطيئة بالمزج بين صورتي الأمّ والزّوجة، فتُصبح الزّوجة عندئذ أمّا، يبذل كلّ جهده للحفاظ عليها برغم كلّ شيء، فيُغرقه إحساس التملّك ثانية، ويحسّ أمومتها، وتلتبس عليه المشاعر، وتُلغى صورة الزّوجة وتعيش مكانها صورة الأمّ وحدها، فيُقرّر أن لا يُفارقها، وأن يقترف كلّ الآثام حتى يكون حنانها وودّها من حقّه هو فقط، ولن يأذن لأحد بأن يُشاركه هذه الأحاسيس، ولو كان ولده الذي حقد عليه وأضمر له من الكراهية والغيرة الكمّ الفظيع، واعتراه خوف شديد منه وهو لمّا يزال رضيعا، فرآه يأخذ منه زوجته مثلما أخذ أبوه والرّجل الغريب منه أمّه.

فلم يكن ليستسيغ زوجته، بل أمّه، وهي ترعى الطّفل وتحدب عليه وتُطعمه من أمومتها المتدفّقة، فأحسّ نفسه مهملا ومعوَّضا ومستبدَلا، فقرّر أن لا يعيش طفله هذا، وأخذ يتربّص به مثلما تربّص بأبيه والرجل الغريب ذات يوم "سأختطف الطّفل وآتي به إلى هذه الغابة وأقدّمه طعمة سهلة للحيوانات الضّارية. ستكون العملية سهلة"[2].

لقد تعوّد الانقضاض على ضحاياه وهم في غفلة من أمرهم، ساعد أمّه على قتل أبيه الذي كان يغطّ في نوم سحيق، وقتل الرجل الغريب وهو يغطّ في غفلة الاطمئنان له، وهاهو الآن يُكلّم نفسه ويُدبّر معها، بل ويُحرّضها على اختطاف طفله الرّضيع العاجز، وأمّه غافلة عنه، ليُهديه مأدبة سهلة المنال للحيوانات المفترسة، وهو في هذا يستلذّ طعم

---

[1] الرواية، ص.227.

[2] الرواية، ص.346.

الانتقام من زوجته التي أنجبت له الضدّ الذي يُزاحمه المكان، ويتحوّل بهذا هو الآخر إلى أب مُضْطَهِدٍ، ينهج مع ابنه أمرّ ما كان يُلاقيه هو مع أبيه.

وتسوء العلاقة بين خليفة وزوجته، ويحدث شجار عنيف بينهما، وفي هذا الخضم تتراءى له أمّه، وتتقزّم الزّوجة التي لم تنجح في تعويضه أمّه، فحنّ للرّجوع إليها ثانية، وأيقن عجزه على أن يُحبّ امرأة أخرى غيرها، وسمعها تُناديه وتُكلّمه وتؤنّبه على أنّه نسيها، وتطلب منه الرجوع إليها، فهي مازالت تنتظره وتُفكّر فيه وتتمنّى أن تحضنه مثلما كانت تفعل دائما، وتتوسّل إليه بأن يُنهي علاقته بتلك التي تزوّجها وفضّلها عليها.

ويُصغي خليفة لأمّه وهي تُسمّيه بالعزيز وتفتح له ذراعيها ليُلقي بنفسه على صدرها "ابني العزيز، لماذا أوقعت نفسك في مثل هذا الموقف؟، لماذا تركتني وتبعت هذه الفتاة؟ ابني العزيز، كيف أمكَن لك أن تمكث سنة مع هذه المرأة ولا تتذّكرني مرّة واحدة. أمّا أنا يا بني فإنّي مازلت أفكّر فيك، فعد إلي والجأ إلى أمّك. عد إلي يا بني واترك هذه الفتاة. عد إلى أمّك. عد إلى أحضاني وإلى صدري، إنه مازال بإمكاني تدفئة أعضائك المرتجفة. سأجعلك تلتصق بي التصاقا فليس بعده فكاك. لا تجعلني أنتظر أكثر ممّا انتظرت. عد. عد. عد."[1].

إنّ هذا الكلام في حقيقته هو كلام خليفة لأمّه لا العكس، فهو يُخاطبها رغم بعدها عنه فيقول: أمّي العزيزة. لقد تركتك وتبعت هذه الفتاة، فأوقعت نفسي في هذا الموقف الذي لا أغفره لنفسي، فقد مكثت مع هذه المرأة سنة بكاملها لم أنساك فيها ولو يوما واحدا. سأعود إليك يا أمّي وسأترك هذه المرأة، فأنا مشتاق إلى دفء صدرك، فأنت وحدك التي أشعر بالأمان في حضنها. أمّي سأعود إليك وسأبقى إلى جوارك بحيث لا فكاك. سأعود إليك. سأعود إليك. سأعود إليك.

فخليفة برغم زواجه، الذي كان محاولة خلاصية كاذبة ومؤقّتة، بقي متأكّدا من أنّ مشاعره لا تستطيع أن تنسجم مع مشاعر امرأة أخرى غير أمّه. وضعية أتعبته كثيرا، فلم يجد بدّا من مناشدة العودة إلى شرنقة الأمّ وعدم الخروج منها مطلقا. وبهذا يُحكم عليه بأن يبقى حبيس أمّه وقيودها.

---

[1] الرواية، ص.346.

الخنازير:

وفي رواية الخنازير يعرض علينا عبد المالك مرتاض شخصية الشّطاح الذي يعيش ويكبر وهو يُضمر كراهية مرعبة لأبيه العميل، فيُحمّله وزر فشله الدّائم وتبعة نكباته المتتالية، وعندما يذكره تطفح قرارته مرارة وأسى "لماذا يا الرب خلقتني؟ لماذا كنتُ ولد حركي؟ لماذا؟ إيش عملت؟."[1].

فهو يُحسّ أنّ لعنة أبيه تُلاحقه أينما اتّجه وتُرافقه أينما حلّ، فيظهر انكساره وتمنّيه المدفون الذي يجعله يكفر بقدره الذي جاء به إلى الحياة التي لا يُريدها، وما أراد أن يكون فيها، ويشتدّ تذمّره ويتّسع اعتراضه وهو يسأل، لماذا كان هو ابنا لعميل؟، ويفتح هنا السّؤال على المحاسبة، محاسبة الأب على ما ارتكبه، وعلى إرث الخيانة الثّقيل الذي خلّفه له.

فهو بريء، لم يقترف ذنبا ولم يرتكب إثما، ولكن برغم هذا التصقت به خيانة الأب التي لا يُذكر إلاّ بها أو بمعانيها.

خيانة أرّقته وأفقدته زمام أمره، وفعلت فعل المدية التي تطعنه كلّ لحظة، فتنزف جروحه ويرتفع ألمه، ويستمرّ هكذا عقابه دون أن يعرف ما تُهمته، ويعيش بعد هذا وقد قضت عليه كنيته المشؤومة (ابن العميل)، فأصبح كلّما اجترّ حالته اشتدّ شعوره بأنّه لا يُساوي شيئا.

وكلّما نظر إلى نفسه رآها ضحيّة جرم لا يُقرّه، يسعى بكلّ قواه لتبرئة نفسه منه ومن الرّاهن الذي لم يصنعه، فتلفظ دخيلته (آها) حارقة يُنفّس بها عن المتأجّج فيه "آه لو أولد من جديد ! صبي في قماط. لو كان لي حقّ الاختيار أرفض أبي، نفسي، زماني، مكاني أيضا"[2]. وتتّحد زفرة الآه مع لو التي يُريد أن يُقوّض بها راهنه ليُشيّد مكانه مستحيلا عاش معه وتاق لتحقيقه برضا جامح.

لو التي يمتطيها لتتوقّف به عند لحظة ما قبل ولادته التي ظلّ وبالها عليه يُذلّه ويُذيقه المهانة حتى المقت، لو التي يُريد أن يولد بها ثانية فيتحرّر من حاضره وماضيه

---

[1] عبد المالك مرتاض، الخنازير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.128.

[2] الرواية، ص.133.

وماضي أبيه ويمحي اسم العميل واسم ابن العميل، النّعوت التي قضّت مضجعه وسلبته الشّعور الآدمي.

ما يُريده من لو أن تُبقيه صبيّا لا يكبر ولا يعي من شؤون الحياة شيئا، صبيا لا يفهم معنى (العميل)، ولا يُدرك حقيقة (ابن العميل)، فيعيش مرتاحا مطمئنا بمنأى عن التّنغيصات التي ما انفكّ يُعانيها وهو كبير.

ويبقى خيط حديثه إلى نفسه ممدودا يتأبّط (لو) التي يطلب منها أن تمنحه امتياز أن يختار، ليرفض كلّ ما فُرض عليه، بدءا بأبيه الذي لم يختره، الأب الذي جنى عليه وكان سبب مأساته كلّها. سيرفض زمانه الذي حكم عليه بأن يعيش فيه بوصمة العميل.

سيرفض مكانه، سيرفض من فيه أيضا، هؤلاء الذين أمعنوا في توسيع معاناته وهم يتلامزون عليه ساخرين، ويُشيرون إليه معيّرينه، مذكّرين إيّاه كلّ مرّة أنه ليس سوى ابنا لعميل، مرفوض وجوده في كلّ مكان وفي أيّ مكان. فنظرات الآخرين ومعاملاتهم له تُكبّله وتؤكّد له دائما أنه لا شيء.

فما أسهل –لو– عندما يختار بها أن تتجدّد ولادته، فيكون ابنا لأب آخر، وفي مكان وزمان آخرين، فيُصبح بـــ(لو) كائنا آخر اغتسل من كلّ أدران العقد العالقة به.

وحينما يلتقي بهؤلاء الذين لا يعرفون كنيته ولا يعرفون ماضيه، يهرع فيُلبس أباه بذلة الجهاد والبطولة، فيتراءى لنفسه ابن بطل، وقد غمره شعور القوّة الكاذب، بأنّه ورث زعامة إتيان الخوارق عن أبيه "النضال أتعبنا ! أنا! أعوذ بالله من قولة أنا، أبي مات في سبيل الثورة!... مات. خلاّني ورثت نضاله"[1].

ولأنّ ذكرى الأب العميل مازالت تطحنه، يلجأ إلى تقنيع الحقيقة، فيتظاهر بالتّواضع والتّفاني في النضال، غير آبه بالتّعب الذي يناله، فهو سليل الجهاد، فقد كانت الثّورة ميدان أبيه الذي استُشهد مناضلا. ويذهب في التّزييف إلى أبعد الحدود عندما يجهر بأنه لا يقوم إلاّ بتتبّع خطوات أبيه الذي حمّله تركة ثقيلة، لا يحملها إلاّ الشّرفاء والأقوياء الذين يرفعون عبئها دونما كلل أو شكوى.

وهو يتحدّث عن نفسه يستخدم ضمير الجمع، لا لأنه يُريد أن يُعظّم ذاته المتقزّمة، ولكن ليُعبّر عن واقع وحال نفسيته المتشظّية التي راحت تُواجه وتتصادم مع حاضرها

---

[1] الرواية، ص.138.

وماضيها، وماضي أبيها، وحيّزها الزّماني والمكاني، ومع الآخر، فانشطر يُبارز هذه الجهات كلّها. صدام صنع أسبابه أبوه الذي مات بعيدا عن الثّورة وسبيلها، بل كان موته لأجل الغايات التي تقتضيها الخيانة، التي تحوّلت إلى حبل مشنقة يُفزعه، حتى وهو ينسج الرّوايات التي استطعم حكيها.

إنّه يمقت حقيقة أبيه، وإذا ما ذُكرت أمامه أو ذُكّر بها، تتملّكه نوبة من الإجرام التي لا تُغادره إلاّ بعد أن يطمس ضحيّته التي لا يتسامح معها ولا يغفر خطأها، وهذا ما لحق مديرة مخيّم البنات حينما ذكّرته ذات مرّة بهذه الحقيقة، بل وأمعنت في ذكرها له، فصيّرتها شتما وتعييرا، فثارت ثائرته وقرّر الانتقام منها، وعندما استشار ذاته المجرمة كيف يتسنّى له ذلك، أسرّت له الطريقة.

"تنقضّ بكلّ قواك، تطبّق برشاقة، تكمّ فمها، تُكتّف يديها، تشدّ رجليها. الآن تحملها على كاهلك كأنّك لا تحمل. تركض، تتخبّط، قوّتك تضطرب، لا فائدة في المقاومة"[1].

في عتمة اللّيل والنّاس نيّام، يتسلّل إلى مخبئها فيُنفّذ ما دلّته عليه ذاته المجرمة، فيشحذ كلّ قواه ويهجم عليها، ويبدأ بغلق فمها حتى يقطع عليها سبيل الصّراخ وطلب النجدة، فلا يصل إليها أحد ولا يعرف بأمرها نزلاء المخيّم، ثمّ يأتي إلى يديها فيُقيّدهما حتى يمنعها من المقاومة والدّفاع عن نفسها، وأخيرا يشدّ رجليها حتى لا يُمكنّها من الحركة ومن ثمّ الهروب، وهكذا يكون قد شلّ كلّ حركة لضحيّته، ويسهل عليه بعد ذلك حملها، يضعها على كتفيه وهو يُقنع نفسه أنّه لا يحمل شيئا حتى لا يفشل، وبرغم مقاومتها له ظلّ يجري باتّجاه الغابة، يجري صوب الكهف المهجور، وعندما يصل يُلقيها، بل يرميها هناك ثمّ يغتصبها. وعندما يُتمّ جريمته يُحدّث نفسه بأنه سيظلّ يغتصبها كلّ ليلة. ينتظر حتى ينام الجميع ويتّخذ الكهف وجهته لتنفيذ انتقامه الذي يُريده مستمرّا "في كلّ ليلة تأتي وصيد بالمجان، ولا مهر ولا سكن، خسارة قتلها ! جسمها طعام شهي يُطفئ نار الشّبق. كيف أقتلها؟ أتمتّع، زواج متعة مشروع"[2].

وصار على هذه الحال، كلّ ليلة يزور الكهف ويتمتّع بضحيّته أو صيده، فيؤمّن بذلك حاجة غريزته مجّانا.

---

[1] الرواية، ص.63.

[2] الرواية، ص.66، 83-84.

وعندما يومئ في نفسه إلى فكرة الزّواج، يرى أنّ وضعه الذي هو عليه هو أريح وضع بالنّسبة له، فهو غير مجبَر على تقديم المهر كما في الزّواج، وليس مطالَبا بتأمين السّكن، فالمغارة التي تعوّد عليها نهاية كلّ يوم تُناسبه جدّا.

وتُساوره في لحظة ما فكرة قتل ضحيّته والتخلّص منها حتى يُخفي بذلك جريمته، ولكنّه يعدِل عن ذلك وقد أنكر على نفسه مثل هذا التّفكير، فقتلها يُعدّ أكبر خسارة له، فهي الوحيدة التي يُمكنه بها إطفاء غريزته الحيوانية الدّائمة الاشتعال.

ثمّ يذهب إلى إقناع نفسه بأنّه قد تزوّجها. نعم لم يتزوّجها الزّواج المتعارف عليه ولكن تزوّجها زواج متعة، وهو مشروع، فيسوغ بذلك أفعاله أو فعلته الاغتصابية بأن يسلّها من العمل الإجرامي ويُعطيها الشّكل الطّبيعي بين الرّجل والمرأة عندما تتجسّد صفة الزّواج.

وهكذا يخلص الفعل الانتقامي عنده إلى تفسير تمويهي، يُنكر فيه الحقيقة الاغتصابية التي يُكرّرها كلّما عاوده جوعه الجنسي، غريزة تتحكّم فيه وتُوجّهه إلى أن يرتكب، باسمها ولأجلها، ما عظُم من الخطايا، ويسعى بعد ذلك إلى تنظيفها بمنطقية لا يعرفها إلاّ هو، فيُلبسها الحجّة التي تُبيح له الإبقاء عليها، فتظلّ هكذا الأشياء كلّها على ما هي عليه.

حالة يقرب فيها شبهه بأبيه الذي برغم من أنّه قضى حياته يكرهه إلاّ أنه يتقفّى مساره، فيذكره وهو يتجنّى نفس جنايته "أبوك يُغافصهن، كان يستخدم الرّشاشة، يُضاجعهن كرها ثم يهرب عندهم"[1].

فأبوه قبله كان صاحب نزوات اغتصابية، مارسها على نساء جلدته، بعد أن يُجبرهنّ على الرّضوخ له تحت تهديد وتخويف الرّشاش الذي أمدّته به فرنسا نظير خدماته لها. فكان هذا السّلاح وسيلته الوحيدة التي تُمكّنه من تنفيذ خياناته التي لم تكن لتُعرف حدودها.

فهو يعتدي على نساء بلده، فيقضي وطره منهنّ قهرا، ويغتصب لذّته منهنّ كرها ثمّ يلوذ بالفرار عند الفرنسيّين، يحتمي بهم من إخوانه. فهو يعدّ متعته فوق كلّ اهتمام آخر، ولذا فهو في سبيلها يسرق ما للآخرين، على مضض منهم. ولأنّه عميل لفرنسا

---

[1] الرواية، ص.84.

ويُدين لها بالولاء، فهو يرى أنّه ما يحقّ لهم يحقّ له، ومادام الفرنسي يحصل على كلّ شيء، ولو بالقوّة، ولا أحد يُحاسبه، فهو أيضا من حقّه ذلك، فهو منهم ولا يُمكنه إلاّ أن يكون منهم.

وهكذا كان تفكير أبيه الذي لا يذكره إلاّ بهذه الأوزار، ولا يتذكّره إلاّ في زيّ العميل، وكأنّه بهذا يُحاول تبرئة أعماله، فهو ليس سوى ضحيّة ماضي أبيه وما أورثه إيّاه، ولهذا فهو لا يستحقّ أن يؤاخذ لأنّ كلّ الأخطاء التي وقع فيها وقد يقع فيها، هي في الأصل مسؤولية هذا الماضي الذي أغرقه، فلم يستطع أن يتحرّك إلاّ في كنف لعنته، التي قرّر مرّة وهو يُحبّ إحدى نساء المخيّم أن يتملّص من شركها بأن يُعيد النّظر في كلّ حياته، فيضرب صفحا عن جميع هفواته التي أزلّت عيشه.

حينها أسرّ لنفسه أنه مستعدّ على تغيير حياته، فرآها تنقلب أفضل، فتُحيله إنسانا آخر بمعنى جديد، ولكن عندما لم تُبادله إحساسا بآخر ولم تقتسم معه شعوره، نادته لعنة ماضيه ثانية، فاستجاب لها وأصغى إليها وهي تُملي عليه أن يختطفها ويغتصبها هي الأخرى. "تُلقّنها درسا... غدا ! تحرق الخيمة اللّيلة... تهجم عليها، تختطفها تحت الظّلام... تُضاجعها... تشبع... حتى تشبع ! تغتصب جسمها... تنقضّ عليه ! تفترشه، تنام عليه... تأكل منه... عضوا عضوا."[1].

تخرج ذاته الآمرة بالإجرام لتُخطّط له كيفية الاقتصاص منها، فتُزيّن له أن يفترص الفرصة في عتمة الليل وفي خفية حلاكته، يقتحم عليها خيمتها، ويُضرم فيها النار، ويخطفها ويهرب بها نحو الغابة، حيث الكهف الذي تعوّد أن يحتجز فيه ضحاياه.

وهناك يُصبح الفعل الجنسي التّهديدي لا يستوعب هوس خيالاته الاغتصابية المريضة، التي تتشكّل وحشا ضاريا يهجم على طريدته، ينقضّ عليها، يشلّ حركتها، يقتلها، ليأكلها جزءا فآخر حتى الشّبع.

هذا هو الدّرس الذي هدّدها بأنّه سيُعلّمها إيّاه، درس يَرِدُ فيه الفعل الاغتصابي صورا متتابعة، يبدأ بالمضاجعة القهرية وينتهي بالالتهام الكلي الذي يصل إلى ذروة التّمزيق التّعذيبي البشع.

---

[1] الرواية، ص.218.

ومن هنا، فإنّ معنى الجنس في اعتقاده، لا يخرج عن كونه أداة من أدوات تحقيق الإيجابية العقابية لا غير. معنى لم يفقه سواه طوال حياته، وقد نجح في استخدامه واسطة حينما كان يوهم نفسه بأنّ الآخرين يُريدون إيذاءه، فيُسارع إلى صدّ ضررهم بمهاجمتهم وتحويلهم إلى ضحايا له. ضحايا كنّ من النّساء دائما، لأنّه لا يُمكنه أن يكون ندّا للرّجال، فقد تورّط يوما في عراك جسدي مع غريم له فلم يُطق الصمود أمام قوّته وشراسة مغالبته، فلم يردّ عليه ضرباته ولم يُقاومه، وانسحب وهو يعترف بعجزه الجبان أمامه، "أيّ جبان أنا! جبان، هذا الكلب يغلبني."[1].

فانكفأ على نفسه يتحسّر عليها ويُوبّخها وينعتها بالجبن، ويستصغر شأن غريمه ويصفه بالكلب، ويتوعّده في سرّه بأنّه سينتقم منه، مبدأ الضرب في الظهر الذي تعوّد التعامل به لأنّه لا يُحسن المواجهة، فيلجأ إلى المخاتلة والمخادعة للنّيل من خصمه الذي يكون خالي الفطنة.

ومن هنا، فقد كان شعوره بالهزيمة دائما مردّه إلى عدم الثّقة التي تخونه، فلا تؤهّله على أن يُبارز الرجال. فالجبن أيضا يكون قد ورثه عن أبيه، الذي اختار أهون السّبل فكان عميلا، لم يسمح له خوفه أو جبنه من أن يكون مع المناضلين.

وهكذا يكون الشّطاح قد تلقّف من أبيه تركة تنضح عفنا، ظلّت معه طوال حياته، وكان تخلّصه منها أمرا مستحيلا.

ذاكرة الجنون والانتحار:

وتظهر شخصية ديدوح في دائرة الجنون والانتحار وهي ترتدي أوديبية متعدّدة التلبّسات، خيالية الأطوار، فقد بقي ديدوح يتذكّر ما رُوي له عن ردّة فعل أبيه وهو يُبلّغ نبأ ولادته، وبالرغم من أنه كان حينها صبيّا لا يعي الأشياء إلاّ أنّ الحكاية ظلّت تُروى على مسمعه المرّة تلو الأخرى، حتى وعاها وانحفرت في ذاكرته، فنشأ وكبُر وهو يعلم ويُحسّ كره أبيه له، فبادله إيّاه، وصار كلّما ذكره روى القصة قائلا: "عندما باضتني أمّي

---

[1] الرواية، ص.121.

نعق والدي في وجهها وقال بأنني لا أشبهه. هذا المخلوق لا يُشبه إلاّ ديدوح آكل الأطفال، وأسماني ديدوح. لو استطاع لخنقني، لقتلني، لطردني من زريبة العائلة"[1].

فأبوه لم يفرح ولم يُرحّب بمجيئه إلى هذه الدّنيا، فبمجرّد ما وقعت عينه عليه حتى صاح في وجه الأمّ مستشيطا غضبا، متبرّئا من الطّفل لأنّه لا يحمل أيّ شبه منه، وما دام لا يُشبهه فهو ليس ابنه، ثم هو يستبشعه فيراه يُماثل ديدوح الوحش الذي يلتهم الصّغار، فيمنحه اسم هذا الغول الذي لا يخافه الأطفال وحدهم، بل يخافه حتى الكبار، فأصبح منذ ذاك لا يُعرف ولا يُنادى إلاّ باسم هذا الكائن المتوحّش.

وبدأ من هنا تطيّر أبيه منه، وكبر مقته له، فكان لا يتحمّل رؤيته ولا وجوده، ويتحيّن الفرصة لقتله، ولكنّه لم ينجح، ربّما لأنّ أمّه كانت هناك تمنع عنه الأذى، وكبر وهو يشعر بأن لا مكان له في بيت العائلة، وأنّ أباه سيطرده لا محالة إن وجد المجال لذلك يوما. وتوحّشت بهذا أحاسيسه تّجاه أبيه وكبرت غربته عنه وفصم كلّ علاقة شعورية به، كافرا بأبوّته التي لم تكترث به صبيّا ولا يافعا، وصنعت منه مخلوقا مقزّزا يعافه الآخرون ويخشونه، فحكم عليه بأن يكون منبوذا لا يقربه أحد.

وكلّما كان يتدرّج في العمر كان يمتدّ ما يكتمه له من البغض، وربّما لخوفه منه لم يكن يُعلن عن المعاملة السيئة التي كان يلقاها منه، فكان يُسقط ذاك البغض الذي يُثقله على معلّمه، فحديثه عن هذا المعلّم إنّما كان في الحقيقة حديثا عن الأب الذي كان يُعاقبه بالضّرب حتى يتبوّل "صفعة وركلة ثمّ ثمّ ثمّ، قاومت، ثمّ ثمّ ثمّ قتلت سادية المعلّم حرشاوي... انقضّ علي المعلّم حرشاوي باللّطم واللّكم ورأيت نجمة بيضاء وحمراء. أكره شبحه، أكره طوله، أكره جنونه، أكره ساديته، أكره يده"[2].

فهو يذكر المعلّم حرشاوي أكثر من مرّة وكأنّه يُريد بهذا أن يُقنع نفسه أنّ العقاب الذي كان يناله كان منه، فهو حتى يؤكّد نقيض الحقيقة يلجأ إلى تكرار أسماء وأحداث بعينها.

---

[1] حميدة عياشي، ذاكرة الجنون والانتحار، النشر لافوميك، 1986، ص.85.

[2] الرواية، ص.14 و84.

إنّ العقاب الذي كان يلحقه، فيه الكثير من القسوة، وعبثا كان يُحاول مقاومة كلّ ذلك الصّقع واللّكم والرّكل، تعذيب كان يُفقده وعيه فيُغمى عليه، وهو يكبت آلامه ويختزن شدّته.

ولمّا ثقل عليه الكره وتحرّك فيه، صاح بكلّ الأساليب معلنا عنه لذاك المعلّم الذي ما عاد يتحمّله، لا صورة ولا خيالا، ما عاد يتحمّل حماقاته وعاهاته الخبيئة، هذا المعلّم الذي لم يكن إلاّ وجه أبيه الذي كان تربّصه به منذ لحظة ميلاده لأنّه لم يحمل شبها منه، تهمة استحقّ عليها الهلاك.

ولأنّ حياته كانت مزيجا من الكره والتخلّي، عاش يتوق إلى الحنان والحبّ، فأحبّ امرأة لم تُبادله الحبّ، وإنّما أوهمته به أو توهّمه وصدّق وهمه، وعندما أخبرته بعد أوّل لقاء بينهما أنّها لا تُكنّ له أيّة مشاعر من تلك التي يطلبها أو يتخيّلها، جنّ جنونه، يتذكّر ما كان بينهما "في أوّل لقاء لنا قالت، وهي تجهش بالبكاء على صدري، أنها تُحبّني، وفي ثاني لقاء نصحتني بنسيان حبّنا ذاك، الذي فيما أعتقد أسمته حماقتنا، وفي ثالث لقاء... إزبأرّت في وجهي وأعطت رجليها للريح"[1].

ولأنّ تجربته الحياتية كانت خالية من مثل هذه المشاعر فإنّه لم يستطع أن يُميّز الكذب من الصّدق، والخيال من الحقيقة. ففي أوّل لقاء بينهما يقول أنّها ارتمت في أحضانه، وهي تُعلن له عن حبّها. كلّ هذا يحدث في اللّقاء الأوّل أو كان يُريده أن يحدث، وعندما يحصل تخيّله ويُصدّق ما تخيّل، تظهر بعد ذلك في اللّقاء الثاني أكثر جدّية وحزم، وهي تُلغي ما أفصحت عنه في لقائها الأوّل به، بل وتذهب بعقلانية إلى نصحه بوجوب أن يبتعدا عن بعضهما لأنّ هذه الأحاسيس ليست إلاّ حماقة يجب توقيفها، ليأتي اللّقاء الثّالث الذي لم يكن في حقيقته لقاءً، بل كان مصادفة، ربّما يكون قد لمحها من بعيد أو رآها فأراد الاقتراب منها، فكانت ردّة فعلها أن الزم مكانك، مؤكّدة بذلك ما وقع بينهما في اللّقاء السابق، فجهُمت وزمجرت في وجهه هاربة منه.

بعد هذا الموقف انهارت أعصابه ودخل إثره مصحّة عقلية ليهرب منها قاصدا بيتها، متحيّنا فرصة رؤيتها "وقفت كمسمار صدئ في قلب باب فيلتكم وانتظرت... كنت أتحسّس المدية بعنف وجنون... تصوّرتك ميّتة، تصوّرتني قاتلك. تصوّرتك جثّة،

---

(1) ؟؟

تصوّرتني شبه نادم على قتلك. تصوّرتك دجاجة تنتفض في برك من الدم، وتصوّرتني ملقي بنفسي من أعلى الجسر"[1].

ويظهر أنّ الفعل الإجرامي يتحرّك في فكره التخيّلي، فبعد أن شعر بأنّها خانته ورمت به هَمَلاً، يقصد بيتها، يقف عند الباب وينتظر، لا يهمّ كم ينتظر من الوقت، المهم أن لا يتزحزح من هناك حتى يُنفّذ ما جاء لأجله. ثمّ هو يُخاطبها بأنّه انزوى بجانب الباب يترقّبها ويترصّدها، وبيده أداة الجريمة، سكّين عظيمة لن يُمكنها من أن تنجو منها، يتلمّسها بين الحين والآخر بارتباك وصبر نافذ.

وفي لحظات الانتظار تلك جمح به خياله المجرم فصوّر له أنّه قتلها وأنهى المسألة، وأنه يراها ممدّدة أمامه جثّة هامدة غارقة في دمها كطائر مذبوح، فأعجبه المشهد لأوّل وهلة ثمّ لم يلبث أن تأسّف وكره فعلته تلك وسعى للتكفير عنها بالانتقام من نفسه، ليتصوّرها تقصد الجسر وتقفز منه منتحرة. وهكذا يتصوّر نهايته، يقتلها ثمّ يلحق بها. فخياله الإجرامي سريع الحركة، فجائي التوقّف، يشطّ به شططا غريبا. خيال إجرامي أحكم التّخطيط لكلّ شيء، فهو لا يرغب في العيش من بعدها وكأنّ مهمّته الحياتية تنتهي بالتخلّص منها.

وفكرة الانتحار دائما تستهويه، فكلّما التبست عليه أموره نزع نحوها، ولكنّه يعود فيجبن عن تحقيقها، ويقوم في هذه الأثناء الإجرام الرّابض في مخيّلته بإعطائه الحلّ الذي يختزنه له، فيُصوّره منتحرا، ولكنّ صورته منتحرا لا تُعجبه، بل تُخيفه، فيُحاول أن يستبدلها بأخرى، وهي أن يكتشف ميّتا ويرى نفسه ميّتا، وقد جاءت الناس جماعات تُعزّي أسرته، ويرى من ضمن المعزّين حبيبته التي خانته وهي برفقة زوجها الضّابط الذي فضّلته عليه، ويجنّ جنونه لرؤية الضّابط الذي سرق منه حبيبته وحرمه منها فيقتله، لأنّه في نظره لا يستحقّ أن يعيش بعد أن تعدّى عليه وأخذ منه أعزّ ما كان يملكه.

ثمّ يلتفت باحثا عن أبيه، وعندما يجده يتتبّعه ويُرديه قتيلا هو الآخر، لأنّه تعدّى على شرفه "قتلت والدي الذي خانني عندما اعتدى على شرفي. صعدت السّطح وهشمت رأسه على نصفين"[2]. فهو لا يرتكب جرائمه إلاّ وفق مبرّرات، فهو لم يقتل الضّابط إلاّ

---

[1] الرواية، ص.22.

[2] الرواية، ص.26 و39.

لأنّه استولى على ما كان في يده، وهو أيضا لا يقتل أباه إلاّ لأنّه غصبه حقّه وجاوز فيه الحدّ. فأبوه قد غدره في شرفه، ولكنّه لم يُفصح عن ماهية هذه الخيانة، ولا كيف حدثت. هل تعدّى أبوه على حبيبته عندما جاءت تقوم بواجب العزاء فيه أم أنّ الخيانة تعود إلى زمن بعيد؟، تعود إلى يوم ميلاده عندما عزم الأب على قتله وتحيّن جميع الظّروف لذلك، ولكن لم يوائمه أيّ ظرف منها!. فظلّ يحفظ له ذاك الإحساس، وما أن تيسّر له عامل ردّه حتى سارع إلى قتله به، غير مدّخر ولا مضيّع لأجل ذلك وقتا ولا جهدا.

يجشّ رأسه قسمين، ويُنهي بهذا علاقته به، الصّلة التي لم تكن تتحرّك إلاّ في مجال الخوف والتوجّس والاحتمالات التي قد تصدق وقد تكذب.

ويطمئن بعد هذا، فقد تخلّص من المعاناة التي وُلدت معه وعاش بها، متوعّدا ومهدّدا، وإن لم يغتنم الحال الذي واتته لَما ارتاح من ذاك العناء.

وينجح فكره الرّغبي الذي خطّط له ونفّذ في أن يضع عنه كلّ أوزار وأثقال السّنوات التي عاشها.

المبحث الثاني
الشخصية الأودبية، الاستكانية وصورها في

الوقع الأحذية الخشنة:

وتبرز في رواية وقع الأحذية الخشنة صورة أوديبية أخرى، وهي شخصية مريم وهي تتذكّر أباها في رسائل تكتبها إلى حبيبها لتبوح له بكتماناتها الحميمية الدّفينة، "كان أبي بطريركا متخلّفا، سلطانه المفقود في الخارج لا يجده إلاّ في البيت المستسلم لنزواته، الأمّ والبنات تحت قدميه" [1]. فتذكره وهو يدأب في البيت على تعويض ما كان يُضيّعه خارجه من قوّة وسطوة، بل وحتى من رجولة، فيتحوّل سلطويا مُضْطَهِدًا، ينتقم لنفسه المفقودة، فيُملي أوامره على الجميع. هذا الجميع، المطلوب منه الانصياع وعدم مناقشة رغباته، مهما كانت، والتي يُمارسها كيفما شاء. فأُرغمت الأمّ بهذا على الاستسلام والاستكانة له، وبالتّالي مجاراته في كلّ أحواله، وتبعتها بناته اللّواتي احترفن تطبيق الامتثال الذي كان يسلبهن، بامتداد الوقت، الحقّ في أن يتمتّعن بوجودهنّ الطبيعي، خارج ملابسات القسوة النّازعة نحو الخوف والكره، "كان أبي على خلاف دائم مع أمّي، ظلّ طوال عمره يُقسم ويُعظّم بقتلها"[2].

فالخلاف والصّدام والتّصارع الذي يتسبّب فيه الأب دائما، والذي يُريده أن لا ينته، ونيّته التي لم يكن يُحجم على الإعلان عنها في كلّ وقت، وهي رغبته في التخلّص من الأمّ بقتلها، وليس بهجرها أو تطليقها. نيّة القتل هاته التي تنمّ عن مدى تبرّمه ومقته لهذه

---

[1] واسيني الأعرج، رواية وقع الأحذية الخشنة، منشورات الفضاء الحر 2002، بيروت، ط1، 1981، ص.48.
[2] الرواية، ص.48 و85.

الزّوجة التي لم يعد قادرا على أن يستمرّ برفقتها، وأنّ المسألة لا تَعْدُ إلاّ مسألة وقت لا غير. فمتى سنح الظّرف فإنّه سيتولّى إنهاءها بالطّريقة التي تضمن عدم رجوعها ثانية، فيستريح من ذاك الكمد الذي كان يقضّ مضجعه، فقتلها هو الجزاء الوحيد الذي يراها تستحقّه بعدما لم تستطع في ذهنيّته أن تُنجب له الولد، في حين حوّطته بسبع بنات، فقضت عليه بالموت لأنّها لم تسمح له بأن تمتدّ حياته في الولد، وعليه فهو لن يُعاملها إلاّ بالمثل. فمثلما قتلته سيقتلها، "سبع بنات، سبع فضائح. عليّ أن أحرسها كالمعتوه كلّ ثانية وكلّ دقيقة"[1].

فإذا كان الولد في عرف الأب هو المؤهّل لحمل اسمه، به يستمرّ عيشه ويطول ذكره، فإنّ البنت لا يُمكنها منحه كلّ هذه الامتيازات. فهي سوء وجبت مراقبته حتى لا يُلحق به العار، فيُشنع ويُشهر به، فتنقضي حياته ويخمد ذكره.

وهو في تتبّعه المستديم لتحرّكات هذه الفضيحة، كما يُسمّيها، يصير مثل الأبله المحكوم عليه بالجري خلفها كلّ لحظة، وفي جميع الاتّجاهات، حتى يُبطل مفعولها ويوقف انفجارها. وفي هذا الخضم من المدّ والحَسْرِ، يلحقه الجنون الذي يُعجّل إبادته اللاّمنتظرة.

ويتعاظم إحساس النقص عند هذا الأب من لا قدرته على أن يكون أبا لولد، فتكوّنت لديه عقدة مركّبة أزلية جعلته "عندما يمشي في الشّارع لا يرفع رأسه. يشتم ويلعن الزّمن، وأحيانا الرّب الذي لم يكن عادلا معه" [2]. فهو يشعر وقد استحكمت عليه عقدته، وكأنّه اقترف خطيئة لا يُسامح نفسه عليها، فيدخل في حداد لأجلها، فيُنكّس رأسه إذا ما صادف الآخرين. وتكون هذه الحركة ردّة فعل لِما يشعر به من عجز استحال إلى خوف من أن يلومه الناس أو يستخفّون به أو يشعروه بالشّفقة التي تُذلّه.

وقد تجمح رغبته في هذا الولد الذي لم يأت، فيتذرّع بعدوانية شرسة يُغطّي بها لا طاقته على إتيان البديل، فيُسقط جامّ غضبه وحنقه على الزّمن، محمّلا إيّاه مسؤولية حرمانه من هذا الولد، وأنّه برغم مدّة انتظاره، لم يُمكّنه هذا الزّمن من الظّفر بهذا الولد المأمول.

---

[1] الرواية، ص.48–49.

[2] الرواية، ص.50.

وقد يتفاقم يأسه ويسود ويستنفذه الإحباط فينحى باللاّئمة على الله سبحانه، يتّهمه بأنّه ظلمه عندما لم يُعطه ما كان يطلبه ويتمنّاه.

وتبقى فكرة امتلاك الولد الممنوع عنه تجلده وتُسيطر عليه، فتُشيّد حياته خواء. فهو لا يُريد سواه بديلا، وكلّ ما عداه لا يُساوي عنده شيئا. ولم يكن ليتورّع عن إخفاء هذا الإحساس عن بناته السبع، فأكّد بمعاملاته لهنّ أنهنّ لسن مرغوبا فيهنّ، بل ومتخلّى عنهنّ، ولا يرتقين إلى مكان الولد الغائب الذي منحه كلّ أبوّته وهو في العدم، وجرّد منها البنات وهنّ في الوجود.

في هذا الوضع اللاّمنطقي، تُقدِم إحدى بناته على الانتحار، فلا يملك عندما يصله الخبر إلاّ أن يقول "الله لا يردّها، زايد ناقص"[1].

فالبنت انتحرت، وقد تُشير الأسباب إلى أنّه هو السّبب، وبرغم هذا فهو يتنفّس الصّعداء، وقد أزيح من على كاهله حمل ثقيل عاش يتمنّى التّخلّص منه. فأمرُ موت البنت أو عيشها لا يعني بالنّسبة إليه شيئا، بل عدمها أحسن بكثير من وجودها، فهذه الأبوّة المقتولة التي تفانى الأب في إعدامها وأتقن التّنكيل بجزئيّاتها، فكانت أن جعلته يدعو على البنت بعدم الرّجوع ثانية، حتى بعد وفاتها، وكأنّه يخشى عودتها إلى الحياة مرّة أخرى فتُنغّص عيشه ويتكدّر من جديد.

إنّ الأبوّة المشوّهة هي التي تحكّمت في بناء وتلوين حياة البنات، فتقطّع الخيط الذي كان يُحتمل أن يربط البنوّة بالأبوّة.

إنّ مريم وهي تذكر أباه، تذكره مرتبطا أيضا بالدّخول المدرسي الذي شكّل لها ولسنوات أسى وألما عميقين، بل وتحوّل عقدة في ذاتها، لا تحمل خيوطها. ففي موعد كلّ دخول يُعيد على سمع بناته نفس التّهديد والوعيد ونفس عبارات التثبيط والانهزام، "يكفي البنت القراءة والكتابة، لن ألتزم بأيّة نفقات. عوموا بحركم، لقد تعبت من الخدمة في الفراغ. بنات مآلهنّ بيت ورجل يُعلّمهنّ الدّروس اللّواتي نسينها"[2].

فهو حتى يتنصّل من مصاريف التّعليم، يجهر بأنّه لم يعد باستطاعته التكفّل بنفقات دراستهنّ، متذرّعا بفكرة أنّ البنت يكفيها من التعلّم القراءة والكتابة، وتبرّأ بذلك من كلّ

---

[1] الرواية، ص.51.

[2] الرواية، ص.49.

التّبعات التي يرى نفسه غير مجبر عليها. فهو قد قرّر منع مساعدته لهنّ، وعلى من تُريد التعلّم أن تعتمد على نفسها وتتصرّف، فهو غير معنيّ بهذه القضية.

ثمّ بعد كلّ هذه الضّوضاء التي يصطنعها يخلص إلى النّتيجة الجاهزة عنده، وهو أنّه ظلّ ومازال يكدّ ويتعب لأجل لا شيء، فالبنت مصيرها بيت آخر وأسرة أخرى، وزوج يتكفّل بها وبتأديبها بحدّ العصا إن اقتضى الأمر ذلك.

ويُشير الأب، ولو في أعماقه، إلى الولد مرّة أخرى، فكأنّه يقول أمّا لو كان الأمر خاصّا بولد فإنّ الشأن يختلف، فالولد سيبقى في بيت العائلة ويتزوّج فيه فلا يُغادره، وسيقوم بالتكفّل به في شيخوخته، فإن علّمه وأضطلع بمصاريفه جميعها، فلن يكون الأمر هباء.

وفي هذه الأثناء الحالكة التي يتهرّب فيها الأب من إجباريّاته ويضرب بها عرض الحائط، تتدخّل الأمّ لتُغطّي جبنه ولارجولته وانهزاميته، فتُجرّد نفسها من حليّها وتبيعها بأقلّ من ثمنها المتواتر، لتضمن فقط وبأيّ السّبل تعليم بناتها. وتذكرها مريم في أمومتها هاته فتقول: "يرحمك الله يا أمّي. تنزع قطعة من حليّها"[1].

فالأمّ لم تكن تُشبه الأب في أنانيته، ولم تكن تُفكّر مثله، فبناتها يستحقن أن تُضحّي من أجلهنّ، وأنّها حينما تبيع قطعة من حليّها فلأنّ واجبها يدعوها إلى ذلك، وهي مستعدّة لأن تبيع كلّ حليّها، ولا ترى في هذا الصّنع مضيعة في الفراغ، فهي لا تشعر برضاها عن أمومتها إلاّ وهي تتصرّف لإسعاد بناتها. ثم هي لا يرِد في ذهنها ما يرِد في ذهن الأب من أنّ البنت، حتمية وجودها مرتبطة، إن عاجلا أو آجلا، ببيت آخر وبأسرة يُشرف عليها زوج يتولّى كلّ أمورها، مهما ضؤلت أو عظمت، لأنّها لا تُريد أن تنخلع عن مهمّتها، وعوّضت في حالات كثيرة لامبالاة الأب ونابت عنه، تتصدّى وتُجابه المتاعب والصّعاب التي تلحق بأفراد أسرتها. وهكذا تأبّطت مريم "ذاكرة مثقلة بالهموم والمشاهدات التي لا تُمحى"[2].

---

[1] الرواية، ص.49.

[2] واسيني الأعرج، النزوع الواقعي الانتقادي في الرواية الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1985، ص.122.

فقد ظلّ الأب يُذلّ ويمتهن كلّ من في البيت ويتلذّذ في إتعاسهنّ، فيُحوّل البيت إلى محتشد، من فيه غريبات، فقدن صلتهنّ ببعضهنّ وبالعالم، وأصبح همّهن الأوحد هو كيف يتفادين هذا الأب لينجين من مضايقاته وحقده المريض الذي لا شفاء له.

هذا الأب الذي صار الكلّ يُكنّ له العداء ويدعو عليه في سرّه حتى يتخلّص منه، وخصوصا بعد مرض الأمّ وألمها الذي كان يشتدّ ويزيد بفعل داء السرطان الذي ينخر جسدها. هذه الأمّ التي كانت ملاذ جميع من في البيت وطوق نجاتهنّ الذي يتعلّقن به كلّما تعاظمت غطرسة الأب واتّسعت الهوّة بينهنّ وبينه، وأضحى التّقارب من المستحيلات التي لا يُبثّ فيها.

مرض الأمّ الذي لم يكن يعني للأب أيّ شيء على الإطلاق، ولم يكن ليهتمّ به، فهو كان دائما في نيّته قتلها، أما وقد ظهر الدّاء الذي سيُعوّضه ويتحمّل عنه هذه المهمّة، فهو لا يُخفي سعادته لهذا الأمر لأنّه سيمنحه طاقة حياتية جديدة.

ولاحظ جميع من في البيت إحساس الأب بالرّاحة والرّضا وهو ينظر إلى الأمّ وهي طريحة الفراش، ويُمنّي نفسه بنهايتها العاجلة. فهو يتوق للزّواج ثانية ولا يتحمّل الصبر والانتظار أكثر.

موقف الأب هذا، وعدم احترامه لمرض الأم وهي تُعاني اليأس من الحياة وهي تحتضر، جعل مريم تُعلن أنّها تكره هذا الأب، "بدأ يبحث عن كلّ السّبل التي تُبرّر زواجه من امرأة أخرى. يَمَّا كانت مازالت حيّة. يومها كرهته وأعتقد بشكل نهائي"[1].

فهي تُفصح عن هذا الكره الذي صار أمرا مقضيا، إحساس سيظلّ معها ما بقيت تحيا، تحمله معها، يتبعها في مُقامها وترحالها، فهي لا تملك بعده إحساسا آخر، ولا تقوى على أن تُغيّره. فذكر الأب لن يحضر مرّة أخرى إلاّ ومعه كراهيته، ولن يُذكر إلاّ مقرونا بها.

فلحظات التّخلّي التي كبرت بها وعليها، والاضطهادية التي لم تبرأ منها، جعلت نبض مقتها له لا يتوقّف عن الخفقان، حتى بعد موته، "يوم مات والدي لم أبك. بعدها نسيته تماما وانطفأت نهائيا ملامحه من ذاكرتي. اليوم كلّما حاولتُ أن أتذكّره أخفق"[2].

---

[1] الرواية، ص.54.

[2] الرواية، ص.88.

فيوم موته لم تبكه لأنّ موته بالنّسبة إليها كان قبل ذلك بزمن طويل، فهي لم تشعر بفقد أبوّته لأنّها لم تُحسّها أبدا، فالبكاء يكون الفعل الطّبيعي والتّلقائي عندما يُفقد الأحبّة ويتركون فراغا في حياتنا، وخلاء في ذواتنا، فتقحل نفسيّاتنا، فيكون البكاء لأجلنا.

أمّا هي فحياتها كانت بورا من الرّعاية والحنوّ، ولم تكن علاقاتها به إلاّ علاقة مضطهَد بمضطهِد.

وهي بعد ذلك تنساه وتفقد الذاكرة التي يُفترض أن تختزن وجوده، فلا تذكر حتى ملامحه لأنّها في الأصل لم تعرفها، لم تتعوّد على التّحديق والتّدقيق فيها، لأنّ المسافة التي فصلتها عنه كانت شاسعة، لم يسمح الكره فيها بأن تُحفر هذه الملامح. فيكون الأب كأيّ شخص عابر غريب تلتقيه مرّة وهي تمرّ بأحد الشّوارع، فما أن تعبر الشّارع حتى تُطمس ملامحه، فلا تعود تتبيّنها. ولأنّ أباها كان غريبا عنها فهي لم تعرفه يوما.

وبعد مرور كثير من الوقت، تُحاول تذكّره فلا تُفلح، فعقلها الباطن لا يُطاوعها فيما تطلبه لأنّه لا يُريد أن يعيش معها لحظات الألم التي أغلق عليها بإحكام واطمأنّ وفرح بذلك، وجعلها ترتاح لفكرة أنّ أباها ما كان أبا يوما، وأنّ موته كان تحصيل حاصل، لا يستدع التأسّف عليه، ولا الاكتراث لاسم الأبوّة الفاشلة التي لم ترق أبدا إلى عملاقية الأمومة التي استحوذت على كلّ مشاعرها، فكانت كلّ ذرّة فيها تغمر ينابيع من الحدب والاهتمام والمحبّة، التي لم تجفّ حتى في أعصب الأوقات، فكان قربها منّا قربا لا سبيل إلى فصمه، فأضحى تعلّقها بها يُفيد حبّين، حبّ الأبوّة المضيّعة وحبّ الأمومة الحاضر دائما بكلّ طاقته وعنفوانه على البذل المتكرّر والمستمر، بمجّانية لا تطلب السّكون ولا تعرفه.

كم تمنّت مريم لو أنّها ابنة هذه الأمومة وحدها، فيُختصر النّاس كلّهم فيها، فهي ليست بحاجة لأحد، هي بحاجة إليها وكفى، وهي مستعدّة أن تُقاطع العالم وتستغني عنه لأجل البقاء إلى جوارها. تعب ما أمكنها من سخاء تلك الأحاسيس التي ترغب الاستئثار بها بأنانية مفرطة، فأمّها لا صنو لها، هي من حقّها دون الآخرين، ترفض أن تتقاسمها مع آخر، فقد كانت ونيسها في وحدتها وغربتها، فاستحضرتها وهي في غرفتها بالحي الجامعي لتبثّها شكواها وتستشيرها فيما أرّقها.

"كلّما انغلقت عليّ السّبل ناديتها في اللّيل. تأتيني، تسألني عن حالي، فأخبرها عن كلّ شيء. كلّ ليلي أقضيه في الكلام معها"[1].

فهي عندما تفلت منها قراراتها، ويكتنف طريقها السّراب، وتتلبّس عليها خطواتها، تستغيث مستنجدة بتلك التي لا يُشبهها آخر لتسألها العون، وتستجدي منها العطف والنّصيحة، هي التي رفضت أن يُقطع حبلها السرّي، فظلّت لصيقة موصولة بها، فهي الصّديقة التي لا تُذيع لها سرّا، والمخلصة التي لا تُخيّب لها رجاء، تحضر إليها متى طلبتها، لا تتحجّج ولا تتهرّب، تأتيها فتغسل بين راحتيها أدرانها وأشجانها، وتدفن على صدرها قلقها وإعياءها، فتنتهي بذلك أوجاعها ويُضاء ما عتم من أحوالها.

فهي لم تُحسن يوما الخروج من سياج هذه الأمومة، فبقيت ملجومة التّفكير في صنع عالمها الخاص، حيث تركض حرّيتها دون استئذان.

هذه الأمومة التي ملأتها وأعجزتها على إبدالها بكائن آخر غيرها، فهي تتلبّسها في كلّ أحوالها، فترى بعينها وتتألّم وتفرح بقلبها، فلم تكن تكبر، ولكن حاجتها إلى هذه الأمومة التي لم تتقبّل يوما سواها، كانت تكبر وتعظم، وتتعمّق معها فكرة استحالة فراقها عنها، فالأمر بعيد ولا مجال، بل ولا داعي لطرحه. ولكن ما أسقطته من حسبانها حدث وماتت الأمومة، وانهار سكنها، ففقدت المأوى، وفقدت معه سحرية ذاك الآمان، وعجائبية تلك التّميمة التي حرستها زمنا. وبعد أن أُبطل مفعول كلّ هذا، انفجر الوجع وأُحرق الوجدان، وظلّ يُعاودها كلّما طفت الذكرى، "أمّي. بكيتها بحرقة يوم ماتت. بكيت كطفل سُرق منه ثدي أمّه، وهو في حالة جوع"[2].

بكت بيتها وهي تُجبر على هجره، بكته باضطرام لا يخمد. كانت ما تزال تحتاج إلى هذه الأمومة عندما اختطفها الجارح منها بغتة، فظلّت لم تشبع من دفئها، مهيافة لحنانها.

يومها تأكّدت أنّ زمن وحدتها قد بدأ وحان لها أن تعيشه بضبابيته التي لا تُكسر، وبدكانة ألوانه التي لا تُستوضح ولا تُفصل. زمن تعيشه ملسوعة ببرده، تبحث فيه عن

---

[1] الرواية، ص.52.

[2] الرواية، ص.88 و229.

مسكّن علّه يُريحها، ولو لبعض من ذاك الزّمن، فلا تجد لأنّ قيدها كان قد أحكم وألزمها حدود منفاه اللاّمنتهي.

وهكذا ينهار الجدار الذي كان دائما يحول بينها وبين السّقوط[1].

[1] غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص.162.

فوضى الأشياء:

أوديبية أخرى تُطالعنا في فوضى الأشياء وهي تُحرّك الطّبيب الجرّاح (الراوي)، الذي وقف شاهدا على كلّ أفعال أبيه مشدوها أمام حادثة اتّهامه لأمّه بالزّنا، وشاهدا يؤكّد في الآن ذاتها براءتها من هذه الجريمة.

يسرد أنه قد رافق أمّه ذات يوم، وهي تقصد أحد الدّجّالين، ليُعيد لها زوجها الهارب منها إلى أحضان عشيقاته، وحدث وهما عائدان أن التقيا بالأب الذي ما أن رآهما حتى صفع الأم بهذه التّهمة، الذي يظهر أنه قد نسج خيوط قصّتها بينه وبين نفسه منذ مدّة، ليُلصقها بالزّوجة متى واءم الوقت، ولأنّه لم يكن يُبادلها إخلاصها، كان صنعه لهذه التّهمة حجّة تُسوّغ له التّمادي في هجرها، وتُعطيه الحقّ في أن يُضاعف عدد عشيقاته، "فتركها مهملا إيّاها، متناسيا حتى وجودها"[1].

فاستمرّ في هروبه، تاركا إيّاها كمّا منسيا، غير عابئ لوجودها، ولا مهتم بحالتها، أو بما ستؤول إليه وهو يُفارقها ويقطع كلّ علاقة له بها، وكأنّها لم تمرّ ولم تستقرّ يوما في حياته، معرّضا بأخلاقها، طاعنا في طهارتها، مشكّكا في إخلاصها، متماديا في عندية مريضة، ركبت وشيّدت الفكرة، وهي تعرف أساسها الواهي، وبرغم هذا صدّقتها، محاولة إقناع الآخرين بها.

ويرتاح الأب وهو يتنصّل من كلّ مسؤولياته، ويخلع عنه كلّ التّكاليف التي كان قد التزم بها حيال المحيطين به، ويذهب كلّ مذهب في ممارسة غيّه واحتراف اضطهاده لزوجته التي لم تكن تملك حقّ الاستفسار أو المعارضة، فقد كان هذا الأب قد ضيّق عليها نطاق تحرّكها، وكانت هي قد استسلمت وأقرّت بذلك الخنوع الذي أصله فيها.

وكانت بالمقابل حرّيته الرّعناء التي احتمى بها، تُملي عليه لحظات من الطيش وتُحيله على اقتراف أفعاله المبيّتة التي كان يأتيها وهو راضٍ، لا يُنغّصه لوم ولا تأنيب، ناشدا في كلّ ذلك معاقبة الزّوجة التي شوّهها فكره، فلم يعد يراها إلاّ خائنة.

هذه الخيانة الملفّقة التي أفقدته صلابة اتّزانه، وهو يتجاوز الأربعين من العمر، فيختار لنفسه زوجة ثانية، طفلة لم تبلغ الثالثة عشر، فأكّد بهذا الفعل كراهيته وعداءه،

---

[1] رشيد بوجدرة، فوضى الأشياء، دار بوشان للنشر، 1990، ص.71.

المضمر والمعلن، لزوجته الأولى التي صعقها هذا الفعل من زوجها، و"أهانها وأذلّها وعقّدها، وحا منها آثار الأنوثة وهي لم تبلغ الثّلاثين من عمرها"[1].

إنّ السّادية التي امتطاها الأب إنّما كان يبغي من ورائها الانتقام من الزّوجة الأولى بتقزيم مكانتها، وتحسيسها بالضآلة وعدم الحاجة إليها، فيترعها بعقد النّقص والمهانة التي يُريد بها تقويض أنوثتها، وتزهيدها في الحياة باليأس منها، حتى يُضيّع عليها شبابها ويُسرّبه منها، فلا تنتبه إليه إلاّ وقد قضي الأمر.

إنّ سادية الأب منحته زمن لذّة مبهرة، وهو يُشاهد لا قدرة الزّوجة وضعفها على القفز لتجاوز ذلك المصير الذي رسمه لها، فرصد به كلّ تحرّكاتها، وراقب جميع ردّات فعلها، فوجدها مثلما أراد، لا تنجح في الإفلات منه إلاّ بأحد احتمالين: الجنون أو الموت، وكلا الحلّين يُرضيانه لأنّهما يُمكّنانه من التّخلّص منها.

لقد استجمعت عدوانية الأب الشرسة كلّ قواها لتُسقط الزّوجية في سلبية حالكة، لم تتوان معها في الإيمان بكلّ المسبّبات التي تجرّها إلى التّسليم بقدرية لا تقبل المجادلة، أنّ سادية الأب ما كانت لتقبل المهادنة أو التوقّف، وهي تُعلن حربها ضدّ الزّوجة، وتشحذ كلّ آلاتها من أجل تحقيق الغلبة عليها، وتوقيع وثيقة الاطمئنان، وقد صار شأنها في طيّ النّسيان الذي لا يُذكر مطلقا.

إنّ السّعي المحموم خلف تحصيل اللذّة، جرّ هذا الأب إلى طرق جميع أبوابها وولوج أضيق ممرّاتها وأنهجها، فظهرت عنده جرّاء هذه الهوايات الغريبة إلى حدّ الشّذوذ، فلم يكن يردعه سنّه وهو يقتني ويقرأ "الرّوايات الخلاعية، حيث كان يُخفيها تحت أكداس الفواتير، وكتب المحاسبة، والكتب الدينية، والتفاسير القرآنية"[2].

إنّ داء المتعة الذي يُسيطر عليه، يمنعه من أن يحرم نفسه أو يُفوّت عليها اللّذة، كيفما كانت، وما دامت الكتب الخلاعية تمنحه هذا، فهو يُطالعها ويعيش معها وبها، وكأنّه مراهق كُبتت مشاعره وأُخرست رغباته.

ولأنّ فعله هذا يُشعره ببعض الحرج والاستحياء، بل وبالخوف من أن يُفتضح أمره، فإنّه يلجأ إلى تمويه دلائل الحقيقة، فيُخفي هذه الرّوايات الخلاعية ويُخلطها ضمن

---

[1] الرواية، ص.223.

[2] الرواية، ص.111.

كتب أخرى، فيظهر بريئا لا يُمكنه أن يقرأ إلاّ الكتب الدينية والتّفاسير القرآنية، شأن من هم في سنّه.

ولا يهتمّ إلاّ بتجارته التي خصّص لها العديد من كتب المحاسبة وأفرد لها الفواتير الكثيرة التي يضبط بها سرّ تجارته، ويضمن بها الرّبح المستمرّ والدّائم. هو الذي لا يبغي الكساد والخسارة.

فالابن الذي كانت تُثيره أفعال أبيه وتُقزّزه، وتُريعه من الجانب الآخر صورة أمّه المضطهدة، العاجزة عن ردّ الاعتبار لكرامتها المصابة، ما كان يستطيع أن يبقى في الهامش محايدا، فقرّر الانتقام لأمّه بضرب سلطة الأب وزلزلة قوّته المخيفة، فذهب يعيث له في أوراقه ويسرق منه تلك الكتب الخلاعية التي كان يُحقّق بها بعضا من متعه الضّالة.

ولكنّ هذا التصرّف لم يكن ليمرّ بسلام، فقد كان يُكلّفه كلّ مرّة العقاب الشديد، وهو يقع بين يدي الأب الذي كان "يتحجّج بأتفه الحجج للانتقام منّي، وينهال عليّ ضربا مبرحا، إلى حدّ أنني كثيرا ما كنت أُنقل إلى المستشفى من جرّاء ما أُصاب به من جروح بليغة"[1].

وهكذا مثلما اضطُهدت الأم، يُضطهد الابن أيضا، ويختلق له الأب مختلف الأسباب التّأديبية اللاّممنطقة، فيصير التّعذيب الجسدي المدمي والمسبّب للعاهات، الوسيلة العقابية الجديرة بأن تُريح هذا الأب وتجعله يطمئنّ، وليكون المستشفى في غالب الأحيان الحلّ المنقذ لهذا الابن، الذي رغم إدراكه وتقديره لخطورة عواقب دخوله إلى مناطق الأب المحرّمة، إلاّ أنّه لم يكن يكترث لذلك، فتعطّشه المهوس للانتقام من هذا الأب كان يدفعه إلى المغامرة بحياته، التي لم تكن تُساوي شيئا، وأمّه تُغتصب في عيشها، على مرأى منه، وتُقتل أنوثتها، وتُطعن أمومتها، في مشهد استعراضي لسطوة الأب التي لا تُردّ.

فكان عليه هو لا غيره، أن يردّها ويعدل الكفّة، ويُحقّق معادلة الأمّ التي لا تبيت مظلومة. فهو لن يتواءم مع نفسه إن لم يقف متصدّيا لحيوانية هذا الاضطهاد، ولن يهدأ حتى يؤكّد لأمّه أنّه جدير بحبّها، وقادر على حمايتها متى استنجدت به، تائقة إلى الخلاص من قيد الزّوج الملتف حول عنقها، يروم خنقها بشهيّة المنتصر دائما.

---

[1] الرواية، ص.112.

نصر عاينه الابن، وتثبّت من هيمنته، وهو يرى أمّه تحنّ لجلاّدها، وتحتفظ له بإحساس الودّ والولاء، برغم فعلته التي لا تُغتفر، فاكتظّت وتزاحمت الأسئلة في رأسه وتلاطمت تصرخ تعجّبات، "مازلت تحبّيه، ما فهمتكش ! علاش تحبّيه؟ هذا إنسان يتحبّ؟"[1].

إنّ فكر الابن لم يستسغ بعد كلّ ما حدث. أن يبقى الأب يُشاركه قلب الأمّ، بل ويُزيحه عنه، وهو الذي حسب أنه قد تخلّص منه، وبشكل نهائي، واستسلم لهذا الظنّ، واطمأن إليه، ولكن بمجرّد ما تهاوى هذا الإيمان بداخله، حتى غاب عقله وتجمّد منطقه، وانقلب صوب أمّه يرجّها مستفسرا، علّه يفهم أمازالت تُحبّه أو يظلّ الحبّ حيّا في هذا الجوّ الآسن؟، ثم لماذا تُحبّه أو لماذا أحبّته من الأصل؟، هل في هذا الرجل شيء يُحبّ؟.

وفي هذه الأسئلة المعلنة يربض تأنيب مضمر لأمّه التي تُضيّع حبّها هباء، وهي تمنحه لإنسان لا يستحقّه، إنسان ألغت عنجهيته عملة الصّدق عنده، فكان لا يُحسن إلاّ العنت، يحفر به في ذاكرتها أخاديد من الحرمان والمنّ. فكيف بعد هذا كلّه يأخذ منها ما ليس أهلا له، ليخلص إلى أنّ حبّ أمّه يجب أن يكون كلّه له وحده، فهو الوحيد الذي يحتاجه، والوحيد الذي يستحقّه. ألم يُضطهد وهو يُدافع عنه ويتحمّل لأجلها هول أبيه، فيُشارف على الموت العديد من المرّات، دون أن يكون منه التّذمّر أو التّولّي !. فهو مستعدّ لأجل أن يقتنص حبّ هذه الأم ويتمتّع به لوحده، أن يرمي بنفسه في أيّ متاهة، في أيّ نار حارقة، لأنّ حبّها ما كان يجب أن يكون يوما إلاّ له.

ويبقى الابن يرثي لواقع أمّه، مشفقا عليها وهي تتأخّى مع الحزن والبكاء منذ لبّسها زوجها تلك التّهمة الشعواء، البريئة منها، فغدا بكاؤها حيلتها الوحيدة التي لا تملك غيرها ولا تُحسن ما عداها، "تغيّر مزاجها فأصبحت كالمعتوهة، شبه غائبة ونصف ميّتة، مدعوكة الوجه، شاحبة العينين، تبكي كلّما انعزلت في غرفتها، أو في مؤخّرة البستان، فأخذت تنحل وتتجعّد وتتقلّص"[2].

كان الابن يُتابع أمّه ويرقبها، فيراها تبتعد عن الأنظار عندما ترغب في البكاء، فتقفل عليها باب غرفتها تنحب وتُوَلْوِلُ حظّها أو تختار لنفسها فسحة في آخر البستان،

---

[1] الرواية، ص.147.

[2] الرواية، ص.51، 142–143.

تبكي نفسها فيها، وهي التي لا تُريد أن يلحظ ضعفها الآخرون. فما سبّبه لها زوجها من نكبه في عرضها وعفّتها، لا يُمحى، فلم يدُر في خلدها يوما أنّ زوجها سيُقدم على ما أقدم عليه، وبقيت تحت هول الصّدمة، لا تُصدّق ما هي فيه، فتبدّلت نفسيّتها، وتحوّلت ساهمة، تغيب عن الأدراك هروبا من الواقع، ففقدت نضارة ملامحها وبريق عينيها، وهزُل جسدها، وتجعّدت أساريرها، فشاخت من الألم والنّكد الذي كانت تُكابده، فأُنهكت قواها، وماتت شهيّتها إلى الحياة، ونضبت حفاوتها بها.

وكان يزداد عسر حالها كلّما هصرها شعور الذّنب، وتملّكها هوس النّدم، فيبدأ تأنيبها لذاتها على الجرأة التي زيّنت لها ذات مرّة أنّه باستطاعتها استعادة ذلك الزّوج الضّال، المسروق منها، فكان أن خسرته وخسرت نفسها عنده، وهي تزور ذاك الدّجّال الذي لم يورّثها غير الحسرة والأسى الدّائمين.

وفي خضم هذا الرّاهن المثخن بالعراك والفشل، والانهزام المتناقض الأوجه والأشكال، الملتفّ حول نفسه، يُحاول الابن الهرب منه لأنّه لم يهتد إلى فكّ إيماءاته ورموزه، ولم يُفلح في تبديله وكسبه لصالحه، فعنت له معاقبة نفسه بحرمانها من ربقة حبّ الأم، فألقى بها بين يدي امرأة أخرى علّها تزجر ذاك الامتداد الطّاغي بشساعاته، المغرِق في عمقه. حبّ لا ترغب دخيلته الاغتسال منه، وإن تظاهر في بعض الأحايين بالبحث عن البديل المعوّض الذي يراه في كلّ أحواله تافها، لا يؤمّن له أدنى اطمئنان. فسكينته لا يمنحه إيّاها إلاّ حبّ امرأة واحدة، وهي أمّه، التي تربّعت في منطقة الرّافض لأيّ حبّ آخر على الإطلاق، فتُصبح محاولاته الخلاصية مجرّد تخبيطات مفتعلة، لا تلبث أن تهمد، ليتأجّج بعدها ومن جديد، حبّ الأمّ الرّافض للاقتسام والمشاركة مع امرأة أخرى.

فتتعادل هكذا المسألة، فمثلما لا يقبل الابن اقتسام حبّ أمّه مع شخص آخر، لا يقبل حبّ الأمّ في ذاته أيضا أن يتنحّى، تاركا مكانه لحبّ امرأة أخرى. حبّ يُربك المشاعر ويُغلّفها بطبقات من الذّنب، "قضيتُ ليلتي مع فتاة فرنسية رغم شعوري بالذّنب إزاء أمّي"[1].

---

[1] الرواية، ص.154.

وتبقى الأمّ –حبّ الأمّ– متيقّظة لا تسمح بأن تشغل مكانها أخرى، فهي تُشهر سياطها في وجه الحبيبة والعشيقة، فلا تُمكّنها من العيش بسلام، مرغمة إيّاها على إخلاء المكان، لأنه ليس لها ولن يكون.

وقد تكثر الحبيبات وتتنوّع العشيقات، وقد يكون ظهورهنّ تباعا وبسرعة، فتأخذ الواحدة مكان الأخرى، ولكن في النّهاية يكون مصيرهنّ كلّهنّ إلى عدم.

فحبّ الأمّ يرى في كلّ امرأة أخرى غريمة، وجب ليس فقط التخلّص منها، بل والتأكّد من عدم رجوعها ثانية. ويُشكّل الشّعور بالذّنب سلاح الانتصار القويّ الذي يذكر معه الارتواء العاطفي الذي عجزت كلّ النساء وكلّ العلاقات على تحقيقه، فيكون الرّجوع إلى حضن الأمّ مؤشّرا على الاعتراف بالخطأ، والاستعداد للتكفير عن الذّنب، والتعهّد بعدم معاودة ما حصل، فسلطة الأمّ لا تغفل ولا تتنازل عن صلاحياتها، مهما صعبت مهمّة المراقبة، التي تُمكّنها وحدها من الاستحواذ الاحتوائي الماسح لكلّ منافسة.

وهكذا يظلّ حبّ الأمّ بالمرصاد يستغيث بشعور الذّنب كلّما بدت له الأمور أنّها تسبقه، فلا يلحق بها. وقد يتحايل هذا الحبّ عندما يحسّ بأنّه مهدّد في ديمومته الزّمنية وامتدادها، وبأنّ مجاله أصبح يُنبئ بالاضمحلال والتّلاشي، فيُعير ملامحه وقسماته وسكناته وخلجاته للحبيبة، فيعيش فيها وبها، وهكذا تتوسّع رقعته وتتقوّى، فيتغلّب عليها ويُجرّدها من صورتها، وتبسط بهذا الأمّ من جديد سيطرتها على ذلك الملك الذي فقدته لبعض الوقت، "فأتأمّل في هذا الوجه الصّبياني الذي يُشبه وجه أمّي عند النّوم، فتجمّل في عيني"[1]، هذه الحبيبة التي ربّما لم تكن تُشبه الأمّ حقيقة، ولكنّ حبّ الأمّ المنحوت بداخله، والمحفور في ذاكرته، أوهمه بذاك الشّبه لأنّه لا يُمكنه أن يُحبّ إلاّ شبَه أمّه.

فيروح يتأمّل وجه الحبيبة وهو لا يبغي من هذه التأمّلية إلاّ استحضار ملامح الأمّ ببراءتها وسذاجتها الطّفولية، وفي لحظة التأمّل الكاشف هاته، تتحوّل فيها المنحوتة التي تشغل كلّ ذاكرته، إلى مقياس يُشوّه ويمحي كلّ المقاييس الأخرى، فتُصبح الحبيبة بعد هذا جميلة وجذّابة ومرغوبة، لأنّ حبّ الأمّ أراد لها ذلك، وصوّرها بحيث تبدو كذلك. ومن هنا ينتصر الأصل مرّة أخرى ويُبيد كلّ الصّور والملامح المقحمة عليه.

---

[1] الرواية، ص.175.

وبعد أن تعوّد الابن على حضور أمّه بحبّها الدّائم والمستمرّ الذي لا يرضى الزّوال، يُفاجأ ذات صباح بأنّها تُغادره إلى حيث لا رجعة، فقد دخل غرفتها، شأنه كلّ صبيحة يوم، ليطمئنّ عليها، فيصدمه مشهدها بعد أن تحوّلت إلى جثّة هامدة باردة، وقد فارقت الحياة في أثناء نومها، وفي عمق اللّيل، فبقي يأبى تصديق حقيقة موتها، ويرفض واقع غيابها عنه، ربّما لأنّها رحلت ولم يكن بقربها، ليودّعها وهي تلفظ نفسها الأخير، فظلّ عقله الباطن، نتيجة هذا، يرفض فراقها، بل وينتظر عودتها بين فينة وأخرى، "رفضت حضور الجنازة وزيارة الضّريح، فلا لشيء، بل لشدّة محبّتي لها، فأبيت قبول وفاتها، وأبيت فكرة وفاتها، فلا أقوى على رؤية قبرها، حيث أتصوّرها ممدودة في الضريح، ذاك الصقيعي الرطب"().

فتصوّره كان عاجزا دائما على أن يُريه أمّه بعيدة عنه، فلم يحضر جنازتها لأنّ الجنازة للموتى، وأمّه لم تمت، فلاشعوره مازال يحفظها له حيّة، حاضرة بحبّها، مازال يُمكّنه من طرق باب غرفتها في كلّ لحظة، ليراها وينعم بوجودها ويرتاح بقربها، فهو يرفض أن تبيت أمّه خارج البيت، وأن تتمدّد في غير سريرها الدّافئ، حيث تعوّد أن يجدها ويراها، فكأنه يرفض أن تموت أمّه مرّة ثانية، وقد قتلها أبوه قبل ذلك بسنين، عندما ظلمها واتّهمها كذبا بالخيانة. ولمّا كان هو الشّاهد الوحيد على براءتها التي لم تظهر أبدا، فتحوّلت الأحاسيس بداخله إلى دفق من الشّفقة حيال هذه الأمّ المنكسرة، التي كان يُشعره حالها بذنب كبير، وقد عجز على أن يُعيد إليها اعتبارها، ويخذل من عيّشها في حزن دائم، فكانت حقيقة وفاتها ترجّ ضميره كلّما تذكّر أنّه كان بوسعه أن يُسعفها ولم يفعل، تاركا إيّاها لعبودية الألم الكئيب، وهي تتوقّع مصيرها وحيدة.

ذاكرة الجسد:

أمّا في ذاكرة الجسد فتتكشّف أودبية خالد المناضل الذي يختار لنفسه فرنسا منفى إراديا له، خوفا من أن يفقد مبادئه التي حارب من أجلها، ولكنّه في إحدى السّنوات يقطع منفاه ويعود إلى بلدته، ليُعيد مودّته بها من جديد، فمشى في دروبها ومسح شوارعها وأنهجها، إلى أن توقّف به المسير أمام أحد المواخير، فتذكّر أباه، "هنا أنفق أبي ثروته

ورجولته. أُحاول أن لا أتوقّف عند ذلك البيت الاستثنائي، الذي كان لعدّة سنوات سبب حزن أمّي السّرّي، وربّما موتها قهرا"[1].

فالابن لا يُمكنه أن يذكر أباه إلاّ وهو يمرّ بماخور البلدة الذي شكّل له وما يزال، عقدة مستعظمة، يُحاول نسيانها، ولكن دونما جدوى. فقد كان لا يرى أباه إلاّ وسط كومة من الدّنايا والرّذائل، أبعدت عنه مثالية الأب وجرّدته من عفّة الزّوج، فقد كان حلس ماخور، بدّد ولسنوات أمواله فيه، وقضى على سمعته، ولطّخها في أحضان غانياته، فلم يُعر كبير اهتمام لتلك الزّوجة، التي كان ألمها يزداد باستمرار، وهي تعيش الإهمال، فتشعر بأنّه لم يعد مرغوبا فيها، فقد ظلّت ولسنين تتكتّم على حزنها، وتعدّه سرّها وحدها.

ولكنّ الابن وعى هذا السّرّ وأدرك حقيقته، وهو يرى أمّه ذليلة، يُقعدها فشلها عن استرداد زوجها، الذي لم يُقلع أبدا عن إتيان فعله المشين، فكان أن نما بداخله مقت شديد لأبيه الذي لم يألفه إلاّ ظالما ومضطهِدا، غير مكترث بضحاياه الذين يُخلّفهم وراءه. وأضمر بالمقابل رثاء لا يُحدّ لأمّه الضّحيّة التي قهرتها أفعال أبيه، فعاش معها وشاركها نقمتها على ذلك الأب لسنوات متعاقبة طويلة، ولكنّه لم يقدر على تغيير ذلك الوضع الذي أوجده الأب، وأرغم من حوله على عيشه عنوة، ساحبا منهم قوّة التذمّر والتّمرّد، حاكما عليهم بالصّمت والانصياع. فعجّل هذا الوضع بقتل الأمّ كمدا، بعد أن كانت حياتها كلّها هزيمة كبرى، لم تصل فيها إلى لحظة انتصار واحدة.

ويكون موت الأمّ مفجعا للابن الذي كان يعرف سبب موتها، أو بالأحرى كان يعرف قاتلها الذي ارتكب جرمه على مرأى منه، ليتحقّق يتمه مرّة ثانية، بعد أن كان ولسنوات يتيم الأب الحيّ، وهكذا يحسّ معنى اليتم الكلّي، إحساس لازمه، وبشراسة كان صدامه معه، "كنتُ يتيما وكنت أعي ذلك بعمق في كلّ لحظة، فالجوع إلى الحنان شعور مخيف وموجع، يظلّ ينخر فيك من الدّاخل ويُلازمك حتى يأتي عليك بطريقة أو بأخرى"[2].

فالإحساس الواعي باليتم يقول له أنّك مختلف، وكلّما ترسّخ هذا الوعي، تعمّق الاختلاف وظهر، ففي كلّ لحظة تستوقفه الظّروف بمشاهدها ومواقفها المحسوبة وغير

---

[1] أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، موفم للنسر، الجزائر، 1993، ص.370.
[2] الرواية، ص.32.

المحسوبة، يجري بفكره وخلجاته نحو أمّه الغائبة، المتسلّطة على كيانه، التي جاء رحيلها مبكّرا فكان افتقاده لها مرّا، فظلّ وجودها يُلحّ عليه، واستمرّ غيابها يُنمّي بداخله خوفا يكبر، وكلّما كبر كانت تنفتح في ذاته بؤر من الوجع، وفراغات من الوحدة والنّقص، التي لا تَلأَمُهَا إلاّ الأمومة التي بقي يطلب حنانها، ويُطالب بتواجدها إلى جنبه، حتى تُرافقه زمن سكينته وثورته، وتملؤه قوّة يُجابه بها ذاك الذّعر الذي يتربّص به، ليُقوّض كيانه، فهو يُجهز عليه ألما ثقيلا، يُدخله كلّ حين حدادا يشرخه، فيتآكل في صمت، قربانا لحنينه العصيّ الرابض فيه، يرتجي نفحة تقدحه فتومَض الأشياء من حوله وتُضاء، فيتخلّص من علّة الموت وسياط صرخاته.

داء اليتم الذي اختزنه وعيه الشّاخص إلى تصرّفات أبيه النّاضحة، شططا متناقضا، وهو مأخوذ بتجهيز مطالب زواجه الثّاني الذي "كان جاهزا للاستهلاك، ومعدّا في ذهنه منذ مدّة"[1]، أي حتى قبل وفاة زوجته الأولى، التي حسم مرضها لديه هذه القضية، فراح يُروّض ذهنه على الإعداد له، ومن ثمّة تأكيده واقعا نافذا لا يطرح بإزائه فكرة العدول أو التراجع.

موقف الأب هذا ترك أثره على الابن الذي رأى نفسه تضيع، وشأنه يتشتّت بإهمال الأب له بعد موت الأمّ، وتوجيه كلّ اهتماماته لعروسه الصغيرة التي استأثرت به، فتعمّق بهذا شعوره بالوحدة ونما، وهو يحسّ بأنّ أباه قطع عنه أبوّته وتبرّأ منه تبرّؤا غير معلن، فأيقن بأن لا أحد بإمكانه أن يملأ أو يُعوّض ما تركه فيه غياب الأمّ من عوز روحي، تراكم وأحاله إلى مشلول، يُعيقه الاهتداء ويخذله الوصول إلى غاياته، مهما صغرت، الحال الذي ما كان ليُرضيه، فحمّل نفسه السّعي نحو التّعويضية، علّها تُحقّق له بعض الاتّزان الذاتي، فراح يعب من ينابيع شتّى، ما حرمه منه غياب الأمّ الذي لا رجعة تُرجى بعده. لحظة التّعويضية التي كانت تلفّه بغطاء الأمومة، فيعيش في حرارة دفئها، وهو يعلم كذبها وبهتانها، "أمّا عوّضتها بألف امرأة أخرى ولم أكبر. عوّضت صدرها بألف صدر جميل ولو أرتو. عوّضت حبّها بأكثر من قصّة حبّ ولم أُشف"[2].

---

[1] الرواية، ص.341.

[2] الرواية، ص.391.

ولأنّ إحساساته لم تكن قد نضجت بعد توهّم أنّ أيّة امرأة بإمكانها أن تحلّ محلّ أمّه الذّاهبة، وبإمكانها أن تُزيح عنه غلالة اليتم التي لم يتقبّلها مطلقا، فربط العلاقات العديدة، فكثرت نساؤه وتعدّدن، ليكتشف بعدها أنّه ولا واحدة منهنّ استطاعت أن تجعله يكبر شعوريا، فبقي حنينه لذاك الحبّ الذي رشفه في حضن أمّه، ولم يشبع منه، ماثلا، يُعيده كلّ مرّة إلى نقطة اليتم المقيت، الذي أشقاه وحرمه القدرة على الحبّ، رغم كثرة حبيباته اللّواتي كان تعلّقه بالواحدة منهنّ بنفس سرعة التخلّص منها، فلم يكن يُلغي حبّا إلاّ ليُباشر آخر.

وبعد كلّ ما عاشه من تجارب، تبيّن له زيف شعوره، وبأنّ الحبّ الوحيد الأصيل والدّائم نبضه في خلجاته، هو حبّه لأمّه، البداية والمنتهى، الذي لم ينجح معه التّبديل، فيستمر حضور هذا الحبّ في الذكرى التي لم تُفارقه، فتشاكلت مع حاضره وأعطته من سحر زمنها، فكانت الصّور تعود جليّة تنبض بذاك الحبّ الأمومي، الذي يُلوّن بجماله كلّ ما حوله، فيعيشه بلحظاته مثل أوّل مرّة، فيسكن ألمه، ويهدأ اضطرابه، ويهمس لنفسه هذا "الفراش الأرضي يُذكّرني بطفولتي وبنومي إلى جوار أمّي لعدّة سنوات"[1].

إنّ الذكرى هنا تتقاطع مع الرّجاء المستحيل، فهو يودّ لو أنّ أمّه لم تُغادره، يودّ لو أنّه مازال طفلا ينام في حضنها، يقتسم معها ذاك الفراش الأرضي. فحنينه إلى جوارها يعود كلّ مرّة ليطرق واقعه ويوقظ بداخله تلك المشاعر التي لم تستوعب الفطام، وبقيت لصيقة به، رغم مضي السّنوات، تصنع له عالما أثيرا من الرّؤى، تظهر فيه صورة الأمّ وحدها، وهي تذهب وتجيء، حاضرة ذاك الحضور العلني الكاتم لأسرار الأمومة التي تحميه بقداستها، كلّما تضخّم خوفه، وراح يستصرخها، فتنفتح المغالق من حوله ليرتمي بين ذراعيها، يرتوي من حنانها، الذي يُريده ويراه أبديا له، كلّما رفعت يدها لتُربّت على رأسه ذاك المثقل بالهموم الصّاخبة وجعا، فيُسكت حنينها أنينه، ويُطمئن هواجسه القلقة، التي كثيرا ما كانت تُخبره بأنّ عرى الأمومة ستفنى وتُخلّفه وحيدا.

وتتحقّق هواجسه ذات يوم، وتصدق غربته وتتأكّد، وهو يُشيّع جثمان أمّه ليُوصلها إلى لحدها، يومها انحفر مشهد هذا الفراق أخدودا في ذاكرته، فلم تقدر السنوات، برغم عددها وامتدادها، أن تُواريه، فظلّ ودّه لها قائما، وتردّده على قبرها لا ينقطع، "كنت

---

[1] الرواية، ص.352.

أخاف عليها حتى بعد موتها من الألم، وأحاول كلّما زرتها أن أخفي عنها ذراعي المبتورة، هي التي كانت حياتها مواسم للفجائع لا غير"[1].

فهو يختزنها في أحاسيسه على قيد الحياة، ويتعامل مع ذكراها التي يأبي أن يدفنها، فيتمثّلها في كلّ حين تنضح حركة وصحّة، ويملأ وجودها دخيلته التي استفرغت حتى تجوّفت، فلم يكن ليجد لها الشّفاء إلاّ لحظة يقصد فيها أمّه، أين تنام نومها الأبدي، فيجلس إليها يبثّها شجونه، همومه ويسرّها، ويحتاط ما في وسعه في أن يُخفي عنها ذراعه المقطوعة، والتي فقدها بعد رحيلها، وهو يُشارك في ثورة التحرير، فهو لا يُريدها أن تتوجّع عندما ترى إعاقته بعدها، لأنّه يُشفق عليها من المعاناة التي رآها تُكابدها طوال حياتها المريرة، حيث لم تخرج مساحة عيشها من حالة النّكبات المتتالية، التي كلّما هزّتها فتحت جرحها الذي رافقها إلى قبرها، ولمّا يندمل، ولقد كان هو حاضرا في كلّ ذلك، يرصد مفجوعا وضع أمّه، فاشتدّ تعلّقه بها وازداد، بل وتضاعف حبّه لها، بعد موتها وامتدّ بعروقه في أعماقه، فتمكّنت منه، صورتها لا تبرح خياله.

وعندما حدث أن عرف امرأة وأحبّها، ألبسها أمّه، فتبدّت له وهي تتحرّك حركاتها، وتتصرّف تصرّفاتها، وتتحدّث حديثها، بل وتحسّ حتى أحاسيسها، فانقلب هو بجوارها طفلا لا يُحسن تدبير شؤونه إلاّ وهي معه. وحينما تُخبره بأنّها تعتزم السّفر ومغادرته لبعض الوقت، يعترف لها بعجزه المريع، وبحاجة الطّفل فيه إليها، "كنت على حافة البكاء كطفل أخبرته أمّه أنها ستُسافر دونه. هل أُمسك بأطراف ثوبك كطفل وأجهش بالبكاء؟!"[2].

فهو يرفض أن يُترك، فقد تركته أمّه الأصل فيما مضى، وها هي أمّه الأخرى التي صنعها لنفسه وأرادها بديلة لها، تُقرّر تركه هي أيضا، وهو الذي كان يعتقد بأنّ أمّه المصنوعة لن تُقدِم يوما على ما ارتكبته أمّه، ولن تُلقيه إلى الوحدة. وما أن يعي أنّ قرارها في تركه ماضٍ حتى يثبّ هلعا الطّفل الكامن فيه، لا يدري ما يفعل، هل يُشهر بكاءه في وجهها حتى يُثنيها عن عزمها، أم يتمسّح بذيلها متوسّلا، مستعطفا، مستدرا أمومتها؟، حتى تُشفق عليه وترثي لحاله، فتبقى إلى جانبه أو تطلب منه مرافقتها، لأنّه في

---

[1] الرواية، ص.391.

[2] الرواية، ص.192–193.

قرارته لا يُمانع إلاّ فكرة ذهابها بمفردها، فقد ظلّ طوال أعوام يختزن لحظة فراق أمّه التي ودّ لو رافقها.

وتنأى عنه أمّه المصنوعة بعد أن يبوء مبتغاه في استبقائها إلى جانبه بالفشل، فتثور مشاعره ويندم على أنّه خلع عليها رداء أمّه، وتستفيق آلامه النّائمة وتُوبّخه على أنه سمح لها بأن تستغلّ ثقته وتوهّمه بأنها أمّه التي يستحيل أن تُفارقه، لتخدعه بعد ذلك، وتُهمله لمصيره كمّا منسيا، وعندما يعجز فلا يهتدي لِما يفعله، تكبر غصّته ويتّهمها بالاحتيال، "يا امرأة متنكّرة في ثياب أمّي، في عطر أمّي، وفي خوف أمّي علي. أكذب الأمّهات أنت، وأحمق العشاق أنا"[1].

لقد حاولت الأمّ المنحوتة بكلّ قواها أن تصل إلى مكانة الأمّ الأصل، وتكوّنها، فلبست حلّتها، وتزيّنت بعطرها، ومثّلت عليه خوف الأم وقلقها، وبرغم كلّ هذا، بقيت نسخة مزيّفة لم تقدر أن تُصادق الأصل، فأيقن بعد هذا أنّها مجرّد كذبة، هو صنعها وألزم نفسه بعشقها، بعمق الحمق الذي جعله يُحوّل حبّه لأمّه نحو اتّجاه مزعوم لا تسحقّه. فحبّه لا يُمكن أن يكون إلاّ لأمّه التي تستحق وحدها ذاك العشق لأنّ كلّ امرأة خلافها ما هي إلاّ محتالة، وهو لن يسمح بأن تنطلي عليه الحيلة مرّة أخرى، لأنّ كلّ النّساء عاجزات على أن يكنّ أمّه أو يعوّضنها.

---

[1] الرواية، ص.449–450.

الفصل الثالث

الشّخصية السّيكوباثية بالتكوين

أ- مفهوم الشّخصية السّيكوباثية.

ب- الشّخصية الأمومية وتجلّياتها في:

1- خطّ الاستواء: الأزهر عطية.

2- بين فكيّ وطن: زهرة ديك.

3- البارانويا: سعيد مقدم.

ج- الشّخصية العقيمة وتجلّياتها في:

1- الزّلزال: الطاهر وطار.

2- بيت الحمراء: محمد مفلاح.

3- فوضى الحواس: أحلام مستغانمي.

الشخصية السيكوباثية بالتكوين (الأمومية):

السيكوباثية مرض يُصيب الشخصية فيهتزّ بناؤها، ويختلّ توازنها، وتضمحلّ العناصر المكوّنة لمنطفيتها، فتظهر عليها مجموعة من الأعراض الارتباكية التي تحول دون تأقلمها مع راهنها، فتقف بهذا معلنة عداءها له، متمرّدة على قوانينه ومثله، منحرفة عن أعرافه ونظمه، رافضة لقيمه وسلوكاته، حاقدة ساخطة على كلّ أفراده، إحساس يجعلها تطعنهم متى وجدت السبيل لذلك.

فالآخر في نظرها، لا يجب أن يُقابل إلاّ بالإساءة لأنه لا يستحقّ أن يكون، وهي في كلّ الأذى الذي تُلحقه به، لا تُبد بإزاء ذلك أدنى إحساس "بالندم أو اللدم أو تأنيب الضمير"[1].

فهي لا تُحاسب نفسها ولا تُوبّخها على ما ترتكبه من أخطاء، وتظنّ أنّ الردع النفسي هو ضرب من الضعف، وهي لا تستطيع أيضا أن تُقدّم الاعتذار، وتطلب السماح من ذاك الذي تكون قد تسبّبت له في خسارة ؟؟، لأنها ترى في التأسّف، وطلب العفو نوعا من الذّل والخنوع، وبهذا يظهر ضميرها معطّلا، وشعورها مجمّدا، لا ينتابه الدفء أبدا، فتظلّ علاقتها بالآخر مشوّهة، لا تُدرك مدى قبحها، لأنّ قصورها يحجب عنها حقيقة الصورة ويُريها عكسها، فلا تملك حينئذ إلاّ أن تتعامل مع الزّائف من الأشياء، وعندها تزيد حالته المرضية، ويبدأ ركضها المحموم خلف اللّذة لتفتكّ رغباتها التي تعتقد أنها مصادرة، وحاجاتها التي تؤمن أنها حُظرت عنها، لتُحقّق بذلك "الإشباع المباشر بصرف النظر عمّا يترتّب عن ذلك، الغاية تُبرّر الوسيلة"[2].

فتغدو اللّذة هي أساس كينونتها، كما تُصبح من أهمّ الدّوافع وأقواها في الحياة، ولا يهمّ ما قد يترتّب عنها من مآسي، فالمبدأ الوحيد الذي استباحته لنفسها هو أنّ كلّ الوسائل

---

[1] عبد الرحمن محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية، دار راتب الجامعية، بيروت، ج5، 2001–2002، ص.389.

[2] عبد الرحمن محمد العيسوي، سيكولوجية الانحراف والجنوح والجريمة، دار راتب الجامعية، بيروت، ط1، 2001، ص.55.

طرق تبريرية للغايات، حتى وإن كانت مجرّدة من الإغلاق، لا تدين بنظام، وقاتلة غير آبهة بالآخرين، وإن كانوا من ؟؟.

فالسّعي وراء الإشباع المباشر لنزواتها ينسف كلّ المتعارفات. فمبدأ اللّذة الذي تؤمن به يضعها أمام اختبار، تُظهر نتائجه أنّ حكمها على الأشياء ضعيف، واستفادتها من التجارب التي تمرّ بها تكاد تكون منعدمة، وفي هذه الحال يضطرب استقرارها الحياتي، ويتفكّك تماسك اتّجاهها، ليصير إلى أفق ضبابي مطموس المعالم، ممّا يزيدها رعونة ووحشية.

ويظلّ ما تُنشده من إشباع يُخضعها لتقلّبات انفعالية لا يُمكنها التحكّم في زمامها، فيتبدّل إحساسها من الضيق إلى الارتياح، ومن الوجل إلى الطمأنينة، وتختلط لديها المشاعر المتناقضة، ممّا يُضاعف عندها حالة الصّراع الداخلي الذي غالبا ما ينتهي بعدوانية لا علاج لها، ولمّا تصل إلى هذه المرحلة فإنها لا تتوانى عن خرق كلّ القوانين المتعارف عليها لتحقيق قانونها الخاص الذي لا تؤمن بغيره، وفي هذه الأثناء يبدأ تعاطيها لكلّ الممنوعات، فتُمارس هواياتها في تدليس وتزييف كلّ ما هو حقيقي، دون مراعاة للميثاق الذي تكون قد قطعته على نفسها أمام الآخر.

فيتوسّع بهذا جوّها الاحتيالي المطعم بالضغينة، فينفتح الباب على الانحراف بشتّى ألوانه، ولأنّ روادعها كلّها مغيّبة، تضطرّ للتمركز حول ذاتها وهي ترتكب أخطاءها الجسيمة التي تظهر لها بسيطة وواهية، لا تستحقّ ذاك العقاب الذي يُسلّط عليها كي تكفّ عن سلوكها المزمن الذي تبقى عوامل شفائها منه بعيدة عنها.

وتتّخذ الشخصية السيكوباثية بحكم خصائصها طابعين اثنين، الأوّل مكتسب معقّد، ناتج عن ذاك الاحتكاك التصادمي مع الرّاهن الذي لم تقبله ولم تستطع التفاعل معه إيجابيا، فولّد فيها شعورا بالنفور منه، ومن ثمّة العداء لكلّ ما يحمله أو يمتّ له بصلة، وهذا ما سيعرض له البحث في فصله الرّابع، والثاني طبيعي أو تكويني تولد به الشخصية، فيتكوّن عندها الاستعداء والقابلية لأن تصبح سيكوباثية، من ذلك مثلا

الشخصية الأمومية التي تنشأ وهي تُعاني "الحرمان الأموي خلال السنوات الأولى من العمر بابتعاد الأمّ فجأة لسبب ما"[1].

فتشبّ الشخصية وعلاقتها بالأم منفصمة بعد أن تكون قد غادرتها مبكّرا بالموت أو التخلّي الذي ليس وراءه عودة أو لقاء. فلا تتمكّن ذاكرتها من حفظ واختزان صورتها، فتنعدم لديها في هذه الظروف خاصيّة التعلّق التي لا يستحيل أن يتحقّق الإشباع الأموي بدونها، فيحدث بدخيلتها فراغ مريع يذهب بتوازنها ويُشتّت نظامها النفسي.

وقد تُحاول بديلات الأم إنقاذها بتصحيح الاختلال الحاصل ولكنها لا تُفلح في تعويض الأم المفقودة، فيزيد هذا من حرمانها، فيكبر معها، وينقلها من حالة إلى أخرى بحسب أطوار حياتها التي تمرّ بها، وكلما تعدّدت وتجدّدت صور بديلات الأم كلما ارتبك إحساس الشخصية، فراحت تُركّب صورة لأمّها خاصّة بها، قد تكون مزيجا من صور الأمّهات البديلات أو صورة مختلفة صنعتها بطريقتها.

وقد ترى في صورة كلّ أمّ أمنية أن تكون أمّها، ويستمرّ معها هذا الوضع حتى بعد أن تستقلّ بحياتها، فلا تستطيع أن ترى نفسها مثل الآخرين، لأنّ شعور النقص يبقى ملازما لها.

والشخصية العقيمة هي الأخرى سيكوباثية بالتكوين ؟؟ العقم التي لم يكن لها يد فيها تُعذّبها بشكل مستمرّ وقاس، لأنها تُظهرها لنفسها دون الآخرين الذين لا تقدر أن تكون مثلهم مهما حاولت، هؤلاء الآخرون الذين تراهم يتجدّدون فيها أنجبوا، فتتحسّر على نفسها، باكية راهنها الذي لم تُحقّق فيه ما كانت تشتهيه، فتتراءى لها الحياة عديمة المعنى، لا جدوى من عيشها طالما أنها لم تُشعرها بالأحاسيس التي كانت تتوق إليها.

ويخلق هذا العقم فيها كثيرا من ردود الأفعال كاللّجوء إلى إقامة العلاقات الآثمة أو اللّجوء إلى الزواج ثانيا وثالثا، وحتى عاشرا، لتُثبت لنفسها أنه ليست أقلّ من الآخرين، ولكن عندما تُكلّل كلّ محاولاتها بالفشل وتتيقّن من عجزها الذي كانت تخشى حقيقته، يُصيبها اليأس وتضيع منها الآمال، فتكره إلى حدّ المقت الذي يذكي روح الإجرام والانتقام من كلّ المحيطين بها والذين لم يُحرموا في اعتقادها ممّا حُرمت هي منه.

---

[1] مجدي أحمد محمد عبد الله، علم النفس المرضي: دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص.229.

أ) خط الاستواء:

وإذا عدنا للتفصيل في الشخصية الأمومية فإنّ رواية خط الاستواء تعرض علينا نموذجا مهمّا في حالة علال ولد العريان الذي قارب الأربعين ومازال حديثه عن أمّه التي فقدها صغيرا، لا يتوقّف، وتذكّره لها مستمرّا، وشحذه لذاكرته حتى لا ينساها قائما.

فقد جعلته فترة الحرمان والوحدة التي عاشها، يشكّ في أنه وُلد في يوم من الأيام لامرأة هي أمّه، وكانت هذه الفكرة كثيرا ما تستحوذ عليه، فيذهب باحثا عن سبيل لاستدراك نفسه، بوكز تلك الذاكرة التي روّضها لتقول له لقد كانت لك أمّ مثل الجميع، فيطمئنّ وهو يسمع الاعتراف، فيُردّد بعدها "كانت لي أمّ تُحبّني جدّا، وكلّ الأمهات تُحبن أولادهن، ولكن ليس كما تُحبّ علالا أمّه أبدا. كانت لي أمّ تُحبّني وتُدلّلني كثيرا، وكان اسمها يمونة"[1].

وهكذا يقتل الارتياب الذي ما انفكّ ينزغه، ليظهر نفسه ابنا لأمّ مثل الآخرين، بل وأفضل من هؤلاء الآخرين، لأنه ابن يمونة، التي هي في تصوّره أفضل الأمّهات، فقد كانت مختلفة في حبّها له لطفلها، متفرّدة في حديها عليه واهتمامها به، مدرارة في حنانها الذي كان يغتسل به في كلّ حين، والذي ظلّ يشتاق إليه وهو في عمر الأربعين، ويُذكّره بحرقة من لم يشبع منه، ومازال يتوق للارتواء من نبعه الذي كم تمنّى لو أنه لم ينضب. وإذا ما شعر ببعده السّحيق عن أمّه وطغيان حاجته لحبّها المفتقد، انشطر على ذاته فصار شخصين، ابتعد الأوّل عن الثاني مثلما ناءت الأمّ وابتعدت، فراح الأوّل يُحدّث الثاني الذي أصغى إليه باهتمام وفضول كبيرين، وهو يحكي ويسرد عليه ذكرياته عندما كان ينام بين ذراعي الأمّ "كان الصوت الجميل يُدغدغ مسامعك، والصدر الحنون يضمّك ويحتويك، واليدان الرقيقتان تُداعبان شعرك، ويجيء النوم ليُداعب جفنيك ثم يسرقك"[2].

ومن الذكرى البعيدة ينساب إليه صوت أمّه عذبا يسمع نبراته وهي تُهدهده حبّا وتحوطه آمانا. مازال يذكر ذاك النبع الذي لم يتكدّر والذي كان ينهل منه دونما ارتواء، وتلك اليدان اللّتان كانتا تعبث بخصلات شعره ملاعبة، إلى أن يلفّه النوم ويُسلّمه إلى عالم الحلم الذي كان دائما جميلا، وهي حاضرة إلى جواره.

---

[1] الأزهر عطية، ؟؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص.86.

[2] الرواية، ص.86.

كان مطمئنا وهو يجري إليها ليرتمي في أحضانها ويستقرّ بين ذراعيها المفتوحتان لضمّه واحتوائه وإشعاره بكلّ معاني وإحساسات الأمومة التي يطلبها.

فيهدأ وقد تملّكته غبطة آمن بدوامها وسكن لأزليّتها. فأمّه باقية معه وهو لا يتصوّر يمونة تُغادره لأنها تُحبّه، وهو متيقّن أنها لا تستطيع التخلّي عنه لأنه يُحبّها، فلم يكن يخشى على نفسه شيئا ما دامت يمونة لا تُفكّر مطلقا في أن تبرحه أو تتولّى عنه، فيتدجّن الخوف الذي بدخيلته، ولكن ليس طويلا، فقد لاح ذلك اليوم الذي عربد فيه الخوف المروّض، فغدا كاسرا وحشيا يلتهم ما بداخله من آمان، وترتجّ نفسيته وهو ينتهي إليه خبر رحيل يمونة عنه، فلا يُصدّق الخبر. يجب أن لا يُصدّق، فالخبر سمعه من الآخرين وهو لا يُصدّقهم. هو لا يُصدّق إلاّ يمونة، وهي لم تُعلمه بشأن هذا الرحيل، بل لم تومئ به إليه، فهي لم تنو يوما تركه بعدها، فحبّها له كان يقول له دائما بأنها ماكثة معه، فلماذا أخلفت الوعد وراحت تُحوّله وحيدا، هكذا فجأة، وهو في أمسّ الحاجة إليها.

ويتبعثر بهذا ما ترسّخ في قراراته من اعتقاد كان قد ألفه ورآه يُجبر أمّه على رفقته التي لا تزول. ولكن ظلّ مع هذا لا يُصدّق أنه فقد جوارها، فقرّر البحث عنها في كلّ مكان حتى يستعيدها، ويسترجع بذلك قربها الحبيب إليه، ويسترسل وهو يقصّ على ذاته الثانية ما كان منها "وأنت الآن تفتح قلبك وتمدّ ذراعيك ثم تنطلق في ؟؟ تبحث عنها في الأرض وفي الشمس وفي كلّ مكان، ويقولون لك أنها قد رحلت ولكنك تقول أنك تراها كلّ يوم وفي كلّ مكان، لأنها تحوّلت إلى شيء، هو كلّ شيء. يمونة رحلت منذ سنوات دون أن تُشبعني من أمومتها، وقد كان ذلك شيئا قاسيا جدّا بالنسبة لي فقط"[1].

وينطلق للبحث عن يمونة الغائبة برجاء لا يعترف بالخيبة وبلهفة لا تُحسن أن تتراجع، فيفتح نبضه يستشعر به حبّها الذي يتشوّق إليه والذي يحسّه مهما بعدت المسافات وتضاعفت الأطوال، ويشرع ذراعيه المتوسّلتين للقائها علّه يعثر على حضنها الذي تعوّد دفأه فتتلقّف ذراعيه الممتدّتين فتشدّ عليهما وتقوده إلى حيث يصير معها. فأمله في العثور عليها كان أقوى من كلّ المعاناة التي كابدها وهو يجوب أمكنة الأرض عند بزوغ كلّ نهار جديد، وكلّ خطوة منه تقول هاهنا سألتقيها واليوم سأجدها.

---

[1] الرواية، ص.87.

وتمتدّ رحلته ويستمرّ سمذكن يمونة في قلبه، فلا تغيب عن مخيّلته طرفة عين، ويُذكّره الآخرون بأنّ أمّه يمونة قد رحلت، ولا جدوى من مواصلة التنقيب عنها، فهي لن تعود. ولكنه يصرّ على إبقاء خيط التمنّي ممتدّا، ويعجز عن الوصول إليها، فتتراءى له في كلّ ما يرى، وهي تستوطن كلّ ما حوله. وعندما يُدرك بأنها موجودة وغائبة، يكبر شوقه إليها وتتّسع وحدته، فيتألّم ويُلازمه هذا الألم طيلة ما تبقّى له من العمر.

وفي كلّ ذكرى يُعاود عيشها يحسّ بسياط القسوة يمعن في جلده بعد أن فرّت منه الأمومة، فمكث إثرها محروما، يجهر بحاجته إليها وحسرته الحارقة لأنه فُطم قبل الأوان، فظلّ يكبر وهو يحسّ جوعه إلى حنان يمونة يعظم ويتقوّى، فلا يملك له كبحا، فتنطلق اعترافاته الممنوعة التي حجر عليها وعاش واهما يُخفيها لتُسمعه بكاءه الطفولي الذي لا تُحسن إيقافه غير يمونة وعطف يمونة، وبهذا طالب الإلحاح حضورها المذوب لصقيعية ما كان يتحمّله الطفل الذي كانه.

"لقد كبرت الآن ولكنني مازلت أشعر بعض الأحيان أنني مازلت طفلا، وأنّ يمونة مازالت تضمّني إلى صدرها وتعبث بأصابعها في شعري، بينما أنفاسها تُدفئ وجهي في ليلة بردة جدّا، ثمّ يجيء صوتها السّاحر ليرحل بي إلى عوالم جديدة" [1]. كم كان صوت أمّه عجيبا وقادرا على نقله من مكان إلى آخر، أن يعبر به إلى ما تباعد وتجاور من بقاع. كان صوت يمونة وهو يصل إليه يخرق جميع الأنظمة، يقفز به فوق الزمن، ولا يستقرّ به في مكان. صوت يمونة وحده كان يُدخله منطقة الحلم ليعيش اتّفاقه مع ذاته التي رفضت أن تكبر ورفضت الخروج من حدود الحلم الذي تُقيم فيه يمونة، وهو يرى نفسه يربض طفلا إلى جوارها، يُعانق أمومتها ويتمرّغ في دفئها السخي، فيذهب للاستزادة منه، هو الطفل الذي رغم أنه كبر لم يكبر، وصت يمونة يُناديه في كلّ الأوقات ليُحرّك فيه الحنين إلى زمن لم يعشه، فعزم أن يحياه برغم ما قد يعترضه في هذه التكرارية الزمنية من عنت ونصب لن يحين على تحمّله، بل سينسجم معه لأنه سيجود عليه بلحظة تُقرّبه من الأمومة التي جاهد نفسه ولسنوات على عدم نسيان صورتها، فاستكنه هالتها، وعاد إليها كلما ضاق صدره، وأنّ وجعه الباحث عن الخلاص من وثاق الحرمان المخيف ؟؟.

---

[1] الرواية، ص.88.

ويغدو اسم يمونة كلمة السر التي ينفتح بها كلّ منغلق لديه، فيستعيد بها الأمومة الضائعة ويعيشها ثانية وهو يتوق لأن يصير ابنا ليمونة أخرى، جارته التي شعر نحوها بعاطفة غريبة انساق وراءها، لم يُقاومها فجعلته يُحدّث نفسه ويُمنّيها بأن تتبنّاه، أن تستحيل آماله لمجرّد أنها تحمل نفس اسم أمّه يمونة، وهذا يكفيه "إنك الوحيد الذي له الحق أن يكون ابنا لها، كما أنها الوحيدة التي يجب أن تكون أمّا لك من بين كلّ النساء"[1].

ويتذّكر أنّ له حقّا مغيبا وهو ينتظر إلى الرّاهن، فتنعكس ذاته على صفحته كئيبة متألّمة، فينبري يُحدّثها ويُقنعها أنّ حقّه الذي ظلّ مدّة لاهثا وراءه يُحاول القبض عليه فلا يُفلح، قد واتته الآن إمكانية إحرازه، فقد عوّضته الظروف عن يمونة الدّاهية، فمنحته يمونة جديدة تُشبه الحقيقية في اسمها، التقاطع الوحيد ولكنه راض به. نعمة جاء بها الرّاهن عليه، فكان الوحيد الذي ينبغي له أن يرث هذه الأمومة التي لا يجب أن تتوجّه نحو آخر غيره. فيمونة الجارة هي الأمّ المأمولة التي لا تُرتقب، ولا يُمكنها أن ترتقب ابنا سواه، فهي مجبرة من بين النّساء كلهن على القبول ببنوّته التي لا يحلّ لأحد أن يُزاحمه فيها.

فيمونة مقياس يستخدمه عقله الباطن للظفر ببديل الأمّ الحقيقية لأنه لا يملك عنها ولا يحتفظ لها بغير الاسم الذي تشكّل تعويذة سمحت لأمّه بأن تستعيد روحها وتحيا من جديد، وهي تتناسخ مع جارته، ولهذا كان جزمه شديدا وهو يُطالبها بأن تُعيد إليه الشعور بالبنوّة المتوجبة له عليها، حقّه الذي لا يراه إلاّ عندها، ولا يُريده إلاّ منها.

وعلى الرغم من كلّ هذا الإيهام الذي أراده لنفسه حتى ينتشلها من غربتها إلاّ أنه بقي حبيسا خلف قضبانها، تخنقه ثنائية الوحدة واليأس، فيزدوج حرمانه عندما يلكزه شعور اليتم الأبوي، فيُذكّره، وبحنين يفيض مرارة، تلك العلاقة القريبة والحميمية التي جمعته بأبيه "كنت أرافقه في بعض الأحيان إلى عمله، وأنا الآن أعمل بنّاء ولا أحد يُرافقني إلى عملي"[2].

فإحساسه بالحسرة على الرفيق الذي لم يستطع أن يوجده لذاته بعد يتمه، يظهر أعظم من شعور اليتم نفسه، فتوقّفت به الحياة، واستصغر نفسه، وهو يعترف لها بأنّ أباه

---

[1] الرواية، ص.86.

[2] الرواية، ص.23.

كان أفضل منه، فقد نجح حيث أخفق هو، فقد كوّن أبوه امتدادا فيه، وصنعه رفيقا من صلبه، يصطحبه معه في كثير من الصّباحات وهو متوجّه إلى عمله، الصورة التي ركّبها حنان الأب، فلم تُغادر خياله منذ كان طفلا.

الصورة التي كان بها الأب يُخاطب من حوله مفتخرا بهذا الولد الذي سيكون لا محالة عماد عزوته في مستقبل أيّامه.

فلماذا أشبهه في حرفته ولم يُماثله في قدرته على أن يعيش كبيرا متطاولا بأسرة يبنيها وبولد يُنجبه؟. فلماذا حياته عقيمة خالية من أساس البقاء الذي يبغيه فقرا من المرأة التي مازال يفتقدها وهو يُجاور الأربعين، على الرغم من أنه يحنّ إليها ويحلم بها، ويراها تسكن في نهاية الشارع، حيث يزورها، يدقّ بابها، ينفتح له فيدخل، "تحتويك غرفتها أوّلا ثمّ تحتويك المرأة نفسها بين ذراعيها وتضمّك إلى صدرها، وتُمطرك قبلا حارّة لا عهد لك بمثلها، ثمّ ترحل بك إلى أعماق العالم الذي لا تعرفه، وتتمنّى أن تدخله وأن تخلد فيه"[1].

إنّ أحلامه اليقظية بصورها المبعثرة الأجزاء، تُخفي شوقا مادّيا لا معقولا للمرأة، حنين صاغه حرمانه الطّويل منها، الممتدّ عبر السنوات، حيث كانت تعيش في رغباته وهي غير مكتملة الشكل، وغير واضحة الملامح، ولهذا عندما يحنّ له استحضارها لم يظهر من الصورة غير الذراعين اللّتين امتدتا نحوه تحضنانه وتقودانه إلى الدّنيا التي لا يعلم أن يصلها بمفرده، والتي طالما أراد اجتياز حواجزها، والدّخول إليها، والمكوث فيها إلى الأبد.

إنّ هذه المنازع العاجزة التي تُذكّيها عذرية جبانة، تُحوّله إلى مستسلم، اختلطت عليه الأشياء فتشابهت وتنافرت، وبدا هو مرّة أخرى طفلا يرفض أن ينام إلاّ في حضن المرأة التي تُبادر لمعانقته صغيرا و؟؟ بريئا، وبهذا يطفو على السطح مجدّدا وجه الأمّ بسحنته الأليفة لديه، فتظهر حقيقة ما يُريده من هذا الحلم، فهو لا يرغب في غير جوار أمّه، المرأة الوحيدة التي تُحسن هدهدة أحاسيسه ومداعبة مشاعره، وهكذا فمهما كان الحلم عذبا، وكيفما كان انسياقه خلفه، فإنه يتحوّل قاسيا، بل ومخيفا، وهو ينحرف صوب السرداب البارد، حيث تنام الأمّ التي تتقزّم أمامها كلّ امرأة أخرى. فتفقد بهذا أحلامه كلّ

---

[1] الرواية، ص.102.

؟؟ لها عندما لا تستطيع أن تتّخذ لنفسها إلاّ رداء الأمّ، تتقنّع به لتختفي. وفي حمأة هذه الرغبات اللامفهومة ؟؟ التي تعكس الأبعاد الكثيرة والصور المتعدّدة للشيء الواحد، نشأ بداخله الإحساس بعدم جدواه، فاحتقر نفسه وازدراها بقوّة، وهي تتراءى له ضئيلة هيّنة، فيُحدّثها قائلا "إنني أجري وأجري باستمرار، وألهث كما تلهث الكلاب في أيّام الحرّ، ولا أرى إلاّ عرقي يتصبّب بغزارة... فإذا رأيتم ثورا يحرث فذلك أنا، وإذا رأيتم حمارا يتقوّس تحت حمل ثقيل فذلك أنا"[1].

فهو يُمثّل نفسه مرّة بالكلب في أيّام الصيف ؟؟، الذي يُعذّبه العطش، فيروح يعدو ويعدو، فلا هو يصل إلى هدفه، فيجد نبع الماء، ولا هو يتوقّف عن الركض. وكم يُمعن في استصغار هذه الذّات، وهو يُعطيها شكل الثور الذي يُجبر على أن يكدح في الحرث يومه كلّه، من بدايته مع بزوغ الشمس إلى نهايته مع غروبها، فلا يُسمح له بأن يتقاعس أو يئنّ تعبا فيرتاح، ويبقى على هذه الحال حتى يُودّعه النهار.

ويُواصل امتهانه لنفسه، فيذهب في ذلك مذهبا آخر، فيُصوّرها حمارا يرفع الأحمال التي لا يقدر عليها أحد، ويُكابد ثقلها حتى يتجوّف ظهره من أوزانها المهلكة. وعندما يُنهي هذه التمثيلات كلها يدلّ على حقيقته فيقول أنّ الكلّ يعرفه، بل يجب عليهم أن يعرفوه مباشرة إذا ما صادف وأن رآه أحدهم، لأنه باق على هذه الهيئات الثلاث التي لا يطيق الخروج منها، كلب وثور وحمار، صفات مثيرة للشفقة. فما يقع عليه من حيف وظلم يجعل عيشه في نظره كعيش الحيوان، فيبدو بهذا وقد فقد آدميّته ولم يعد يتذكّر عنها شيئا، وقد تمكّنت الأشكال الثلاثة من مخيّلته، فأعجزته على تخليص ذاته من نظائرها الشاذة، وتؤلمه دونيته فيستشيط مقتا لجيرانه المرهفين، ويهتدي إلى طريقة في إيذائهم غريبة "نحن يا علال وعكر الجو من خلال نافذتك الصغيرة، ودع النائمين في الأدوار العليا يختنقون"[2].

فهو يتحرّق للتخلّص منهم، خنقا بالدّخان المنبعث من سيجارته أو من سيجاراته، فقد ظهرت له الطريقة المثال لذلك، ولأنّ شجاعته قاصر على أن تصل إليهم، فقد صوّر له ذهنه أنه بإمكان دخّان سيجارته المستهلكة أن يصعد إليهم من خلال نافذته تلك

---

[1] الرواية، ص.158–159.
[2] الرواية، ص.09.

الصغيرة في الطّابق السفلي ذاك، وباستطاعة هذا الدّخان وحده أن يُقضى عليهم جميعا أثناء نومهم، حيث لا يهتدون إليه ولا يعبئون بما يكيد لهم.

هذا التصوّر الذي ما كان لينجح وهو يشغل قبوا يحوي نافذة صغيرة لا تؤمّن حتى التهوية اليومية له التي يُرجى منها أن تجعله يعيش سليما جسدا، وغاب عنه أنّ دخّان سيجاراته، وإن كانت بالآلاف، لن يصل إلى هؤلاء الجيران في الطوابق العليا، حيث النوافذ والشرفات والسطوح، وأنّ طريقته المختارة ما هي إلاّ محاولة فاشلة للنيل منهم ستنقلب عليه، فلا يضرّ بها غير نفسه.

فكون سكناتهم الفاخرة فوق سكنه يُعذّبه، لا يسمح له بأن يجد راحته في حيّزه المكاني الذي يرفض اقتسامه مع أيّ كان، خاصّة مع هؤلاء المرفهين الذين شكّلوا إحساسا بالنقص والوجع مريع، فظلّت فكرة عجزه عن إنهائهم تؤرّقه، فتحوّل على ذاته يُنفّذ فيها الانتحار، موهما إيّاها بأنها تنتقم من الآخر الذي لم تجد حياله ما يشفي غليلها منه، وهكذا يكون الاعتراف الضمني من علال أنّ وضعه المستفحل ماكث على حاله، وأنّ الآخر الذي يؤلمه مجرّد ذكره أو التفكير فيه، باق معه، وأنّ التخلّص منه مستحيل، وأنه محكوم عليه التعايش معه كذاك الذي يحيا بألم في رأسه، فلا هو يبرأ منه، ولا هو يُرديه فيرتاح.

ويحمله ؟؟ العنيف بمن حوله وبما حوله إلى استحداث طقس غريب يدأب على ممارسته كلّ أسبوع، بانتظام كبير، فيقصد البحر، وعندما يصل الشاطئ يستقبل البحر، وهناك يصغي فيسمع "الأنغام تنبعث من مصدرها المجهول، يهتزّ لوقع النغم ثمّ يرتعش، ثمّ يتهوّل، وأخيرا يرقص ويدخل عالمه المملوء بالأسرار ليصول فيه ويجول، يقف وقفته المشهورة بجانب تلك الصخرة وهو يهتزّ ويتمايل، ثمّ يسدّ أذنيه بيديه، ويصرخ بأعلى صوته، يشتدّ الإيقاع الخفي، يخف في رقصته، وتزداد حركته رشاقة وخفّة، تصير رجلاه لا تكادان تلمسان الأرض، يتصبّب العرق من الجسد"[1].

وفي مواجهة البحر تنطلق ذاته المكلومة لتوقّع أشجى الألحان وأغربها، وما أن يحسّها حتى يضطرب، ينفعل، يتفاعل معها، يندمج فيها، ترتعد أوصاله، يتحوّل، يفقد السيطرة على ذاتها، تهرب منه، فتتحرّك، تدور وتتمايل، تنحني وتستقيم، فيلج عالمه الذي لم يُطلع عليه أحد، عالمه الذي يملك وحده مفاتيحه، فيذهب ويجيء فيه، يُحلّق ويحطّ،

---

[1] الرواية، ص.182.

ويعود فيقفز، وينزل بكلّ الخلاص الذي أعوزه طيلة حياته، وفي أوج الحركة، يقف فجأة، وجسده مازال يرتجّ ليُحاذي الصخرة، وهو يضع يديه على كلتا أذنيه فيغلقهما، لتنبعث منه صرخة مدوّية، يحتدم مع وقعها اللحن الكامن فيه، فتتضاعف اختلاجاته ويُباعد الأرض، فيطير الجسد في الهواء وهو يرشح ماء، وهكذا يتوحّد علال مع الحياة، فيُعلن لها عن حبّه لها، نافضا كلّ ما تعلّق بها من خداع وزيف، مذيبا القشرة الفولاذية التي حجبت وهجها عنه، فيتفتّح كيانه ليحكي عودتها إليه من جديد.

ب) بين فكي وطن:

وتكشف زهرة ديك إحدى الحالات الأمومية وهي تُقدّم لنا شخصية عمر، الأستاذ الجامعي الذي دخل عتبة الأربعين ومازال يحنّ لأمّه التي فقدها ولمّا يبلغ العامين، مازال يشكو فراغا أموميا، يتعاظم لديه يوما بعد آخر "حاول ككلّ مرّة أن يسترجع وجه أمّه التي فقدها وهو لم يتجاوز الحولين، لم يُفلح. حياته مع إخوته الثلاث كانت خالية من وجود أيّة امرأة بعد أن تُوفّيت والدته، ورفض أبوه التزوّج بامرأة أخرى"[1].

فهو يُجرّب كلّ مرّة، وهو يجلس مع نفسه، أن يستفزّ ذاكرته يُشدّد عليها، يُجهدها علّها تُعينه على أن يسترجع صورة واحدة لمن كانت أمّه، فينظر إليها، يتأمّلها، تلك التي ما عاد لينعم برؤيتها مطلقا، يحضن ذلك الماضي المنتحي فيه، وتلك الذكرى المنزوية المنسية، ليُعيدا إليه بعضا من نبضها ونبراتها، بعضا من حركاتها وسكناتها، بعضا من ذاك الشعور الضائع منه، ولكن عبثا يُحاول وعبثا يفعل، فقد تربّى بعدها إلى جانب إخوته، يرعاهم أب نادر الوفاء، لم يرغب في أن يُقحم على أطفاله زوجة ثانية، لا يضمن ولاءها، فتُنغّص عليهم حياتهم، أطفالا وشبابا، فعاشوا بهذا يفتقرون إلى حنان المرأة، إلى رعايتها.

فظلّ وجوده رهينا بعالم الذكورة، لا يخرج منه، جاهلا عن العالم الموازي كلّ شيء، فنشأ بداخله الاختلال الذي غذّاه تمدّد الوقت وتعاقب الأيّام، فكبر وهو يُدرك تشوّهه الدّاخلي الذي أصابه بالرغم منه. كبر وهو يعرف أن لا وسيلة لديه للهروب، فانحسر يؤاخي المعاناة، وينكمش كلما يقرسه ؟؟ اليتم الذي خلّف فيه من الندب ما لم يقو على

---

[1] بين فكي وطن، منشورات الجاحظية، الجزائر، 2000، ص.09.

مدراتها وتضميدها، ومع هذا كلّه بقي مؤمنا بأبيه، ينظر إلى ما فعله بكثير من الإكبار والامتنان "والد معوز، دكّته مصاعب الدّنيا، يتم وفقر وضيق حال"[1].

مازال يحفظ صورة هذا الأب التي لا يُمكن أن يُضيعها أو ينساها، فقد عاش في كنفه رضيعا، عاجزا، لا يملك من أمره شيئا، ثمّ طفلا لا ؟؟ على شيء، وبعدها شابا يحتاجه دليلا يُبعده عن الوعر من المسالك، وفي بعض هذه الأطوار، كان يرى عجزه فيُبكيه ما كان يُقاسيه يوميا من فاقة، لا يقدر أن يُلبّي بها طلبات أطفاله الأربعة، فظلّ أبوه مثار شفقته الدّائمة، وهو يُواجه أنواعا من بنات الدّهر اللائي كثيرا ما كنّ يتغلّبن عليه، فيصرعنه ويُخلّفنه مهموما محزونا، فيخمد وقد انهدم كلّ ما بداخله من مقاومة ومكابرة.

الرّاهن هذا الذي كان يُشاق الأب بالهوادة ويتتبّعه دون مهادنة، أبصره الابن وأدرك ضنكه، حال أجهشت شعوره الذي راح يُولول يتمه مرّة، ويُعدّد صنوف العسر وانعدام الحيلة مرّات أخر.

فقد وعى الابن كم كان الوزر شديدا على أبيه وثقيلا ومتعبا، تحمّله على مضض منه، ولم يُبد إزاءه أيّ ضجر أو إنكار، وكأنما هو راض بوضعه هذا، والذي عدّه قدره المقسوم له.

فاختزنت مخيّلة الطفل الصغيرة شكل هذا الأب المهزوم، وكلما كان ينقضي الزمن كان الشكّ يزيد ارتياعه ووجله من أن يتحوّل إليه فيتلبّسه في يوم ما.

وضع هزّ دخيلته وغمرها باللاثقة التي مافتئت تُعاوده كلما طُرحت عليه فكرة الزّواج أو عبرت بخاطره.

"زواج يعني ارتباطا دائما أبديا، وأطفالا وبيتا ومسؤوليات. صحيح أني لا أمتلك أيّة دراية عن عالم النّساء"[2].

فالزواج في فكره ليس مبهما، فهو يُدرك معناه الحقيق جيّدا، مؤمن بأنه توحّد خالد، لا تنفصم وشيجته، وتكون ثماره خلفا وتبعات مستمرّة، لا تعدو متطلّبات متجدّدة لا انقضاء لها، وعلى الرغم من المفهوم الكامل الذي لديه عن الزواج إلاّ أنّ العوز النفسي الذي يتملّكه يقف به حائلا دون الإقدام عليه، ولأنه لا يستطيع أن يُقرّ لنفسه بهذه الحقيقة،

---

[1] الرواية، ص.55.

[2] الرواية، ص.08-68.

يتحجّج بأنه لم يسبق له أن عرف المرأة أو خبرها، ويذكر أنه رغم بلوغه الأربعين من العمر، لم يخض بعد أيّة تجربة معها، لا بسيطة ولا معقّدة، ولكن وهو يُقدّم برهانه ويُراوغ نفسه حتى تُصدّقها، كانت تتمثّل أمام ناظريه صورة أبيه المأزوم لتفضح حقيقته وتدحض دليله.

فالمأساة التي عاشها رفقة أبيه وإخوته الثلاث، بعد وفاة الأم، تردعه عن التفكير في موضوع كهذا، فهو لا يُريد أن يرتبط بامرأة لا تستطيع أن تُكمل معه المسار، فترحل عنه في منتصف الطريق، وهي تستودعه ثقل الأطفال الأربعة، كما فعلت أمّه مع أبيه الذي أنهكته التركة، وخانه كثيرا جهده في التصرّف معها، فالأمانة كانت مشحوذة، والجنّة لديه كانت مفقودة، ممّا كرّر انكساراته وضاعف خساراته، فهو لا يرى ذاته تصير إلى ما وصل إليه والده، مجرّد تمثال لإنسان محطّم الآدمية، خائر القوى، يائس طوال حياته، يُثير شفقة أبنائه الذين لا يُحسنون كيف يتصرّفون ولا يهتدون إلى ما يفعلون، فهو يكره أن ينشأ أطفاله تعساء، ويكبرون مهملين مهمّشين، كما عاش هو مكدودا، ينتحب وقته كلّه ولا يجد من يُواسيه ويأخذ بيده حتى يخفّ وجعه، ويتلاشى قلقه.

ولقد استمرّ فترة متشبّثا بموقفه هذا من الزّواج ثمّ عاد فعدل عن رأيه، وهو يقترب من المرأة، ويعرفها عن كثب، فحدث أن ولّد عنده هذا اللقاء إحساسا بالأمومة لا يُقاوم "كان يهوى التكوّر في أحضانها كطفل تائه عثر على أمّه فجأة"[1]. فهو لم يستطع أن ينظر إليها كما ينظر الرجل إلى المرأة، وإنما كما ينظر الطفل إلى أمّه التي أدركته فجأة بعد طول فراق، فاقتلعت عودته إلى حضنها الذي ضلّ عنه طويلا، كلّ ما نبت في فكره من ذهنيات ومفاهيم، وبقي هكذا قاصرا على أن يرى في المرأة ما يراه الرجل الطبيعي، ولم يكترث وهو يقرنها دائما بأمّه المفتقدة لأنّ إحساسه عجز عن تلبية الاعتيادي الذي لا يملكه، وأمسك بالشّاذ الذي لم يُمكّنه من التعرّف الحقيقي على المرأة التي استوقفها الظرف ذات مرّة في طريقه الحياتي، وبهذا فالمرأة تُساوي الأم وكفى، وعندما يرتبط بها يُطالبها بأن تتنازل عن دور الزوجة لتكون أمّه، ويكون هو طفلها الذي يرفض أن يكبر وهي إلى جواره، فتصبح زوجته هنا مجبرة، وافقت أم لا، على أن تصير بديلا عن أمّه، فتُعوّضه بذلك عن كلّ لحظة حرمان أو يأس عاشها جرّاء بعد أمّه عنه، وكأنه بهذا يُحمّلها مسؤولية

---

[1] الرواية، ص.118.

ما كابده بعد رحيل أمّه، وعليها ما دامت امرأة أن تُصحّح كلّ ما يكون قد اجترحه هذا الغياب في حقّه، فتُصبح بهذا المعادلة التي يهواها ولا يرغب في غيرها طفل + أمّه.

فهو لا يُحبّ منها إلاّ أن تُحسن القيام بدور الأمّ ليكون هو راض عن وجوده معها، وعندما يحسّ أن عنفوان الأمّ فيها قد بدأ يضعف، فاسحا المكان للزوجة، يتّهمها بالتقصير في واجباتها نحوه، وأنها عجزت على أن تؤمّن له مطلبه منها، فيكتنفه الندم على أنه ارتبط بها، وتُساوره فكرة هجر البيت الذي هي فيه "هي ما الذي تنتظره مني بعد أن ركبت معي عربتي التي يجرّها السراب؟"[1].

فهو يرميها باللاّئمة كلها، ويعدّها سبب توريطه لأنّ خطوة الزواج كانت تسقط من كلّ إيماناته إلى أن برزت هي في حياته، فأباحت ما حرّمه تفكيره، فما كان يجب أن تُطاوعه فيما طلب، فموافقتها على الارتباط به أدخلته ديمومة من الحسرة، لا يستطيع النجاة منها، بعدما كانت حياته قبلها أكبر كذبة، فقد عاش مضيعا، وما من شيء في عيشه كله كان حقيقة. خدعة كبيرة مشت معه كلّ مشواره الذي مضى، فما كان عليها هي أن تلتزم بمرافقته باتّجاه الوهم.

فهو لا يُريدها أن تُطالبه أو تطلب منه أيّ أمر على الإطلاق لأنه لا يُمكنه أن يُقدّم لها أيّ شيء، مهما كان شأنه.

فالهدف الذي دعاه للارتباط بها لم تنجح في تحقيقه، وهو أن تكون أمّا له، فما كان يُمنّي نفسه في العثور عليه هو أمّا لا زوجة، وبالتالي فهو لا يُجيز لها أن تُحاسبه أو تتصرّف معه كما معاملة الزوجة للزوج، ثمّ هي لم تفهمه ولم تستطع أن تكشف عن العقدة المتحكّمة فيه والتي تُدعى الأمّ، ولم تقدر الوقوف على تفاقماتها وتداعياتها الانتكاسية.

وباعتباره قد وصل معها إلى هذه النقطة، فحاجته إليها لم تعد قائمة، وقراره في الاستغناء عنها بدا محسوما، وما عليه هو بعد ذلك إلاّ أن يتحمّل سرابه الحياتي بمفرده، مثلما فعل دائما. ويصرّ على نفسه أن تظلّ تُطارد اللاموجود، فيختلق لها المستحيل لتبقى تُراقب شبح الأمّ علّه يبرز، فتقبض عليه، وتتجسّد خيانته لنفسه وهو يدلّها على الطريق المسدود المسلك، فعندما يختار بعض زملائه من الأساتذة السفر إلى الخارج، يستهويه الأمر ويسأل نفسه لماذا لا يحذو حذوهم، ولكنه يتراجع وينكمش على نفسه، وقد ألغى

---

[1] الرواية، ص.97.

الفكرة تماما، فهو ملزم "في قرارة نفسه على البحث عن أمّه، أمّه التي فقدها عندما كان طفلا صغيرا"[1].

فهذا العذر الذي يُقدّمه لنفسه يبدو عجيبا لأنّ أمّه تكون قد تُوفّيت وهو طفل لا يعرف حتى أن يتذكّر، فهل يكون عقله الباطن قد غيّب عنه هذه الحقيقة، فجعله يتبنّى خلافها، وعلى أساسها راح يصنع خيالا نظّم فيه وبإحكام مقولة أنّ أمّه ما تزال على قيد الحياة، وأنها غادرته مكرهة نادمة لظروف يجتهد عقله الباطن في تأليفها أيضا، فيُريه أمّه في مكان ما من الدنيا تنتظر قدومه إليها ليكونا ويعيشا معا مجدّدا، ويتوجّب عليه هو في هذه الحالة أن لا يُطيل انتظارها ما دام قد كبر وخبر ما حوله، عليه أن يُجاهد في البحث عنها حتى يجدها، فتُعوّضه حقّه الذي أجحف والذي تحوّل عضّة تُعذّبه كلّ حين لأنه قفز فوق طفولة لم يعشها، فكان أن كبر قبل أن يحسّ بمعنى الطفل فيه.

فهو اليوم، وإن تجاوز بزمنه الأربعين، يتوق لأن يتحوّل طفلا، ويحتاج إلى قرب أمّه منه حتى تضمن له طفولة ثانية، ومن هنا فهو مستعدّ للتضحية بفرصة السفر إلى الخارج من أجلها، من أجل أمّه، بعد أن نجح عقله الباطن في إقناعه بأنها حيّة، وهو سيتحمّل كلّ المشاق التي تُوصله في نهاية المطاف إليها.

إنّ هذه المراوغة التي يستعملها ضدّ الراهن تؤكّد خوفه من المجهول الذي يتوقّع منه نهايته التي قد تَمثُل في أيّة برهة، فقد كبّله التوجّس وهو يرى ويسمع أخبار الآلاف من الناس الذين كان يُنهيهم الإرهاب، حتى أنه لم يكن يجرؤ على مغادرة بيته، وفي هذا الظرف كانت قبلته عالم الأماني، يتبتّل إليه، ويستر عطفه، ويُناشده أن يُحقّق له خيالاته المنجدة التي لا تنمّ إلاّ على عظم الضعف الذي يعتريه.

"لو تنحّته يد القدر وتحجر جسده في قالب تمثال قوى آمن، يخرّ الرصاص صريعا عند قدميه"[2].

إنّ عجزه المريع أسقطه في شرك اليأس، وحوّله أسهل فريسة للإحباط، فظهر مرحبا بأن يمسخ حجرا، وراح يختار صفة الحجر التي يأمل أن يكونه، فهو لا يودّ أن يصير حصى صغيرا بسيطا، تضربه الأرجل ويرتطم بكلّ ما حوله من الأشياء والأجسام،

---

[1] الرواية، ص.146.

[2] الرواية، ص.48.

بل يرغب في أن يُعاد تكوين صورته الإنسانية في تمثال رص من الصخر، جامد لا يحسّ، فيضمن له هذا المسخ المأمن من الموت.

فصلابة الحجر وحدها تقدر على الوقوف في وجه هؤلاء الذين يُرسلون رصاصاتهم العشواء على الآخرين دونما توان أو تردّد، فالمسخ لا يؤثّر فيه الرصاص، فما عساها حبّات الرصاص أن تُحدث في الصخر، وإن عُدّت بالآلاف، عدا تلك الخدوش والثقوب التي تُرمّم وتُصلح بسهولة وبلا ألم.

فأمنيته هاته تُتيح له التغلّب على فزعه فلا يحسّه، وتقوّيه على قهر العجز فلا ينتابه، ولا يكترث بفعل الفناء فلا يُهلكه.

فقد كره أن يكون حيّا، فكلّ شقائه وعذاباته إنما نالت منه لأنه حيّ، والأحياء كلهم يفتقدون للأمان، وإن بقي ضمنهم فإنه لن ينجو من الموت المتربّص به، فالأريح له أن يتشكّل صخرا.

منتهى ازدراء اللّذات الحيّة التي يحملها أو تحمله، ولكنها الطريقة الوحيدة في اعتقاده التي يرى فيها منجاته.

إنّ هذا الحسّ المرتعش هو حصيلة ذاك الفكر المبعثر، المتبدّل والمتبلّد الذي لا يستقرّ على وضع لم يع طبيعة الأمنية التي تاق إليها، فإن كانت كلّ شكواه من الموت، فإنّ المسخ أحقر صورة، وكأنه بهذا يُبدّل ميتة منكشفة بأخرى متخفّية.

ويعود بعد ذلك فيُفضّل الأولى ويطلبها عندما يُحدث لنفسه مهنة إضافية يغتني بها من العوز الذي مكث معه مدّة حياته، فيخوض في تجارة كلّ شيء، وحتى في الممنوع، فيزداد حينئذ وجله من أن يفتضح أمره، ويُعرف خبر جريمته وينتشر، فيعيش جرّاء هذا أعصب أيّامه، ولمّا لا يُطيق التحمّل يهمس لنفسه مصارحا إيّاها "ليتني أنكشف وينتهي الأمر وأرتاح. ليت رصاصة ما تستقرّ في رأسي وأرتاح"[1].

فهو لا يزال يركن للتمنّي، ويظهر هذه المرّة وهو يستجديه بأن يمنحه السكينة ويغمره بالرّاحة، فالاضطراب الذي في دخيلته ومن حوله، بات يرجّه بعنف، ومصيره المحجوب بغلالة من الحيرة يؤرّقه ويحبس عنه إغفاءاته التي هجرته. وهو على هذه الحال كان فكره كلّه نحو ما يُحقّق له الإفلات من براثن هذا العناء، وينجح في الاهتداء

---

[1] الرواية، ص.189.

إلى حلّين اثنين يعرضهما على نفسه لتختار بأيّهما تُحدّد شأنها، فكان الأوّل أن يفتضح تصرّفه المشبوه وتُعلم خيانته لمبدإ الحياة، فيُقبض عليه والذنب يلبسه ويُرمى حيث حيّزه المنطقي، زنزانة يُتمّ فيها دورة عيشه، وتتوقّف بهذا مقارعته للمكابدة.

أمّا الاختيار الثاني فيُبيح لرصاصة محكمة التوجّه، الوصول إلى رأسه والسكن فيه، محرزة ألم الراحة الذي لم يكن يهذي به، غير ناظر ولا مهتمّ لكيفيته وسبله.

ويستمر بهذا في ركضه بين التمنّي المعلّق والخوف الشّاخص إلى أن يخلص به أمره إلى الجنون الذي يتحوّل وجها آخر من وجوه الآمان الذي يُنشده.

ج) البارانويا:

وتتكشّف رواية البارانويا عن طبيب نفساني يُدعى صابر، يشكو فاقة أمومية مريعة، دائم التذكّر لأمّه، يلهج بالحديث عنها كلّ وقت، وكلما توسّع إحساس الفراغ بداخله، أسرّ إلى نفسه بحديث مكرور "أمّه التي لا يذكر لها اسما ولا صورة، كلّ ما يعرفه عنها من خلال المرحومة جدّته، أنها تزوّجت مرّة ثانية بعد طلاقها من والده برجل آخر يُقال له ثرى"[1].

وكأنه يجد نوعا من السلوى وهو يجترّ خبرا يعرفه، أطلعته عليه جدّته منذ سنين، وفسّره هو لنفسه منذ وعى. فأمّه تخلّت عنه ورمت ببنوّته بعد طلاقها من أبيه وزواجها بآخر، فاستغنت عنه مثلما استغنى عنها والده، ونسيته وقد مزّقت كلّ صلة به، فلم تكن تسأل عنه أو تطلب رؤيته، لم تكن تودّه أو تزوره، وكأنها أرادت بهذا الفعل أن تُلغي الزمن الذي جمعها بأبيه مرّة فأثمره هو، فلم تجد بدّا من معاقبته بجرم أبيه.

وربّما حتى الجدّة كانت شريكة للأمّ في ما حصل، فلا هي أخبرته باسم أمّه، ولا هي أرته صورتها، فأحبكت المكيدة، ونشأ مفصوم الرابطة كلّيا بمن كانت أمّه، ولم تنجح الجدّة على هذا الاعتبار في أن تكون أمّا ثانية له، فكبر والشرخ في عمقه يكبر لحظة فأخرى، فأمّه التي كان يجب أن ترعاه وتُغدق عليه من حنان وحدب أمومتها، بدت أنانية وهي تولي الرعاية كلها لنفسها، فتُقدّم حاجاتها على ضروریاته، ولم تُهدر وقتها فسارعت للارتباط ثانية برجل ثري، وهو عندما يورد صفة الثراء يومئ بها إلى مقاصد أخرى كثيرة تُدين الأمّ وتُحمّلها مسؤولية البتر العاطفي الذي لم يبرأ منه بعد، فبذكر ثراء الزوج

---

[1] سعيد مقدم، منشورات رابطة كتاب الاختلاف، ط1، 2000، ص.23.

تتهاوى كلّ الحجج التي قد تُقدّمها الأمّ، ويكون سهلا عليها أن تصطحب الابن معها، ويعيشا معا في ظلّ يحجب توهّج الحاجة.

وعلى الرغم من هذه التفاسير كلها التي يصل إلى إقناع ذاته بها، إلاّ أنه يبقى لا يُضمر أيّ حقد، ولا يحسّ بأدنى كراهية تجاه هذه الأمّ، بل على العكس من ذلك، فحاجته إليها ملحّة، وحبّه لها حيا، لا يذكرها إلاّ ويضطرم حنينه وشوقه إليها، حتى وإن لم تحسن أن تكون أمّا له، فقد أحسن هو أن يكون ابنا لها، لأمّ عرفته وما عرفها.

لقد ورّثه فقره لأمّه تصرّفات منحته وهو يسلكها، جزءا من الإشباع الأمومي، فجدّ في تكرارها دون إمعان نظر، بعد أن أحسّ بأنها تُسهم في صوغ توازنه، وتسدّ الثغر العاطفي الذي فتحته الأمومة الهاربة والمتخفّية منه "أخرج كتابا ضخما من محفظته، وراح يقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى، كمن يبحث عن شيء معيّن، إلى أن استوقفته جملة مكتوبة ببنط عريض، ومؤطّرة في وسط الصفحة. لا توجد وسادة في العالم أنعم من حضن أمّي، ولا وردة أجمل من ثغرها الباسم. قرأ الجملة مرّة، اثنين، ثلاث"[1].

ويكون هذا دأبه بلا شعور منه، وبلهفة متناهية يتناول محفظته بفرح، يفتحها، يُخرج منها كتابا غليظا يأخذ بين يديه، وكمن عثر على كنز. يبدأ بتصفّح أوراقه، وتتبّع أوجهه، يُفتّش عن شيء ما معهود لديه. وفجأة يتوقّف وقد اصطدم بضالته عنوان واسع سميك يتموضع في عمق إحدى الصفحات، تقول عبارته الكون كلّه عاجز على أن يحوي منّة أعظم من حنان الأم، تستهويه العبارة، وتُخلّف بداخله كسرا شنيعا، منّة عاش عمره محروما من إدراك حقيقتها، وكنه طيبتها التي تحمل عن كاهل المهموم كلّ ما تراكم عليه، حتى يغدو بريئا وهو يتذوّق تلك الابتسامات الشافية التي تهمس (لا عليك يا صغيري، أنا هنا لأعينك على التخلّص من العبء الذي أعياك)، فيدفن رأسه في ينبوع حبّها، ينتعش ويتجدّد ولهه بالحياة.

وعندما يتفطّن إلى أنّ كلّ زمن إقامته في هذه الدنيا كان جفافا، وأنه ما كان يجدر به أن يحيا. ينطلق نواح ذاته عليه وتقضمه بعنف مشاعر الأسف والغضب والحسد والغيرة، فيتآكل ولا يجد البلسم المداوي إلاّ في تلك التركيبة، فيُعاود قراءتها ثلاث مرّات

---

[1] الرواية، ص.13.

متتابعة، وكأنه يأمل نسخها في فكره ليستعيدها متى شاء، وقد تكون القراءات الثلاث ليعرض على ذاكرته ما كانت قد اختزنته، فيتعرّف على مدى سلامته من الخطإ والنسيان.

فللعبارة عنده قداستها، منها يستلهم ما يُنير عيشه في يومه، فيُنجيه من التنغيص المرتقب، فهو يؤمن بأنّ هذه العبارة بمقدورها أن تصنع له صورة لأمّه، تُعوّضه غيابها الذي لم يتآلف معه لجهله بأبديّته، فبقي يترصّد رجوعها ويتوقّعه، فظهرت ثقته في هذا الاحتمال لا تُناقش لم يجر الأمر كما اشتهى وتمنّى، انكمش لا يلوي على شيء، ولكن وعلى الرغم من القمع الذي سُلّط على دخيلته إلاّ أنه لم يرتدع، فبمجرّد ما استجمع قواه تجدّد تفكيره في أمّه وامتدّ، ولاحت له ذكرى موقف كان قد مرّ به يوم اشترطت عليه صاحبة الشقة التي اتخذها عيادة، مبلغ ثمانية آلاف دينار شهريا، وعلّقت على هذه القيمة بأنها ثمن زهيد لا يُغطّي حتى مصاريف ما تستهلكه كلبتها فافا من اللحم أسبوعيا، فتطفر على تصوّره خاطرة مستهجنة "إنني لو وجدت من يتبنّاني ويُنفق علي ربع ما تُنفقه على فافا من لحم كلّ شهر لوافقت على الفور، وسوف لن أتردّد في حرق شهادتي الجامعية، شهادتي"[1].

حتى في حال قنوطه من تكرار المحاولات الفاشلة في إيجاد أمّه، وإخفاقه المحسوم في ترقّبها، لم يتورّع في المضي للبحث عن أمّ بديلة، وهو لأجل أن يظفر بأمنيته هاته، لا يجد أيّ خزي في أن يأخذ مكان الكلبة فافا، المهم أن يُحاط بالعناية ويُغدق عليه من الحنان الذي ترفل فيه. فكم تمنّى أن يعرض عليه مثل هذا الاقتراح الذي سيُبدي بإزائه الموافقة القبلية و؟؟ التي لا تطلب تفكيرا أو تردّدا، وسيتعهّد من جهته بأن تكون نفقاته أقلّ بكثير من تكاليف فافا.

ويظهر راضيا مطمئنّا وهو يصل إلى القمّة في استبشاعه لنفسه حينما يُنزلها فيُساويها ويُماهيها ظلما بالكلبة فافا، وقد يضعها في أحايين أخرى دونها ترتيبا.

سوء لا يكاد يراه مادام سيرتدي حلّة البنوّة، وسيأخذ جرعة من الحنان الذي لم يعرف له طعما طوال وجوده الذي مضى. إن تيقّن رجاؤه ووصل إلى مكانة الكلبة فافا فإنّ أوّل شيء سيعمد إلى تصحيحه هو إضرام النار في شهاداته الجامعية، تلك التي اختلست منه وقته وأبطلت جهده وأهدرت، وعلى مرأى منه، ما احتكم عليه من مال، تلك

---

[1] الرواية، ص.25.

التي حتى يفوز بها اعتنق كلّ مذهب، وتمذهب بكلّ معتقد، ظنّا منه بأنها ستنجح في سدّ تلك الفجوة لشعورية التي ما انفكّت تنفتح وتتوسّع منذ لفظتْه طبيعة الأمومة وألقت به دون اهتمام.

ولأنّ هذه الشهادة لم تُرمّم ما تصدّع فيه، فهو ما عاد يُريدها، فقد تبيّن طريقة أخيرا، وتعرّف إلى صورته الحقيقية التي بدت له قريبة كثيرا من صورة فافا أو هي نفسها، استحالة لم تُحزنه مطلقا، فحفل تأبين الذّات كان قد أقامه ودخل الحداد الذي لا ينفع معه حزن آخر.

حينها كان الوجع قد فعل فعلته فيه، فنحته شفافا حتى التلاشي، وضعيفا حتى الهشاشة، معمّقا حاجته إلى الأمّ المجهولة التي كان يراها في صورة كلّ امرأة يُصادفها.

"آه لو كانت هذه السيدة التي أراها أمامي هي والدتي لكنت أسعد مخلوق في الأرض. تمنّى لو أنه يرتمي في حضنها ويعيش للحظات كما لو أنه صدّق بأنه عثر على والدته"[1].

فالآه تفلت من بين أضلاعه لتفضح ما يتأجّج في صدره من المشاعر المتناقضة المتنافرة، والمتقاربة المنسجمة. مزيج مضطرب لا يمتزج حتى وهو يتحوّل إلى متنفّس يهمس به لنفسه حتى يُذهب عنها بعضا من حسراتها المكتومة، فيزعم لها بأنّ المعجزة قد حدثت، وأنه قد لقي أمّه التي يتخيّلها في المرأة التي كانت تزور عيادته، وراح هكذا يتوهّم بأنه قد ارتاح من هاجس البحث عنها، وأنه أخيرا سيزفر الصعداء، وستهبط السكينة عليه، فيحلّ الأمان في حياته مكان التيه، ويحسّ ما حُرم عليه ردحا من زمنه الذي لم يكن يره إلاّ مزيّفا.

ويُمعن خياله في التحليق فيقترب من المرأة ويُلقي بذاته الشقيّة بين ذراعيها ليعيش ولو لبرهة نشوة الوجد الأمومي الذي طلبه غاية، وارتقبه هدفا، فتمنّى من تخيّله أن يُصدّقه، فتموت أوزاره وتنطفئ آلامه التي محت كلّ معنى لحياته.

فالحياة عنده لا تملك إلاّ مرادفا واحدا هو الأمّ، ولمّا كانت هذه غائبة سقط عنده معنى أن يكون. وظلّ على هذه الحال يمتطي صهوة الخيال الذي زيّن له الرجاءات، واستجلب له من الآمال ما أعماه عن إدراك الحقيقة التي لم تُخفه خبر أنه لم يلتق أمّه، ولم

---

[1] الرواية، ص.23.

تتعرّف عليه، ولم تسمعه، وهو يهذي به، ولم تأخذه في حضنها، وأنّ كلّ ما أحسّه إنما كان سرابا.

وعلى الرغم من هذا يظهر غير آبه بهذا اليقين ومرتاح ؟؟، يتبعه ب؟؟، فيحكم على ذاته بأن لا يُغادرها، وهمّها الذي استطابته، فلم يعد بمقدورها استساغة غيرة.

وصار كلما أحسّ منه هروبا تأبّطه وصعد به ليوصله إلى حدود الذروة حيث اختار البقاء منخدعا، مادام هذا الخداع يصنع منه إنسانا لا مختلفا له أم هو أيضا.

وقرّر الإسراع في تقمّص دور الابن ليكتشف كيف هو شعور الأمّهات نحو أبنائهن، وبدت له السيّدة التي تجلس في مكتبه تصلح لذلك، فسنّها يُقارب سنّ أمّه التي لم تتذكّره يوما بإشعار، يقول أنها مازالت تحيا.

وقبل أن تُغادر مكتبه، وهبت له الظروف فرصة أن يكون ابنا، ولو لمرّة، فقد دوّى في الشارع انفجار مهول، أعقبته انفجارات أخرى رهيبة. هاله الصوت فدنا من النافذة ليصدمه المشهد، نار ودخّان وبكاء وصراخ وعويل، جثث متناثرة في كلّ مكان، وأناس يهربون صوب كلّ الاتّجاهات، وأبواق سيّارات الإسعاف تصمّ الآذان. لوحة متحرّكة للرعب والموت "حاول أن ينطق بكلمة ولكنّ الدّموع سبقته ولم يشعرإلاّ وهو يرتمي بنفسه بين أحضان أمّ الخير، وسرعان ما شعر بدفء الأمومة وتمنّى لو أنّ المشهد يطول"[1].

إنّ منظر الدّمار أفقده القدرة على الكلام، جاهد نفسه ليقول شيئا ولكنّ الكلمة تأبت عليه وأبت أن تجري على لسانه، فكانت الدّموع أسبق، أجهش باكيا وهو يلتفت من حوله فلا يعثر على من يهون عليه، فينحسر وقد تملّكته الوحدة، فيصرخ في عمقه بكلّ ما تبقّى له من قوّة، معترفا بأنه بحاجة لمن يكون معه ليُخفّف عنه فداحة ما تناهى إلى بصره.

وأظلمت في عينيه كلّ المناحي، وفجأة يتصوّر له بصيص من نور انبعث من تلك السّيدة التي تجلس بقرب مكتبه، لم يملك نفسه، جرى نحوها ليستلقي في حضنها، فشعر بالدفء يجيئه سريعا، تحرّكت أوصاله المتجمّدة، فعرف لأوّل مرّة كيف تنبض الأمومة، وكيف تحيا، وكيف تجود بالأمان، وتسخو بالرّاحة الأمومة التي خسر قسما من حياته يعدو وراء صداها يحسب النهارات الطويلة ويتصبّر الليالي التي كانت تتمطّى في سبيل أن يُحرزها.

---

[1] الرواية، ص.26.

وكم تآخى مع ذلك الدفء وأرعبته فكرة تضييعه، فتمنّت أنانيته أن يستمرّ مشهد الموت وتتعدّد ألوانه، وتتشعّب ظلاله، حتى يدوم تنعّمه بدفقه هذه الأمومة التي التصق بها واستسلم لها في طواعية يحتسي ويستزيد ويبغي أن تظلّ تُصاحبه وتُواسيه فيما يشغل كينونته، وهكذا ينجح في تحريض الأمومة على تمثّل البنوّة التي تصطنع لحظة مهادنة تقفز بها فوق غربتها التي شرّدتها وطرحت بها إلى مسافات نائية.

بنوّة سئمت الانتظار الأعجف لهدهدة صدر الأمومة، حلم كان ينبت في كلّ تمدّها فتُربكها، ويلتبس عليها، هل تُواصل السير أم تتوقّف؟، وهي في كلتا الحالتين تحمل حزنها قيدا لا يُفت، وتركب كآبتها موجا لا يهدأ، ويتناوب عليها هكذا القمر الممزّق والرّقة القاسية، فيتسرّب منها معنى الحياة فلا تجده.

الشخصية السيكوباثية بالاكتساب (العقيمة):

أ) الزلزال:

في رواية الزلزال تُدهشنا شخصية عبد الحميد بولرواح، وهي شخصية عقيمة، وكلّ شذوذها إنما لحقها من هذه العاهة التكوينية. فعندما يصدر قانون التصحيح الزراعي الذي يُملّك الأرض لمن يخدمها، يخاف أن تُصادر منه أراضيه التي جاوزت ثلاثة آلاف هكتار، ولأنه لا أبناء لديه يُورّثهم هذه الأراضي حتى لا يشملها الإصلاح.

اهتدى إلى طريقة يتحايل بها على القانون ويُحافظ على أملاكه، وهي أن يكتبها بأسماء أقربائه القاطنين بقسنطينة، والذين كان قد قطع كلّ صلة له بهم منذ استوطن العاصمة، فراح يُسابق الزمن متوجّها إليهم ليُنفّذ فكرته ويُنجّي أراضيه، فلا يمسّها سوء.

وما أن يصل إلى هناك حتى يعود إلى ذاكرته يتفقّدها ويبدأ في عرض كلّ الحوادث التي مرّت به في حياته، فيتذكّر كيف اكتشف عاهة عقمه، عقدته المزمنة التي لم يبرئ من عذابها، ويظهر وهو يجترّ الذكرى ويسردها على نفسه. فبعد خمس سنوات من زواجه الثاني، تُعلمه زوجته "أنّ شيئا يتحرّك في بطنها. فرحتْ كثيرا إلاّ أنها بعد أسبوع اختفتْ. انقطع أثرها سنوات، ثم بلغني أنها في فرنسا مع ابن عمّها ووالد ابنها الحقيقي"[1].

لم يُخف فرحته بالابن الذي سيجيء، فلطالما انتظر أن يكون أبا، إلاّ أنّ غريزة الأبوّة فيه لم تدم نشوتها إلاّ بعض الأيّام. فقد حرمت زوجته بعدها متاعها وهربت من البيت لتتركه يضرب الأخماس في الأسداس، ويورد كلّ الاحتمالات دون أن يهتد إلى أصحّها، فبقى مبهوتا لا يعرف إلى من يلجأ ولا إلى أن يتّجه، وعلى الرغم من ذلك فقد بحث عنها في كلّ مكان، وتحرّى موقعها عند كلّ من يأمل أنه قد يكشف له عن الخيط الذي يُرشده إليها.

---

[1] الطاهر وطار، ؟؟، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1976، ص.179.

واستمرّ على هذا الحال يتقفّى أثرها ولكن ما من نتيجة، وبقي الاستفهام ينخره. لماذا هربتْ وإلى أين؟. وحيرته تتوسّع عندما لا تلق الجواب، وسخطه عليها يشتدّ كلما تذكّر أنها غادرته وهي تحمل في أحشائها ابنه، ويُولّد الاستفهام استفهامات أخرى. لماذا فعلتْ به هذا؟، لماذا حرمته من ابنه؟، حرمته من أن يُمسكه بين يديه ويأخذه في حضنه، وينعم بحلاوة الأبوّة التي انتظرها بلهفة. وبقي هكذا يعيش آمالا، مترقّبا رجوعها في كلّ لحظة، وفي كلّ يوم.

ومرّت السنوات ولم تأت، وإنما وصل خبر عنها مفجع أطلعه على عاهته وأوقفه على دائه الذي كان جاهلا له، فزوجته "كانت تخونه مع ابن عمّها، وعندما شعرت بالحمل، هجرته إلى فرنسا لأنها كانت تعرف أنّ من في بطنها ليس ابنه هو، إنما ابن الآخر، فهو عاقر لا يلد"[1].

وهكذا وبعد عدّة سنوات يفكّ اللغز العويص، فالابن إذن لم يكن ابنه، فهو عاجز على أن يكون له ولد من صلبه لأنه عقيم، ويصعقه الاستنتاج، فقد كانت زوجته قد صارحته أكثر من مرّة بأنها ترغب في أن يكون لها ولد، وعندما تأكّد لها أنه غير قادر على أن يمنحها إيّاه، راحت تجنيه من صلب آخر، ابن عمّها الذي أمّن لها ما كانت تطلبه، فاستحقّ بذلك أن تهرب معه، مضحّية بكلّ شيء، وتُصبح بهذا عودتها ثانية إليه من ضرب المستحيل. فسيطرت عليه الوحدة، وهدمت كلّ أمانيه التي كان قد شيّدها على إدراكه لذاك الولد، ولم يتبقّ له ما يفرح به.

وتطلّع إلى صورته فرأى نفسه منبوذا بل مستغفلا ومخدوعا، فنما بداخله مقت لذاته، واستغلظ انتقامه لكلّ من هم حوله. وعلى الرغم من أنه تيقّن من آفته إلاّ أنّ همسا بداخله كان يُشكّكه في تلك الحقيقة، ويزعم له بأنه سليم لا يُعاني شيئا، وأنّ الخلل إنما هو في زوجته الخائنة. وعلى هذا الأساس قرّر العودة إلى الريف حيث أراضيه ومزارعه ليرتاح وينسى ما حصل له. وهناك يقوده حسّه الانتقامي فيختطف زوجة أحد خمّاسيه وابنته ويسجنهما عنده في البيت، وترقّب أن تحمل منه زوجة الخمّاس، وعندما لم يحدث

---

[1] مصطفى ناسي، دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص.47.

ما كان يتوقّعه ويحلم به، انقضّ عليها في إحدى الليالي وكتم أنفاسها "في الصّباح وجدتها مزرورقة وفي عنقها آثار أصابع"[1].

وهو يذكر هذه الحادثة، يوردها خبرا بعيدا عنه وكأنه لا يعنيه، يسرد الواقعة ببرود مذهل، يُعطي الانطباع بأنه يجهل ما حدث، وأنه استيقظ في الصّباح ليُفاجأ بها ميّتة، وأنه عندما عاين جثّتها اكتشف على رقبتها آثار ضغط يدين سبّبتا لها الاختناق.

وهذا ما يؤكّد أنّ بولرواح وهو يقوم بجريمته هاته، كانت ذاته منفصمة، ووعيه نائما، ممّا سمح لعقله الباطن وما يختبئ فيه من شرور أن يتحرّك بكلّ حرّيته، فيُنهي زوجة الخمّاس عقابا لها لأنها لم تقبل أن تُحقّق له مبتغاه في الولد الذي يتمنّاه بعد أن أحسّ بضآلة شأنه الذي يجعله أحقر من الخمّاس الذي لم يُبخس حقّه وفاز بالخلَف.

فبولرواح يقترف آثامه في الليل ولا يكتشفها إلى في صباح اليوم الموالي عندما يصحو وعيه ويرى الأوزار من حوله، فلا يملك لها تفسيرا أو أنه يُعطيها كلّ التفاسير التي تُجمع على أنه بريء.

وهكذا وبعد أن يُصفّي الأمّ يعود بالبنت إلى قسنطينة، حيث يتزوّجها لتلقى بعد مدّة نفس مصير أمّها بعد أ يعلم بولرواح أنها تنوي منحه الولد المأمول من رجل غيره.

وتظهر الرّوح الإجرامية متأصّلة في بولرواح وممتدّة، تُعاوده كلما شعر بدونيّته. هي وسيلة واحدة يتّخذها للقضاء على الآخر، ففي حياته المبكّرة أنهى بنفس طريقة الخنق زوجة أبيه التي كان يُعاشرها، فعلة ثأر بها لزوجته الأولى الشّابة التي كان قد خلّفها بعده وهو يُغادر إلى تونس للدّراسة، فاستفرد بها أبوه وقتلها خنقا. أمر عرفه بولرواح بعد عودته من إحدى زوجات أبيه الكثيرات، ويكون بهذا بولرواح قد ورث آثام أبيه، فحافظ عليها وكرّرها.

ويُهلوسه عقمه وتنعكس تداعياته على تفكيره وسلوكاته، فيظهر وقد سيطر عليه الخلط واللامنطق، وتصرّف فيه مرضه فصار لا ينفعه علاج، وارتفع صوته ليفضح الخبيئ لديه.

---

[1] الرواية، ص.181.

"فكّرتُ أن أتزوّج سبع نساء دفعة واحدة، كلّ واحدة بخادم. فكّرتُ أن أتزوّج عشرين امرأة، وأن أزوّج كلّ واحدة بسبعة رجال. فكّرتُ أن أشتري مائة طفل. فكّرتُ أن أتحوّل إلى امرأة، أم أتزوّج مليون رجل، وألد مليون طفل"[1].

إمكانيات منكودة يهتدي إليها تُنبّئ عن تشويش مخيف فيه، وعقدة ضعف متحكّمة تجعله ينسلخ عن كلّ مواقفه السّالفة، وينفض عنه كلّ أفكاره السّابقة، ويتناسى أنه قد مقت زوجته الثانية لأنها خانته، ووصل إلى قتل الرّابعة لأنه راوده الشّكّ في أنها تُفكّر في خيانته، ولكن هاهو الآن بعد أن سلّم بدائه وأيقن أنه حتى وإن ارتبط بنساء الدّنيا كلهن، لن يظفر بالولد. لا يخجل من تفكيره وهو يقوده إلى تأمين طرق الخيانة لزوجاته، بل والوقوف على المضي فيها وتجسيدها لأنها الوحيدة التي أعطته الإجابة الحلّ على تساؤله الذي أعياه "ماذا يفعل ليكون أبا؟".

حلّ يكره بولرواح ويحمله إلى الارتداد ضدّ ذاته فيُشهر "معاناته الاجتماعية ومراهقته الفكرية وبؤسه الرّوحي"[2]، في وجه رجولته التي لم تُتح له أن يتعمّم الأبوّة.

ويبدأ وفق هذا في الترتيب لاقتناص الأبوّة من إحدى السّبل الأربعة التي خلص إليها، وباشر بغرض الأوّل وهو أن يتزوّج بسبع نساء مرّة واحدة ويضع تحت تصرّف كلّ واحدة منهن خادما أمينا تُسند إليه مهمّة إعطائها أو إعطائه الخلَف، فيُصبح بأبسط الطّرق الحسابية أبا لسبعة أطفال. وفي السّبيل الثاني يجد نفسه يرتبط بعشرين امرأة في نفس الآن، ويُقدّم كلّ واحدة منهن إلى سبع رجال، يضمن بهم جازما أن يُناديه "أبي" مائة وأربعين صغيرا، نتيجة أبهجت بولرواح قبل أن ينتبه إلى أنه أخطأ في حقّ ذكورته ونال منها بكثير من السّوء وهو يُوردها هذين الحلّين، فيستدرك أمره، ويرى أنه يكفيه أن يقتني مائة طفل جاهز، فهو يمتلك من المال ما يُمكّنه من بيع أبوّته مائة مرّة.

ويُقلّب بولرواح حلوله الثلاثة فيُفاجأ بها عقيمة مثله، فلا يستأمنها على الأبوّة التي كَهَدَتْهُ، ويبسط الحلّ الأخير ليُكفّر به عمّا سبق، وهو أن يحور نفسه فيستحيل امرأة وقد شُفي من علّته، فيتزوّج بمليون رجل سليم، ويُنجب من كلّ واحد طفلا، فيفوز بمليون ولد، يُشبع بهم شراهته للنّسل، وليس مهمّا أن تُصبح الأبوّة عنده هي الأمومة.

---

[1] الرواية، ص.183.

[2] عبد السلام محمد الشاذلي، لمثقف في الرواية العربية الحديثة (1882–1952)، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، ط1985، ص.404.

ويُنفّذ بولرواح جزءا من أفكاره هاته، فيتزوّج بامرأتين في آن واحد، ولكن سرعان ما تضجران من طباعه ومعاملته الشّاذة لهما فتهربان منه وتُرغمانه على الطّلاق.

وبعد فترة يلتقي بامرأة يهودية عاقر مثله، يتزوّجها بعد أن يتّفقا على فكرة تبنّي الولد. ويتمكّن الخلاف من علاقتهما بعد أن تُعلن له اليهودية أنها تُفضّل أن تتبنّى طفلا يهوديا، فيُعارضها هو ويصرّ على أنه لن يتبنّى إلاّ طفلا مسلما، فيشتدّ اللاانسجام بينهما ويتعمّق التناقض بإزاء هذا الموضوع فتُطلّقه.

وصار منذ ذاك الوقت كلما ذكرها خفق قلبه ندما وتأسّفا على أنه لم يُجارها فيما كانت تهوى فعله "أبكيك يا سارة. أبكي الولد الذي لم تُدخلي منزلي، يهوديّا كان أو نصرانيا أو مسلما. أبكيكما معا"[1].

يرجع بولرواح إلى ما مضى من الزمن بانكسار، فلا يملك إلاّ أن يُعنّف وبحدّة تفكيره المتحجّر الذي أضاع منه حلمها الأوحد فلم يُحقّقه.

ويفتح على نفسه باب المحاكمة التي لا تعرف إلاّ سياطا واحد هو "لماذا". لماذا صمّم على رأيه في تبنّي طفل مسلم؟. لماذا لم يتفهّم زوجته اليهودية؟. ما الضير لو أنه وافقها على تبنّي الطفل اليهودي؟. ثمّ هل هناك طفل يهودي وطفل نصراني وآخر مسلم؟، أليس الأطفال أطفالا وكفى!.

لماذا تعنّت ولم يُدرك الأبوّة التي كان يسمعها في كلّ لحظة تستصرخه، ويرتفع نواح بولرواح حتى يصير عويلا على الطفل الذي أعدمه من قبل أن يراه يدخل بيته، ويشتدّ نحيبه أيضا على سارة التي كانت تُشبهه فأرادت الولد مثله وسعت له في أن ينعم بالأبوّة، ولكنّ تمسّكه بمبدئه الواهي أوقعه في زلّة استمرّ يدفع ثمنها كلّ حياته الباقية. لماذا كان متهوّرا؟، ألم يكن بإمكانه أن يتبنّى ولدا يهوديّا ثمّ يحلّ المسألة بالنّاتج الذي يرضاه!، هل كان سيصعب عليه هذا الأمر وهو تلميذ الزيتونة؟.

ولا تنقطع شخصية بولرواح عن رثاء حالها وهي تُحذّق في ماضيها الذي "تعتمد عليه اعتمادا كلّيا في تداعياتها وأحلام يقظتها" [2]. فصورة الطفل الذي صبا إليه لاتن تزوره في غفوته وصحوته، يحسّه بين يديه صغيرا بريئا، يراه جميلا مبتسما ضاحكا،

---

[1] الرواية، ص.185.

[2] بشير بويجرة، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، 1970–1986، دار الغرب للنشر والتوزيع، ج2، ط2001–2002، ص.48.

ويسمعه يُناغيه ويُناديه أبي فتتمثّل له أبوّته في طفل يُصادفه لحظتها. نسي كلّ ما تعلّمه في الزيتونة، سُرقت منه كلّ العبارات بمفرداتها وحروفها، ولم يعد يحفظ سوى حرف التمنّي الذي أخذ يُقايضه وهو يشخص إلى هذا الطفل الذي لم يسبق له وأن عرفه "لو كان ولدي لألبسته الدمسق والدّيباج ولأسكنته السّرايا ولزوّجته بسبع نساء وعشرين جارية، ووهبته الأرض فلا تطمع فيها الحكومة"[1].

إذا لم يتسنّ لبولرواح أن يمتلك الأبوّة في الحقيقة فما يمنعه عنها في أحلامه، واقتنع بالفكرة وهو يشدّ على يد طفله المتوهّم ويتجوّل به في كلّ مكان. ويبدو فرح بولرواح وهو يتمتّع بهذه الأبوّة فيحنو ويعطف على صغيره ولا يبخل عليه بشيء أبدا مهما بهظ ثمنه، فيضع بين يديه كلّ ما يطلبه وما لا يطلبه، ويبقى بولرواح يُدلّل ابنه ويحدب عليه ويُراقبه برضى متناهي وهو يشتدّ عوده، فيبني له بيتا يُضاهي القصر، فهو مقتدر ويتوجّب عليه أن يُسخّر ماله كلّه لأجل إسعاد ابنه الوحيد.

ولا يشعر بولرواح بالزمن إلاّ وابنه المتوهّم قد كبر وحان له أن أن يُزوّجه، فيختار له سبع نساء مرّة واحدة، ويُضيف عليهن عشرين آمة ليكنّ في خدمة ابنه ورهن بنانه، فهو لا يسمح بأن يُحرم ابنه من الولد فيُعاني مثله.

زيجة كهاته يضمن بها بولرواح أن يصير جدّا بسرعة ويعيش وهو محفوف بأحفاد كثر، فتخمد شهوته للنّسل ويطمئنّ على ماله وأراضيه التي لا يُمكن أن تؤول إلاّ لابنه وأحفاده، فلا تطال الدّولة منها شيئا.

وهكذا يُوفّر على نفسه هذا السّفر الذي تجشّمه من العاصمة إلى قسنطينة ليُنقّب على أقاربه لإنقاذ ثروته التي بات مرغما على تقديمها سهلة للدّولة.

ويستيقظ بولرواح من حلمه ويُدرك أنّ ما هو فيه ليس سوى أضغاث أحلام، فيتنهّد مهوّنا على ذاته أن ليس كلّ ما نتمنّاه نبلغه، ويُدوّي في سمعه صوت يائس يقول له أنت مظلوم يا بولرواح، فيستشيط حقدا ويلفظ حممه على النّساء وناره على الأطفال لأنهم يُذكّروه بعقمه ويؤلّبون عليه المواجع التي تأبى السّكون "بقرات إبليس لا يليق لهنّ إلاّ

---

[1] الرواية، ص.62.

الكهوف والمغاوير. الأطفال هنا كثيرون كثيرون جدّا كالجراد. يا نسل السّوء، يا بذور الشّر، سلّط الله عليكم وباء الطّاعون"[1].

؟؟ هنا بولرواح بكرهه للمرأة التي كانت كلّ ارتباطاته بها فاشلة، فالمرأة هي التي اتّهمته بالعقم وأثبتته عليه، إصرا لم يقدر يوما على هزمه. فصار ذهنه لا يستحضر صورتها إلاّ ممسوخة تقترب في كينونتها من الحيوان في افتراسه وتوحّشه.

ويعضّ بولرواح على أنامله ندما على أنه استأمنها فسلّمها ذاته طوعا، وملّكها أمواله وضياعه راضيا، وأنزلها قصوره وهي التي لا تستحقّ إلاّ أن تأويها الكهوف والمغاوير مثل الذّئاب والخفافيش، فيحكم عليها فيها بالظلمة الأبدية، فيسلب منها نور الحية، وتمكث هناك ذليلة، مهانة، مداسة الجانب.

وتشتدّ الحسرة ببولرواح فينعت نفسه بالخب الذي لم يقدر أن يتفادى شركها، فوقع فيه وهو يسبغ عليها ألوانا من النّعائم وأنواعا من الرّغد، وبدل أن تردّ له الجميل على ما أسداه إليها من سخاء كريم، راحت تُعاقبه بالجحود ونكران الإحسان، فأشهرت مديّة الخيانة في وجهه، فتفنّنت ببراعة في تقطيع أوصاله والتمثيل بجسده، مستلذّة منظر دمه النّازف دون توقّف.

وعلى الرّغم من أنّ بولرواح جاهد في تضميد ورتق جراحاته المتفتّحة إلاّ أنّ شفاءه بقي مطلبا عزيزا لأنّ التشوّه كان قد بلغ منه مبتغاه، فانزوى يجترّ ما كان، ويئنّ من آلامه، عاجزا على تجاوز حالته.

ويرجع بولرواح إلى راهنه يُقلّب بصره فيه فيُدهشه عدد الأطفال من حوله وهم يملئون كلّ مكان، فيراهم يُشبهون الجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس، فيسدّ كلّ معنى للحياة، فيكونون مصدر كلّ خراب يلحق بالعالم، وتنفضح طريّة بولرواح المشتعلة حسدا وغيرة وقنوطا لتقول أكلّ هؤلاء الأطفال الذين تعجّ بهم الدّنيا وأنا محروم من طفل واحد ظلت أنشده، فضاعت السّبل بيني وبينه فلم أصل إليه ولم يصل إلي، ؟؟ كلّ حياتي.

ويفور إحساسه المركّب ويتحوّل إلى رغبة جامحة في الشّروع في العدوانية والانتقام من هؤلاء الأطفال جميعا، ويتفرّس ذاته فيجدها عزلاء لا تمتلك الوسيلة لذلك، فيجنح نحو أضعف الإيمان وهو الدّعاء عليهم وعلى آبائهم وأمّهاتهم، فيتضرّع إلى الوليّ

---

[1] الرواية، ص.115–116.

الصّالح سيدي مسيد طالبا منه أن يُنهيهم جميعا بأن يُسلّط عليهم "طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل"[1].

فالوليّ الصّالح سيدي مسيد في نظر بولرواح يمتلك نفس تلك القدرة الإلهية التي عاقبت أبرهة وجيشه الزّاحف لهدم الكعبة الشريفة، ولذا فهو يستصرخ هذا الوليّ الصّالح، هاربا إليه حتى ينصره على هؤلاء الذين لا يراهم إلاّ كفّارا، حُسم أمر حربهم وتحتّم القضاء عليهم. ولمّا كان سيدي مسيد قادرا كلّ القدرة على ذلك فهو يترجّاه بأن يُسلّط عليهم من عذابه طيرا أبابيل تضربهم بحجارة تتوهّج نارا فلا ينجو منهم أحد، ولا يبقى إلاّ هو وبعض الصّالحين الذين هو منهم.

ويعتقد بولرواح بهذه الفكرة فهو في نظر نفسه الرّجل الصّالح المصلح، وهو الأولى بالمكوث على هذه الأرض، والآخر هو الفاسد المفسد الذي لا يُمكن للحياة أن تستقيم بوجوده.

ويُصبح بهذا بولرواح العبد الصّالح الذي يستحقّ أن يرث الأرض وكأنه في دخيلته يومئ إلى ألآية الكريمة، بعد بسم الله الرحمن الرحيم "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون"[2]. وهكذا يظهر ما يُخفيه من "عقلية دينية متخلّفة"[3].

وهذا حال بولرواح كلما زادت جذوة الانتقامية عنده احتراقا، وشلّه عجزه ومنع عنه القوّة التي يُدمّر بها من يراهم لا يمتّون إلى الصّالحين بعلاقة. هرول ليُمسك بأذيال الدين، فيرتاح واهما ويهدأ زاعما بأنه أحقّ بوراثة الأرض التي سيخلفها نسله الصّالح من بعده، وعندما يصل بولرواح إلى هذه النتيجة ينكمش متذكّرا عقمه وما جرّه عليه من تعاسة في عيشه، هذا العقم اللّعين الذي أجبره على أن يُقارع الوقت فيُغادر العاصمة في رحلة مصيرية نحو قسنطينة لينجو بأمواله وأملاكه، فلا يُرديه الإفلاس.

ب) بيت الحمراء:

ويتتبّع محمد مفلاح الحركية السّلوكية للشخصية العقيمة التي أسماها سليمان السّواق الذي يُطلّق زوجته التي عاش معها عشرين سنة، حمّلها فيها تبعة عدم الإنجاب

---

[1] الرواية، ص.47.

[2] سورة الأنبياء، الآية: 105.

[3] محمد مصايف، الرواية العربية الحديثة بين الوقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص.62.

ليرتبط بعدها بأرملة أخيه المتوفّى، ولكنه لا يلبث إلاّ قليلا يُبدي ندمه على هذا الزّواج عندما عجزت هي الأخرى في نظره، فلم تمنحه الولد الذي يتطلّع إليه.

وحتى ينفي عيب العقم عن نفسه ذهب يُشيع بأنه تزوّجها وهي في سنّ اليأس. وعندما ؟؟ له الزّواج بثالثة، صار دائم الثورة عليها ولأتفه الأسباب، يختلق لها الحجج ليُعاملها بكثير من القسوة والإذلال، فكان خطابه إليها لا ينمّ إلاّ عن ضيق وتذمّر منها "ماذا تُريدين مني؟. تزوّجتك وخسرت كلّ شيء. منذ أن التقيت بك وأنا في الهمّ والتّعاسة. إن كنت ترغبين في موتي هاأنذا أمامك، تعالي تعالي أيّتها الأفعى لتلدغي القلب اللّعين. منظرك يُذكّرني بالموت. افعلي مثل النّساء، البسي وتزيّني. أمازلت حزينة على محمود؟"[1].

وتخرج مكنوناته الاتّهامية لتُشير إليها بأنها هي من كرّس خسارته التي تعني في وعيه حرمانه من الولد الذي كلّفه انتظاره له وجعا لم يحتمله، ولم يعثر على حلّ يعتقه منه إلاّ الاستغناء عن زوجته الأولى والارتباط بها. هي أرملة أخيه التي عقد عليها آمالا لا تبطل، وثبت في ذهنه أنها قادرة على أن تُحوّله إلى أب فتُعوّضه بذلك الوقت الضّائع الذي تسرّب منه فيتعافى بذلك من ألمه، ولكنّ تخمينه لا يصدقه فيدخل في دوّامة من اليأس تظلّ تدور به حتى تُسقطه مغشيّا عليه، وعندما يستفيق ويعود إلى وعيه ثانية يصرخ في وجهها ماذا تبغين مني؟.ى ولا ينتظر ردّها لأنّ سؤاله هذا يحمل ضمنيا إجابته التي تقول ابتعدي عني ولا تُطالبيني بشيء ولا تنتظري مني شيئا مادمت لم تُعطني ما كنت أريده منك وهو الولد.

ويُعطي سؤاله إلى جانب الإجابة الحلّ وهو التخلّي عنها باستبدالها بأخرى لا تُكرّر خسارته لأنّ استمراره معها سيكون فيه موته المعنوي الذي يحرمه من رؤية من سيحمل اسمه من بعده. وتُفزعه فكرة أن يعيش مغمورا ويموت مجهولا، فيستلّ نفسه من مزمنة العقم ويُلصقها بزوجته التي تتصوّر له أفعى فيدعوها لأن تلسعه على غفلة منه فيكون بذلك موته المادّي الذي يُحقّق له الرّاحة من موته المعنوي الذي يُقاسيه كلّ وقت.

---

[1] بيت الحمراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.87.

ويتذكّر أخاه المتوفّى وهو يُحذّق إليها فيوحي إليه منظرها بالموت، فيُعنّفها لأنها لا تهتمّ بنفسها لأجله، فهي لم تتزيّن ولم تتبهرج له يوما وكأنها مازالت في حداد على زوجها الأوّل أخوه، فيتدفّق غيرة منه وهو يحسّ بأنه أقلّ قيمة منه إلى نفسها.

ويُشقّيه الأرق فيبيت لياليه متيقّظا، لا يجد ما يفعله سوى النظر وبحسد إلى زوجته المستلقية إلى جانبه، لم تُفارقها نعمة النوم، فينطق يُخاطبها "نامي أيّتها البغلة، لم اقترنت بك؟. طمعا في بيت أخي وهربا من زوجتي البغلة الأولى. وأنت أيتها الأفعى لما رضيت بزواجنا؟ نامي حتى الموت يا لعينة"[1].

وهكذا يُترجم ضيقه بوجوده معها فينبري يشتمها وينعتها بالبغلة التي لا تصلح إلاّ لفعل الأكل والنوم والسّخرة، البغلة التي تجهل شأن أن تُصبح أمّا.

ويؤنّب نفسه وبحسرة يُحاول أن يُبرّر ارتباطها بها فيعترف أنه طمع في الاستيلاء على بيت أخيه بعد موته حتى لا يؤول لرجل آخر لأنه أولى بإرث أخيه من غيره. وينتبه فيراه سببا غير كاف فيُضيف إليه ذريعة أخرى جرّته إلى هذا الزّواج، وهي حاجته للتملّص من زوجته الأولى التي يصفها بالبغلة هي الأخرى لأنها لم تعرف هي أيضا كيف تُهديه النّسل.

فتغدو هذه التّسمية أو هذا السّبّ لديه طريقة يغسل بها علّته المستحكمة ليُلطّخ بها زوجته، ولم يتفطّن إلى أنّ ما يفعله إنما هو إدانة علانية له تُخبر أنّ الدرن علق به لأنّ اتّهامه تجاوز الزّوجة الأولى ليطال الثانية، ويتأكّد له أنه لم يصل إلى إقناع ذاته بعكس المسلّمة التي أضحت مألوفة، فيرجع ويُدين زوجته الثانية بالغدر والخيانة ويُوبّخها على أنها رضيت به زوجا، وأنه كان يجدر بها أن تردّه فلا تُوافقه على رغبته في هذا الزّواج.

وبهذا يُحاول بكلّ الحيل نفي كلّ مسؤولية له فيما حدث، وكأنّ الأمور وقعت في غيابه ودون سعي وتخطيط منه. وعندما تتكسّر كلّ أدواته تختلج في نبضه أمنية أن يبيت ويُصبح وقد تخلّص منها، فيدعو عليها بأن يختطفها الموت زمن نومها أو أن تلحقها لعنة ما تسبّبت له فيه من معاناة، فيعيش فرحة الفكاك منها.

وفي انتظار هذا الأمل يبقى يتلذّذ في استصغارها وإهانتها، وينتبه إليها فيراها مازالت تغطّ في نومها فيُقرّر أن لا يدعها تهنئ بنومها، يُقرّر أن يُفزعها فيلكزها برجله

---

[1] الرواية، ص.85.

بعنف ويأمرها بالنّهوض لتُحضّر له قهوة، ولمّا تُجيبه أنّ وقت القهوة لم يحن بعد يردّ بلهجة صارمة "قلت لك القهوة يعني القهوة، ولا كلمة"[1].

وتكون هذه المعاملة شكلا تنفّسيّا يُصاحبها تحرّش عمدي بالآخر كلون من إثبات الذات القاصر، فهو على الرغم من يقينه المكتوم بحقيقة عقمه إلاّ أنه لا يُريده أن يُعلم، فيغيّب رجولته التي يُريدها حاضرة وهي تتغاضى عن عاهتها فتظهر كاملة لا يعيبها شيء، فيظلّ هو الرّجولة الآمرة النّاهية التي لا يُرفض لها طلب مهما كان، ثمّ هو يستعمل عبارة "ولا كلمة" ليقفل بها مجال الحوار ومساحة المناقشة في أمر قد حسمه، وما عليه هي إلاّ أن تُنفّذ ما طلب منها دون أن تنبس بحرف واحد.

إنّ الرّجولة المنتقصة تبغي من وراء هذه المضايقات المصنوعة إحداث ما يُسمّى بالإضجار الاستسلامي لدى الآخر، الذي حين وقوع الضرر المتكرّر والمتعدّد عليه يخرج وهو يحمل جملة من عروض التنازل التي تكون حلاّ لِما يعيشه بعد أن يحسّ وبصورة عكسية بعقدة الذّنب التي بيده وحده فرطها، فيُغادر المكان في صمت فاسحا للآخر حرّيّة التصرّف فيما يبقى له من فسحة حياتية، فيُجسّد ما يرومه.

وهكذا توصل العلاقة الجافّة اللامنطقية إلى استحداث الحلّ، ولكنّ الذي حدث مع سليمان السّواق كان نقيض المشهد تماما، فقد ظلّت زوجته الثانية تتحمّل بصبر مرّة، وبتجاهل ولامبالاة مرّة أخرى، كلّ عمليّاته الاحتقارية وحركاته الازدرائية ممّا زاد من تورّم عقدته إلى أن ضجّ ذات يوم صارخا ساخطا لأنها تفوّقت عليه دون صخب ومن غير جلبة. كانت تُرغمه على تذكّر سقمه المستقرّ في صلبه وهي تنصاع لِما يُريد دونما اعتراض، فيُفسّر رسائلها هاته إليه التي لم تكن تحمل إلاّ عبارة واحدة تقول مسكين صَعُبَ عليه تحمّل مرضه. وأعجزه الردّ على العبارة فتوجّه نحو السّماء سائلا "يا ربّ يا ربّ فكّ سراحي من هذا البيت. ارحمني، ارفق بي"[2].

ويُنكسه فشله فيرفع كفّيه متضرّعا متوسّلا إلى القوّة العلوية فيُنادي الله مرّة ثمّ يُكرّر مناداته له ثانية، طالبا منه أن يعتقه من ذاك البيت الذي ما عاد يقوى على المكوث فيه، وهو لا يُريد بالبيت تركة اخيه التي افتكّها من أيدي الجميع ؟؟ بفرح شديد والذي لا

---

[1] الرواية، ص.86.

[2] الرواية، ص.178.

يرد في تصوّره مطلقا التخلّي أو التّفريط فيه وإنما هو يُريد بالبيت زوجته التي غلبته، فلا ضيمه الشّائك لها، ولا تقزيمه القاتل لشأنها، مكّنه ممّا يُبيّته لها.

فلم يجد إلاّ سبيل الاستنجاد بالله فيدعوه ملهوفا بأن يُسرّحه من حبسه الذي أودعته فيه في سهو منه، فأضحى محكوما عليه، يجهل مصيره، فيظلّ يرتقب لحظة يُعفى عنه فيتحرّر.

ويزداد استسلامه فيُنادي الله ثالثة طامعا في رحمته وكأنّ الذي هو في عقاب لحقه من جرم يكون قد صنعه ويظهر وكأنه يعترف بما اجترحه، فيدعو الله رابعة أن يكون لطيفا به فيُخفّف عنه بعضا من عذابه.

وتنتحب شكواه فيرجو معجزة الله التي تُردي هذه الزّوجة التي أتعبت كلّ قواه التي استخدمها معها لينفضها عنه، ودفنته في معاناة أتقنت تأجيج ثورته وإطالة تعاسته التي لم يتبيّن لها منتهى.

ويتشّبث إيمانه بحدوث هذه المعجزة فيرى نفسه تطيب بعدها، فتصغو له الدّنيا ليُحقّق فيها مبتغاه حتى وإن عاكسته الأحوال وشاغبته الظروف، فيقتنص قلب جارته فاطمة الحمراء والتي استقرّت منذ مدّة في حلمه اليقظي "لاح في مخيّلته وجه فاطمة الحمراء مغريا بالتقبيل والعضّ. شمّ رائحة، إنها رائحة شعرها الأحمر تسري في جسمه. ابتسم وابتسمت عيناها العسليّتان. مدّد رجليه سعيدا. إنها تقترب منه، تجلس إلى جانبه، يُطوّق خصرها بذراعيه ويُحدّثها عن كلّ همومه وأحلامه ورغباته المستعرة نارا. حدّثها عن الحبّ وعن الهناء، عن بيتهما. تختفي الحمراء، يتضخّم شعوره بالحرمان والضيم ماذا فعلت يا ربّ؟ لم أنا بالذات؟"[1].

وينفر وعيه من يقظته ويطلب الحمراء فيستقدمها إليه فكره الرغبي فتتمثّل أمامه تخفق بالحياة، فيحسّها وبشغف يتأمّلها، يتطلّع إلى وجهها فيشمله مدمن الإغراء، جارف لا يُقاومه. ينساق إلى لثمها و؟؟ تُذكّي شهوته المتربّصة بها، يتوق إلى عضّها، ولمّا يهزمه الانبهار يلمس شعرها، يفكّ خصلاته، يُداعبه، يشتمّ رائحته، تُنعشه رائحة الحنّاء المنبعثة منه، يدفن وجهه في تلك الخصلات، تهزّ بدنه قشعريرة الحياة، يحسّ أنه كائن موجود، وتتشكّل على وجهه ابتسامة رضا، يُحدّق في عينيها يتعرّف على لونهما العسلي وهما

---

[1] الرواية، ص.86.

تُبادلانه الابتسام. لا يتملّك أمره وبفرح لا يُضاهى وسعادة لا تُماثل يرقبها وهي تسير نحوه، تدنو منه حتى تجلس بمحاذاته. يمدّ ذراعيه يُمسكها، يضمّها إليه ويبدأ في بثّها كلّ متاعبه، فيحكي لها عن زوجتيه العقيمتين، عن شقائه وألمه معهما وأنهما كانت السبب في أنه حُرم حتى اليوم أن يكون أبا.

ويسترسل في حديثه إليها فيذكر ماضيه الذي لا يُطيق تذكّره وعن حاضره الذي ما عاد يرغب الاستمرار فيه، وأنّ ما يشغله هو حلم المستقبل الذي سيكون معها، فهو يودّ أن تُحقّق له ما أخفق فيه غيرها فيُصبح أبا، والدا لطفل يتمنّاه منها، واعترف لها بحبّه المتوقّد بين جنباته، ورسم لها السّعادة التي تنتظرهما معا في بيتهما الجديد، ويتعطّل هاهنا فكره الرغبي فتتفتّت صورة الحمراء أمام ناظريه ويهوي مصطدما بالواقع الذي يُثقل أحلامه، فيتعاظم القهر في دخيلته وتتشعّب أوجاعه ويعلو أنينه فيتساءل لماذا ظلمه الله أو لماذا يُعاقبه؟، هل ارتكب جرما استحقّ عليه كلّ هذه المكابدة؟.

ثم عندما تتأزّم حاله يلوم الله جاهرا لماذا هو دون سواه الذي اختاره ليشمله بكلّ هذا الشقاء؟، فقد نظر من حوله فلم يُصادف من يُشابهه، من يعيش حيرته، من يُصارع ظروفه، وكأنه خُلق ليدفع عن البشر ثمن آثامهم فظلّ وحيدا.

وحين خار جهده أذعن صامتا، وعلى الرّغم من كلّ الأحلام التي رتّب خيوطها إلاّ أنها احترقت كلّها في لحظة وفاطمة الحمراء تُفضّل عليه رجلا آخر، بقّال الحيّ، وما أن يصله الخبر حتى يُهرول صوبه وفي دكّانه يعفوه سبّا وشتما "أيّا الكلب؟ أنت لا تُراعي حرمة لكبير أو صغير ولا لامرأة أو رجل من الجيران. ما هذا لا حياء ولا دين. انتبه لنفسك، لم تجلس أمام الدّكّان؟ لماذا أيّها البقّال؟ ألتغازل نسوة الحيّ؟ أدخل دكانك والعن الشّيطان"[1].

وعلى الملأ من سكّان الحيّ ناداه وهو ينعته بالكلب النّجس الذي لا يمتّ لسلالة البشر بأيّة رابطة وأنه يتصرّف مثل الحيوان الفاقد لحسّ التفريق بين الأشياء، ثمّ يتّهمه بالانحطاط الخلقي الذي يجعله لا يُولي أدنى اعتبار لأيّ من جيرانه، سواء كانوا نساء أو رجالا، فلا هو يُقدّر كبيرا لهم ولا هو يُكنّ اهتماما لصغيرهم، ويستمرّ في تصغيره باسم

---

[1] الرواية، ص.88-89.

أهل الحيّ وكأنّهم أوكلوه أمرهم وفوّضوه ليُدافع عنهم وعن حرماتهم متى استدعت الضرورة ذلك.

وحتى يشفي غيظه منه يوغل في ازدرائه فيصفه بأنه فاقد للحياء يُبيح لنفسه انتهاك شرف سكّان الحيّ، فيتعدّى عليه ويخدشه بكلّ شيء وبأيّ شيء، ويصل في توبيخه إلى أبعد حدّ فيراه لا دين له يردعه ويوقفه عن ما هو ماض فيه من منكرات.

ثم وبلهجة شرسة يُحذّره بأن يُراقب سلوكاته المشينة، وتحتدّ لهجته معه أكثر فيُرهبه إن هو لم ينته عمّا هو فيه فسيكون عرضة للعقاب من لدن كل قاطني الحيّ وأوّلهم هو الذي لن يدّخر قوّة لأجل ذلك فيُحقّق ثأره منه.

ثم يعود فيسأله لماذا يتسمّر على باب محلّه طوال النّهار بدل المكوث بداخله لتسيير أموره والوقوف على أغراض تجارته، ويُسارع فيُجيبه بتهمة أخرى فيُفسّر فعلته هاته بأنها مجال من مجالات معاكسة لنساء وزوجات رجال الحيّ، وهو إذ يصرخ بهذا إنّما يُحاول أن يُثير عليه كلّ جيرانه فيتّفقون على تأديبه. وفي الأخير وبطريقة النّاصح يأمره بأن يلزم محلّه ويبتعد عن وساوس الشّيطان الذي سيطر عليه فانساق يُنفّذ ما يُمليه عليه.

وهكذا يُحاول سليمان أن يتمظهر بصورة المحبّ لجيرانه، الغيور على سمعتهم، الحامي لهم من كلّ خطر، وهو في جادّة شأنه لا يبغ سوى صفع البقّال الذي سرق منه فاطمة الحمراء وقلَب كلّ آماله وطموحاته التي خطّط لها في الخفاء، وشتّت له كلّ أوراقه حتى قبل أن يُعلن عنها، فمقته كما لم يمقت أحدا قبله وهو يراه يصل بكلّ يسر لِما يُريده بينما بقي هو دونه، بل ودون سكّان الحيّ كلّهم، وتجري في حلقه، بل في كيانه كلّه مرارة الهزيمة فيتحوّل إلى هشيم تذروه أحلام اليقظة وترمي به أينما وكيفما اتّفق، فينوي لأخذ حقّه من هذا البقّال فيتخيّل نفسه فارسا يحمل سيفا ويتّجه إليه، وعندما يصل ليُنفّذ ما عزم عليه يبدأ البقّال في استدرار شفقته فيتوسّل إليه ويتمسّح به ويستغيث ولكنّه لا يُعيره أيّة رحمة ويهوي بالسّيف على رقبته فيقطع رأسه ويحمله وهو "مازال يستغيث والدّموع تهطل من عينيه. سأقدّمه هديّة للحمراء. ستُرحّب به صاحبة الشعر الأحمر وتُحضّر له الشّاي وتقول له على شجاعتك وإخلاصك"[1].

---

[1] الرواية، ص.118.

ولأنه حاول النّيل منه في الواقع ولم يتسنّ له المراد امتطى خياله ليُفرغ عليه فيه كلّ النقد الذي يعتمله ضدّه، وبأقسى الأحاسيس راح يُبدع له الطّريقة الكفيلة بإزاحته من وجهه فيتخلّص من غريم يُدرك مدى قوّته، فقد أفقده المرأة التي كان يحلم بها وهو متيقّن بأنها الوحيدة التي ستحوطه بالفرح وتغمره بالسّعادة التي لم يحسّها في حياته قطّ.

فكان غريمه في نظره غير عاد، وعليه فهو يستحقّ ميتة غير عادية، فهو لن ؟؟ لأنّ السّجال فيه خسارته الحتمية، وهو لن يطعنه لأنه قد يُصيبه في مقتل فيلفظ نفسه على الفور فلا يراه يتألّم، وهو لن يُصوّب نحوه رصاصة قد تُخطئه فتؤكّد وتُضاعف هزيمته، وقد توصله إلى حتفه فلا يتمتّع بمظهره وهو يتعذّب.

فكلّ أشكال هذه الميتات لا تطمئنّ إليها الغيرة التي يلتهب بها كلّ جزء من كيانه، ولذا فهو يختار له أشنع النّهايات، فيفصل رأسه عن بدنه، ولكن بعد أن يكون قد استنفد معه كلّ الصّور الترعيبيّة التي لا تخطر على بال، فيُذلّه ويُرغمه على أن يستجديه ويجثو يُقبّل قدميه يترجّاه أن يُسامحه ويعفو زلّته وهو يتأبّى ويتلذّذ بكرامته المداسة، وتغمره الرّاحة وهو يسمع صراخه المبحوح وبكاءه الذي تنسكب معه دموعه انهمارا وجلا من الموت، ولمّا يُضجره المشهد يرفع سيفه ويحول بينه وبين الحياة وبقلب بارد بل جامد يحزّ رأسه ويحمله راكضا به إلى بيت الحمراء فيضعه بين يديها هديّة وكأنه مهرها الذي طلبته وانتظرته منه.

وينبئ هذا التّفكير بالذّات أنّ سليمان السّوّاق قد اهتزّ عقله وأثّر على خياله فأظهره مقلوب التنظيم، إذ كيف تُرحّب الحمراء به بعد أن يقتل الشّخص الذي اختارته زوجا لها، بل وكيف تُغالي في التّرحيب به فتُضيّفه وتُقدّم له الشّاي، مكبّرة صنيعه، وتُثني على أقدامه وشجاعته التي لا تتوفّر في رجل غيره، ويشتدّ ابتهاجها به وهي ترى إخلاصه لها.

ومن هنا فإنّ المنطق المعكوس عنده يُخبئ روح الانتقام التي سادت نيّته فوجّهها إلى الحمراء نفسها، حتى وإن كان يُحبّها لأنها ارتضت بالبقّال حبيبا وزوجا بدله.

وفجأة تنقطع به خيوط خياله فيسقط ثانية ويرتطم بحجر الرّاهن فيحمله يأسه قاصدا به بيت الحمراء ليلا، فيضرب بقبضته نافذتها. يسمع الجيران الجلبة، يستيقظون

ويخرجون لاستطلاع الأمر فيجدوه منهارا يبكي ويصرخ "أكرهك... أكرهك... أكرهك. أنا مسكين... أنا مسكين... الدّنيا بنت الكلب"[1].

وتتدنّى معنويّاته إلى ما دون درجة الصفر فيستغرق زمن لااستئمان الحياة ويضحى سيّان عنده أن يُفتضح أمره أو يُستر، فيلبس عباءة اللّيل ويتسلّل إلى بيت الحمراء ليُعلمها بإحساسه الطّارئ، فيُخاطبها من خلف نافذتها المقفلة بأنه تحوّل عن حبّها وصار يكرهها، ويُكرّر اللفظة ثلاثا وكأنه يحلّ بالثلاث رابطة كانت بينه وبينها.

ويلتصق به لامنطقه ويُفوّت عليه سمة فرز الأشياء فيذهب ليُجيبها عن أمر هي لم تسأله عنه لأنها لم تُعره يوما أيّة التفاتة ولم تهتمّ بمعرفة مكنوناته لها، فلماذا ترضخ نفسه لعنت الإفصاح لها عن شعور لا يعنيها، فكونه يُحبّها أو يكرهها لا يمنحها شيئا ولا ينتقص منها آخر.

ولأنه مازال يُحبّها وحفظا لماء وجه كرامته، لم يجد إلاّ أن يجهر بعكس ما يُخفيه ولأنه لا يشكّ في أنها حسمت مصيرها بالزّواج من البقّال، وأنّ كلّ ما يفعله هي تعدّه حماقات مؤقّتة لا تهزّها مطلقا.

وبهذا يصله ضمنيا إحساسه اللامبالي به فتقرفه سخافته وتتفاقم عليه ضالّته ويختنق صده وتجهش أعماقه المتقرّحة بالنّواح على ذاته المصدومة التي مازالت تتوسّل الشّفقة وتطمع ان تأخذ الحمراء بيدها لتُهوّن عليها.

وعندما لم يقترب منه أحد ليستفسره عمّا حلّ به ويُواسيه، فيُخفّف عنه صبّ جام حنقه على الياة التي خانته ولم تُصادقه وتُسايره فيما اشتهاه، فحكمت عليه بأن يتحوّل إلى هذه الشّاكلة.

وما الحياة إلاّ قدره الذي طعن في حكمه، وحمّله دائما عبء ما هو فيه، فلو كان أنجب من زوجته الأولى ما كان انتبه إلى أرملة أخيه التي سارت به إلى مصير مسدود المسلك، وما كان لينظر إلى الحمراء الآن التي لم تكتبه على قائمة الموجودات، فصنعت داخله فجوات نقص أخرى أضيفت إلى ما كان عنده.

---

[1] الرواية، ص.123.

ويكون سليمان السّواق بهذا هو المتسبّب فيما تكرّر عليه من حرمانات لأنه أشاح بوجهه عن علّته ولم يقنع بما أهدته إيّاه الحياة، فعاش يستوضح ؟؟ يستوطن خياله ما فتئ يأمره بتنفيذ القصاص لأنه مجنيّ عليه.

ج) فوضى الحواس:

أمّا شخصيّة حياة في سرديّة أحلام مستغانمي [1] فلا يستمر جهلها لإعاقتها كثيرا، فبعد مرور مدّة قليلة على زواجها تكتشف العقم الملازم لرحمها، فلم تتحايل لتُلصقه بزوجها الذي كان له أطفال من زواجه الأوّل قبلها، ولم تُمانع حياة من أن تأتي على ضرّة لأنّ رجاءها كان الارتباط بذاك الضّابط الذي كان يُجاهد رفقة أبيها الشهيد والذي كان من عمره أيضا، فسلّمته كلّ مقاليد حياتها، فرحة بدور القاصر التي لا يصلها زمن الرّشد أبدا لأنها ببساطة لم تكن تطلب فيه الزّوج وإنّما الأبّ "سعيدة بسكينتي أو استكانتي إليه، تاركة له الدّور الأجمل، دور الرّجولة التي تأمر وتُقرّر وتطلب وتحمي وتدفع وتتمادى. كنت أجد في تصرّفه شيئا من الأبوّة التي حُرمت من سلطتها... تنبّهتُ بعد ذلك إلى أنّ أبوّته هي التي كانت تعني لي الأكثر"[2].

وهي تصف علاقتها به تختلط عندها معاني المفاهيم فتقول أنها كانت تعيش غبطة الطمأنينة معه ثمّ تستدرك بل رضا الاستسلام والخنوع له، وهي تُرغم نفسها على إتقان دور المرأة التي تُمسك بأذيال رجلها، فلا تخطو خطوة واحدة دونه، فموقعها يكون دائما خلفه، تتقفّى أثره، وإن هي ضيّعت الأثر تاهت. دور المرأة التي لا تملك آدميتها إلاّ إذا ما انعقدت بآدميّته التي تسوغ له أن يكون في كلّ المواقع قائدا، وسمحت له أن يستغرق الزّمن كلّه في تأمّل جمال هيئته الرّجولية، فكان صاحب الأمر وكانت المذعنة، وكان المقرّر وكانت المنفّذة دون استفسار، وكان من يطلب وكانت من يمنح، وكثيرا ما تمادى في هذا وغالى في تحريك رجولته فلم تكن لتنزعج أو تحتجّ حتى تتمكّن من دخول شرنقة الحماية التي نسجها من أجلها ليدفع بها عنها كلّ خطر ينوي مسّها.

---

[1] فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، لبنان، ط[13]، 2003، ص.38.
[2] نفس المصدر، ص.38.

فتتحوّل في هذه الأثناء بالذّات إلى طفلة تُحاول بفرح أن تعثر على الأبوّة التي ودّعتها ودار يحلو لها أن تتمثّلها. في هذا الزّوج رفيق أبيها الذي ربّما يكون لديه بعضا من خصوصيات تلك الأبوّة، بعضا من تصرّفاتها، بعضا من تفكيرها، بعضا من حنانها وحبّها. وتمكّنت بعد مرور دوائر الوقت أن تخلع عنها ثوب القاصر وتُفسّر أنّ ما شدّها إلى الارتباط بهذا الرّجل هو لهفتها في أن يكون لها أب يُمسك بيدها ويسير معها إلى أيّ اتّجاه ترومه، فتشتدّ حصون الأمان في داخلها لتُقوّض سلاح الخوف وتُواصل سبيلها، فلا تُحجم ولا تتراجع وهي تحسّ سند الأبوّة خلفها.

وتُقرّ بعد ذلك بأنّ احتياجها إلى ظلّ الأبوّة لم يكن الدّافع الوحيد الذي أسلمها بين يدي هذا الرّجل وإنّما هناك سبب آخر لا تستح من تسميته وهو السّلطة التي أغرتها بلمعانها ونحتت صورا حياتية لا تُقاوم فانقادت نحوها فصار للسّطوة عندها وزن يُماثل أو يفوق الأبوّة "أتوقّع أن يكون زوجي وُلد بمزاج عسكري وحمل السّلاح قبل أن يحمل أيّ شيء. فأين العجب في أن يكسرني أيضا دون قصد تماما كما أغراني قبل ذلك بسنوات دون جهد؟. أليست السّلطة كالثّراء تجعلنا نبدو أجمل وأشهى؟"[1].

فهي تكاد تُجزم أنّ زوجها لم يكن طفلا أبدا، فنمط ذهنيته العسكريّة المتشابكة توحي أنه جاء إلى الحياة وهو مثقل بها، فكان مخلوقا جُبل على تأبّط السّلاح واستعماله قبل أن يُدرك أمرا حياتيّا آخر. ولذا فهي لا تُظهر أيّ استنكار لمعاملته العنيفة لها والتي تُعرّضها للأذى كلّ مرّة وبغلظة منفّرة تخدشها فتحسّ العطب، ولكنّها على الرّغم من هذا تتعايش مع تصرّفاته كأيّ جندي من جنوده فتقبل منه فظاظته وتتغاضى عن حيفه ولا تنتفض إزاء ذلك، بل تجد لمجموع اجتراحاته هاته كلّ الأعذار الممكنة، فتعزو ما تُلاقيه منه إلى نوعية تركيبة مزاجه الخارج عن إرادته، فالاستنفار الحربي الذي كبر فيه ترك بصماته عليه إلى درجة أنه لم يعد يتحرّى أفعاله وسلوكاته التي كانت تتجاوزه دائما وتقوده إلى ارتكاب الخطأ البريء من نيّة الإضرار بالآخر.

وتتفرّس في حاضرها وما تحياه فيه من نصب تدعوه غير عمدي، فتتذكّر أمسها حينما جاء يطلبها فما كاد يُلقي بعرضه حتى تلقّفته كما الغريق يُمسك حبل النّجاة الذي يُمدّ نحوه.

---

[1] الرواية، ص.38.

فلم يبذل أيّ مستحيل ليُنعها بذاك الارتباط، فلا هو مدح لها شخصه بتعداد سجاياه وتزيين خصاله والافتخار ببطولاته وتمجيد مواقفه. وهكذا ودونما أيّ تعب منه حظي بقبولها، فكان نفوذه وثراؤه هو المفتاح السّحري إلى قلبها، وكان هذا كافيا لتُذعن له بلا مماطلة ولا تفكير، وتشتهي أن تكون له لا لغيره، وأضحى في عينها يملك كلّ روعة الرّجال وكلّ وسامتهم مادام في كفّه السّطوة والمال، أجل مقاييس الرّجولة بل مقياسها الأوحد، فاستحقّ أن لا يُردّ له طلب، حتى وإن تعلّق بأشدّ أمورها المستقبلية حساسية وحميمية.

وفي غمرة استظهارها لِما فات، يتحرّك ندمها ليلومها على أنها لم تتأنّ ولم تُلغ ثنائية الجاه والغنى التي أبهرتها لتمنح مشارعها زمنية للتفكير حتى تتبنّى الرّأي الأصلح، وتحوّل هذا الأسف البادي إلى اعتراف سرّي منها بأنّها أخطأت القرار الصّحيح، فما كان يجدر بها، مهما كانت ظروفها، أن تُلحق مصيرها بهذا الرّجل الذي لم يتنازل ويُلقي بعسكريّته جانبا حتى وهو معها.

فنأى بإحساسه عنها فتراء لها بعيدا، فلم تتمكّن من امتلاكه زوجا ولا حبيبا، ولا حتى صديقا، وحمّلت عقمها سبب انصرافه عنها وانبرت تؤكّد لنفسها أنّ علّتها مؤقّتة وستجد لها العلاج لا محالة إن هي راجعت الحكماء وامتثلت لنصائحهم وداومت على أدويتهم، وأومأت بهذا التّخمين إلى زوجها فلم يُناقضها ودون إلحاح منها سايرها. تقول عن هذا الموقف منه "راح يُوجّهني من طبيب إلى آخر ويبعث بي من مدينة إلى أخرى ليُحوّل الأمومة مشكلتي وقضيّتي الأولى، لم أعد أذكر كم زُرت من الأطبّاء بتوصيّات خاصّة"[1].

إنّ ما تذكره حياة هنا ليس إلاّ حقيقتها هي المفترضة التي تختبئ بكبرياء في أنوثتها المصابة، أمّا الحقيقة المادّية فهي نقيض كلّ هذا تماما، فيكون وجه الواقع في قولها راح يُوجّهني إلى آخر حديثها هو أنّها هي التي كانت تطلب منه وتُصرّ عليه بأن يرتقي كلّ معارفه ويستخدم كلّ نفوذه ليبحث لها، بل ليعثر لها على الطّبيب المناسب ليتفقّد حالتها ويُشخّصها، ويقف على مربض الخلل فيها. وكثيرا ما كان يفشل في نظرها هذا الطّبيب أو ذاك في انتشالها ممّا هي عليه من معاناة، فكانت تُصبح وتُمسي وهي تقدح في علمه

---

[1] الرواية، ص.96.

وتعرض بخبرته وتجربته على مسمع من زوجها الذي تُطالبه مرّة أخرى بأن يوصلها بطبيب آخر قد يملك الترياق لدائها.

وأمام لهجتها المستجدية اضطرّ أن يبعث بها أكثر من مرّة إلى مدن مجاورة وأخرى بعيدة عندما كان يصله خبر مهارة حكيم ما بها.

وهكذا وبمرور الوقت تحوّلت الأمومة عندها إلى قضيّة تُحارب من أجلها وتعد نفسها بإحراز النّصر فيها، كيفما كانت الأحوال، فانكبّت عليها وناورت زوجها لتُقنعه بأنه معني بهذا الشّأن مثلها، على الرّغم من علمها بأنّ له من زواجه الأوّل النّسل الذي يكفيه. فأخذت تضغط عليه بأن يُوظّف كلّ ما يملكه من جاه، فصارت لا تزور عيادات الأطبّاء إلاّ وهي تحمل توصيّات خاصّة تفتح لها في ظنّها أبواب الشّفاء عندما تضغط السّلطة وتُحوّل طلباتها إلى أوامر تجبر هؤلاء الأطبّاء على أن يُعاملوها معاملة تُطأطئ أمام النّفوذ الذي ترتبط به، فيبذلون ما يفوق وسعهم لأجل أن تكون كباقي النّساء العاديّات اللّواتي ينعمن بالسّعادة التي تزرعها فيهنّ الأمومة.

إنّ هذه الحقيقة التي دلّستها حياة أشعرتها بأنوثتها فاستشرى في دخيلتها فرح أرضاها وهي ترى زوجها يهتمّ بها أخيرا ولا يتأخّر عنها في أمر طالبته به، وتستمرّ حياة وعلى رغمها في إخفاء راهنها المستكنه المتضوّر للأمومة، وتُصرّ أيضا على اصطناع الشّعور اللاآبه بها حتى وهي تستنجد بقلب أمّها وتسترشد تجربتها الحياتية، فقد يكون لديها طريقة سحرية ما تُنهي آهات اليأس والقنوط التي انتهبتها وهي تُورّثها الإجابة عن ما فشل فيه الحكماء.

ومثلما أجرت الأكذوبة الأولى على لسان زوجها لم تُحجم وحكت الثانية وهي تُلحقها بأمّها "كم من أضرحة الأولياء أجبرتني أمّي على التبرّك بها. سنتان وأنا أرافقها دون اقتناع، وحتى دون رغبة حقيقية في الشّفاء من عقمي. أعترف بأنني كنت أذهب فضولا وربّما استسلاما لا أكثر"[1].

وتورد المغالطة الثانية هاته وتسعى لتصديقها قبل أن يُصدّقها الآخرون، فأمّها ما كانت بقادرة على دفعها إلى اعتناق يقين لا تعترف به ولا تُريده وإنّما الذي يكون قد زعزع تنسيقها الحياتي وغيّر نظرتها، بل إيمانها بالأشياء هو تلك الصدمة التي انتابتها

---

[1] الرواية، ص.96.

والأطبّاء يتّفقون على تشخيص واحد لحالتها ويُجمعون على رأي يؤكّد أنّ عقمها مزمن وهم عاجزون على تقديم أيّ حلّ بديل لها.

النتيجة هاته أفقدتها أيضا التوافق مع كلّ ما حولها لأنّها لم تتقبّلها ومسلّمة شفائها لم تُغادرها قطّ. وفي وضعها هذا اكتشفت أسلوبا آخر للمداواة يفكّ ما أعجز الأخصّائيين وأتعبهم.

وقرّرت أن تُباشر التردّد على معالجين من نوع خاصّ، زاعمة أنّ دواءها وبرءها بأيديهم، ودون وهن بقيت صلبة مدّة عامين كاملين بلا انقطاع تتعلّق بأثواب أمّها حتى تقبل وتصحبها إلى مدافن الصّالحين الغابرين لتجني بركتهم وهي تسألهم أن يمنّوا عليها بكراماتهم. وإلى كلّ مزار كانت تصله كان يولد ويكبر الشّعور بداخلها بأنّ الخارق سيتحقّق وأنّها ستبيت وتُصبح وقد تحرّك الجنين في رحمها يعدها بالأمومة المنتظرة.

ورافقها هذا الرّجاء فلم يكن لينطفئ ولم تكن حركتها لتهمد، فأصبحت كلّما سمعت عن وليّ صالح إلاّ وقصدته بنزوع جامح في أن تطيب، ولم تكن تُقدم على هذا فضولا منها كما تروي مراوغة مخاتلة. ربّما كانت تذهب مستسلمة، نعم وقد أماتت كلّ إرادة لها، تاركة الوهم يتحكّم فيها ويقودها نحو قدرها فلا يصدر عنها أيّ حراك يُنبئ بأنّها واعية لما هي تفعله، فتظهر منوّمة تُعيد نفس الحركات عند كلّ مزار. قد تقف وقد تجلس وقد تقرفص، وقد تُقبّل شاهدة القبر عدّة مرّات تعبيرا عن العجز والولاء، وقد تدور الأشواط الكثيرة حول الضّريح، وقد تُغالي في الدّوران لتكون لها الجائزة، وقد ترقص على دقّات دفوف النّسوة اللواتي ما أن يصلن الضّريح حتى ينشأن في التطبيل.

ترقص حتى يحدث عندها الوجد الذي يُقرّبها من ذاك الصّالح الرّاقد فتراه وتُحدّثه متوسّلة جدوى النّسل منه، في طقوسية متفرّدة، وقد ثبت لديها أنه كلّما استوفى الاستجداء طقسه اللاّئق بهذا الوليّ أو ذاك، كانت الاستجابة حاضرة وسريعة.

وبعد أن استوفت الحولين على هذا الوضع استفاقت ذات يوم على شجن داخلي يُخبرها أنّ كرامات الوليّ المقبور تتّفق والخبرة العلمية للطّبيب المتمرّس، حينها فقط علمت أنها لن تحضن وليدها المأمول بين يديها ما عاشت، وفي هذه الشحنة من الخيبة اتّسع البعد أكثر بينها وبين زوجها وتلغّم، فلا حنكته أوصلته إليها ولا وحدتها طاوعتها على اجتياز المسافة إليه، فاختارا أن يعيشا وقد أدار كلّ منها ظهره للآخر.

فتتعرّف هي على مصوّر صحفي وتتّخذه عشيقا لها وتُغادر قسنطينة إلى العاصمة بحجّة أنها تحتاج إلى جوّ لتهدئة أعصابها، وتنزل هناك في الفيلا التي يمتلكها زوجها وما أن تصل حتى تلتقي بإحدى جاراتها التي تُسرّها أنّ زوجها كثيرا ما اصطحب عشيقاته إلى هذه الفيلا، وهي تستمع إلى هذه المعلومة تقول "العجيب أني لم أشعر بالغيرة. إحساسي كان أقرب إلى الغثيان منه إلى إحساس آخر، فلم أشأ أن أفكّر في النّساء اللاتي تناوبن على هذا السّرير ولم أكلّف نفسي مشقّة وضع ملامح لوجوههنّ. ربّما كنّ شقراوات مزيّفات. عادة هذا النّوع يروق لزوجي"[1].

طبيعي أنها لا تعرف عن جنون الغيرة شيئا لأنها وُئدت هذا الإحساس يوم لم تُمانع في أن تُرتّب نفسها زوجة ثانية، فوعيها "بوجود ضرّة تُقاسمها زوجها ألغى عنها لذّة حياتها معه"[2].

ولمّا كانت الغيرة وجها من أوجه اللّذة فقد تنازلت عنها صلغرة لأنّ هذا الزّوج لم يكن لها وحدها، فاستوفى ذهنها أنه ليس ملكا لها وأنه لا يجدر بها تصطنع شعورا وتُوظّفه في غير مكانه. ولو كان الحال عكس ذلك لكانت أقامت الدّنيا ولم تُقعدها ولكانت قد وقعت فريسة لعذاب الرّيبة ينهشها ليلا ونهارا، فتُحرم متعة الحياة، ولكانت قد عملت كلّ مستحيل لأجل التأكّد ممّا أشيع بمجرّد وصول الخبر إلى سمعها، ولكانت قد ساورتها ألف طريقة تقضي بها على غريماتها وتسترجع زوجها منهنّ، فلا تكون خاسرة مهما كانت درجات الإغراء والفتنة التي تكون قد سُلّطت عليه.

ولمّا كان الأمر مختلفا فقد عوّضت الغيرة عندها بشيء آخر، فبعد أن عافت هذا الزّوج الذي كان يُعاشرها ويُعاشر ضرّتها، وفي الوقت ذاته يُعاشر أخريات، حدث لديها غثيان ألقى بكلّ أيّامها معه أرضا لأنها عجزت عن هضم الفكرة أو استساغتها، فكان الغثيان نوعا من أنواع النّدم وتوبيخ الذّات وكرهها لأنّها أوقعتها بين يدي هذا الرّجل، فتاقت لأن تشطبه من حياتها كلّية، فكان شرك الغيرة بعيدا عنها بعد أن نظرت إلى نفسها فوجدتها تُعامله بالمثل، فهي أيضا كانت تخونه، وهذا ما جعلها تسحب من ذاتها الحقّ في أن تُحاسبه لاشتراكها معه في جرم واحد.

---

[1] الرواية، ص.164.

[2] مجلة الملتقى الدولي الثامن للرواية، عبد الحميد بن هدوقة، مطبعة ؟؟، برج الكيفان، الجزائر، ردمك، 2004، مقال بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية الجزائرية: أسئلة الكتابة، الاختلاف والتلقي، ص.88.

جريمة كان سهلا عليها أن تقترفها هي التي كانت كلّ صولاتها وجولاتها في الحبّ فاشلة، فأرادت بزواجها أن تُرمّم ما تخرّب فيها، ولكن ما حدث هو أنّ الصّدوع تضاعفت وعمقت.

وهكذا فهي لم تتجشّم تعب التفكير في خيانات هذا الزّوج ولم تهتمّ بإحصاء عدد اللّواتي أبهرنه وقاده فتونه بهنّ إلى أن يأتي بهنّ إلى بيتها، ويُحوّل سريها إلى مرتع لهوسه الجنسي، ومنعت حياة حتى خيالها من أن يجنح فيُصوّر لها ملامح أيّة واحدة منهنّ، فقد أخرست فضولها ولم تسأل عمّا إذا كنّ عاديات أم فاتنات، طويلات أم قصيرات، شقراوات أو سمراوات. وفي لحظة ما تداركت وتذكّرت أنها تعرف ذوق زوجها، فهو ضعيف أمام الشقراوات المكذوبات، وهذا يعني أنها كانت تعلم بخيانته لها وتتغاضى عن ذلك، وما خبر جارتها لها إلاّ معلومة مستهلكة، والغثيان التي تقول أنه أصابها إنّما كان أيضا بفعل شيوع السّر الذي صار متداولا بين الجيران وغيرهم، فظهر زوجها للآخرين وهو لا يحترم شعورها ولا يوليها أدنى قيمة وهو يجهر بشذوذه، فتكرّس إحساسها الذي أعلن لها أكثر من مرّة أنّ زوجها لم يرتبط بها لأنّه أحبّها وإنّما ليُرضي غرور رجولته فيُثبت لها بأنه مازال شابا مرغوبا ولأنّ منصبه الرّاقي يحتاج إلى واجهة أخرى غير زوجته الأولى التي لم تعد تف بالغرض.

وعندما مرّت السّنوات أحسست أنها مثل ضرّتها فقد أصبحت هي الأخرى ضرّة لنساء أخريات لا تعرف عددهنّ ولا شكلهنّ ولا مللهنّ ولا نحلهن.

وإذا كان زوجها الضّابط لا يُقيم وزنا لأحد وعلى مرأى الجميع يجترح طلحاته فإنّ حياة لم تكن تذهب إلى شقّة عشيقها المصوّر الصّحفي إلاّ متنكّرة متوجّسة، واضعة كلّ الاحتمالات السّيئة التي قد تنقلب عليها وبالا إن انكشف أمرها ، ولكن على الرّغم من ذلك كانت تُجازف وتصل المكان حيث وجدت سمات الرّجولة التي توسّمتها طوال حياتها كلّها ولم تُصادفها في عاطفيّاتها الحزينة ؟؟ قبل الزّواج ولا في زواجها الذي تعلّقت به علامة الاستفهام، فلم يكن له الإجابة لا الشّافية واللا الجافية. وتعترف حياة مبهورة فتقول "أحبّ كرم رجولته وأخلاق جسده. كان لجسده ذلك الحضور السّخيّ الذي يُعطي ويُعطي كما هو الحبّ ويأخذ كما هي اللّهفة"[1].

---

[1] الرواية، ص.302.

هذه هي الرّجولة التي ودّت أن تعيش بين حناياها تؤمّن لها الحماية ؟؟ بها على مكاره الزّمن فتقهرها، رجولة صافية تعيش في شفافة بلا تدليس أو تزوير، ليس لديها ما تُخفيه، فلا أضمرت خداعا وهي ؟؟ نفاقا لا تغشّ، وإن أحيطت بها المغريات تآمر عليها الآخرون ورموها في أحلك المواقف الخيانية حميمية، فتظلّ ترى القبيح مذموما والممدوح جميلا، فلا تسمح للمفاهيم أن تختلط في نظرها.

الرّجولة الحانية التي يُثيرها المبدأ فترضى أن تفنى دونه فتبذل في سبيل الآخر قبل أن يستصرخها، مؤثّرة له علم ذاتها وإن ألحّت عليها الحاجة، ولا تنتظر أن تُجازى أو تُشكر.

الرّجولة التي ترفض أن ترى نفسها في قفص الاتّهام لأنها تغضب للخطأ فلا تكلّ ولا تهدأ حتى يُصحّح ويتسنّى له أن يسير في نهجه دون عوج.

هذه هي الرّجولة التي كانت حياة تتمنّى أن تغمرها فتتقوّى بحضورها في الكرب وتتعزّز بوجودها في القرح، فلا تقتر عليها حقّها ولا تجحدها فيه.

وهي تطنب في إطراء هذه الرّجولة تظهر حياة وهي تُعاني جوعا جنسيّا شرها لم تستطع أن تُشبعه إلاّ وهي بين أحضان ذلك المصوّر الصّحفيّ، مع هذه الرّجولة التي أحدثت بداخلها التّوازن الغائب فأصبحت ترى الحياة بألوان أخرى أزهى وأشكال أكبر وأبعاد أجمل.

فكانت تركض باتّجاه هذا التّركيب المبهر وتعيش احتفالية الجسد التي تقيها التلاشي وتُدخلها الفرح الذي يُضيء كلّ نوافذها الدّاخلية المعتمة، فيفكّ أسرها لتعي قيمة جسدها وقدرته على أن يُحدث التناغم بينها وبين ما يُحيط بها، فاستعادت بهذا الأنا الذي ضيّعته، الأنا الذي أراها نفسها فكانت المرآة التي تُغري وتُشتهى وتشتهي، فعاشت الحبّ اللاّهب بلهفة لا تعرف التّراجع أو النّدم لأنّ الكسر المكبوت بداخلها كان يحتاج إلى كمّية من الوقت كبيرة حتى يُجبر.

ولأنّ حياتها مع زوجها الضّابط الذي كان يكبرها بجيل من الزمن لم تكن إلاّ أكذوبة، وهو على ذمّته زوجة أولى قبلها ونساء أخريات لاعدّ لهنّ، يعيش معهنّ على الهامش، ولأنه لا يستطيع أن يُخصّص لها مكانا بينهنّ، حدث الإغماء بداخلها فشدّت على يد هذا العشيق وأمرته بأن يُساعدها على استكشاف كهوفها السّرية وفتحها.

لقد كانت حياة بحاجة إلى مثل هذه العلاقة حتى وإن كانت مدانة أخلاقيا واجتماعيا ودينيا، ولهذا لم تُحاكم نفسها لأنها كانت مقتنعة أنها بصدد تصحيح مسارها الحياتي وهي تأخذ الحبّ دون توقّف وتُكبّر الينبوع الذي لم يبخل عليها وهي تطلب الاستزادة.

فثأرت بهذا العشيق المتّخذ من العقم ثم من اللاانسجام الذي ربطها بزوجها، وعثرت بذلك على الأنثى الملثّمة فيها. وعدت مرّة إن سألها عشيقها هذا لماذا لا تُغادر زوجها ما دامت لا تُحبّه، ولماذا بقيت معه كلّ هذا الوقت؟، فتُجيبه "لأنّه زوجي ولأنّني وحيدة ولأنّني متعبة ولا قدرة لي على اتّخاذ أيّ قرار. فحياة امرأة مطلّقة في بلد كهذا هي عبودية أكبر من أنها تتحرّر من رجل كي يُصبح كلّ النّاس أوصياء عليها"[1].

إنّ كلّ هذه الأعذار التبريرية التي تُقدّمها حياة ما هي إلاّ مصطنعات قعيدة تُريد الإفلات عبرها حتى لا تُعطي نفسها لحظة تشاور قد تنسف التكرارية التي ألفت التعوّد عليها، فركنت إليها صامتة لا تُريد أن تُحدث أيّ صخب في خزانة مرتّبة نوعا ما.

وعلى الرّغم من أنها كانت متيّمة بتلك الرّجولة إلاّ أنّها حينما أملت عليها حبل النّجاة لم تمتثل له واستعصى عليه أن ينتزعها من بين يدي الضّابط الذي ما زالت تُسمّيها في حسّها وذهنها زوجها الذي لن تتنازل عنه مهما بدر منه من تصرّفات يبغي منها إلغاء وجودها وجعلها خيالا صغيرا يتبعه، لا كينونة له إلاّ به.

ثمّ تُضيف بأنها تشعر بضجر الوحدة وكآبتها بعد أن هزمها سقم العقم الذي لم يبد من عينيها صورة الطّفل الذي ما زالت تراه ولا تراه.

وهي تتحدّث عن الوحدة تبدو غير مقنعة، خاصّة بعد أن اقتحمت تلك الرّجولة عليها حياتها فصارت شغلها اللامنتهي، فالوحدة إذا هي إحساس مفتعل بعد أن اهتدت إلى عوض لزوجها، أوجد كلّ الأمكنة الغائبة فيها وملأها.

وتزيد حياة على وحدتها تعبها من غصّة قلبها التي جعلت منها مهاجرة دائمة لا تهدأ وهي تتعرّف على سيرة زوجها فلا تعي طريقة لتغييرها، فيزداد تعبها كلّما تأكّد لها بأنّها استنفدت كلّ السّبل فلم تمتلكه ولم يُقرّ بأنّه لها وحدها، وينقلب هذا التّعب ذريعة غير مفهومة عندما تجد حلاّ في الرّجولة التي انبهرت بها وأشعرتها بأنّها لها وحدها.

---

[1] الرواية، ص.320.

أمّا السّبب الثالث الذي تعلّقت به حياة فهو عجزها على اتّخاذ القرار عندما غيّبت نفسها ورضيت به وعندما تبرّأت من نوازعها المعشّشة المفرخة بداخلها، فلم تُبد أيّة حركة تقول من خلالها أنّها ثائرة على سيادة ذلك الزّوج عليها، فاعتقد أنها بدونه لا تُساوي شيئا، واقتنعت هي بذبك بعد أن استوطنها الخوف فاستحالت إلى جبانة، ولكنّها على حين غرّة قرّرت أن يكون لها عشيق وفعلت فلم تعد بعد هذا القرار نهب العجز.

وتختم حياة جملة تبريراتها بحجّة رابعة هي أنّها لا تقبل أن تكون مطلّقة في مجتمع كهذا الذي يحتقر كلّ مطلّقة وينعتها بمختلف الأسماء ويُسلّط عليها من الضيم والقهر ما تتوقّعه ولا تتوقّعه، ويُدين كلّ تصرّفاتها زورا وبهتانا، وتُضيف إذا كانت المرأة بعد طلاقها تكون قد أحرزت التحرّر من شخص فإنها تقع في قبضة المجتمع كلّه.

وتظهر حياة غير مؤمنة بما تقوله لأنها تُخفي أمرا آخر، فهي لا تُريد أن تنفصل عن الضّابط زوجها لأنّها لا تُريد أن تخسر السّلطة والجاه والمال الذي جعلها تعيش في مستوى تعوّدت عليه ولن تنسجم مع غيره، ولهذا فهي تطمع في أن تُمسك العصا من الوسط، فلا تُفرّط في زوجها و؟؟ حياتها معه وتتمسّك بعشيقها الذي أشعل فتيل الأنثى فيها. هذا الانشطار الحياتي لم يكن يُزعجها الاستمرار عليه.

ولكن وبدون مقدّمات تنسحب تلك الرّجولة من حياتها تاركة إيّاها تعيش أمنية عودتها إليها يوما.

الفصل الرابع

الشّخصية السّيكوباثية بالاكتساب

أ- مفهوم الشّخصية السّيكوباثية بالاكتساب.

ب- الشّخصية السّيمونية وتمثّلاتها في:

1- الجازية والدّراويش: عبد الحميد بن هدوقة.

2- الانفجار: محمد مفلاح.

3- السّعير: محمد ساري.

ج- الشّخصية المثقّفة وتمثّلاتها في:

1- التّهور: إسماعيل غموقات.

2- الحاجز: هـــ. سعيداني.

3- الشّمعة والدّهاليز: الطاهر وطار.

المبحث الأول: الشخصية السيكوباثية بالاكتساب (الإمام) وتجلياتها في السيمونية.

؟؟ تحدّثت في بداية الفصل الثالث عن الشخصية السيكوباثية بالاكتساب وذكرت أني سأعود إليها بشيء من الإسهاب في الفصل الرّابع هذا.

فالشخصية السيكوباثية الاكتساب تكوّنت من جرّاء ذلك اللاّتفاعل بينها وبين ما يدور حولها، فتعجز عن استحداث مواقع للألفة بينها وبين الآخر، ففقدت سلطتها على نفسها وجهرت بأعلى صوتها بخصومتها لكلّ من يُجرّب الدّنوّ منها خوفا من أن يصل إلى معرفة ما يستوطنها من لامنطقيّات، وبحكم هذا فهي تلجأ إلى تبنّي كلّ المتناقضات المتاحة التي تمنحها في نظرها ما يُسهّل عليها عمليّة التّخفّي، فتحرص إذ ذاك على أن لا تُبرز من شخصيتها الحقيقية المنتكسة أيّ ملمح.

ولقد اخترتُ نموذجين اثنين لهذا الشّكل السيكوباثي، أحدهما يتجسّد في صورة الإمام الذي يضرب لنفسه خيمة من الدّين يهرب إليها كلّما استشعر بأنّ الآخر يوشك على افتضاح أمره وإظهار هشاشته، فيضطر إلى العيش على حالين يستحيل اتّفاقهما، فيُصبح بهذا السّلوك كمن يمتهنّ التّجارة المعنوية بالدّين ممّا يجعله سيمونيا(*).

والآخر يبرز في صورة المثقّف الذي كثيرا ما يجري إلى الخلف حتى لا يُواجه المواقف التي تستدعي حضوره مرّة باستعراض حزمة من القيم التي يمتلكها وليست عند الآخر، الشيء الذي يمنعه من التّقرّب منه والتّوافق معه لأنّه لا يستطيع إلاّ أن يراه دونه، ومرّة بتعداد كومة من الخيالات التي لا تتحرّك إلاّ في ذهنيّته. وفي الظرفين فهو لا يُبدي ما هو مطلوب منه فيظهر مشوّشّا مضطربا لا يقدر على صنع وتجسيد التّغيير المراد.

ويظهر هكذا الشكلان وقد فقدا أهليّتهما لتبنّي أيّ فعل إيجابي فيبهت لونهما وهما يعرجان فلا يستطيعان الوصول إلى النّقطة التي يرومانها، فيسقطا بكلّ سهولة بين أنياب

(*) السيموني: نسبة إلى المذهب السيموني الذي يتاجر أصحابه ومريدوه بالدين.

الخطأ الذي يتكرّر ويطول وقد يدوم، وبين براثن التّصوّرات المشوّهة التي تُزيّن كلّ قبيح، فيعسر حينئذ على الأوّل أن يُقوّم اختلاله، ويستحيل على الثّاني أن يجد ترياقه.

1 -الجازية والدراويش: عبد الحميد هدوقة.

تتمكّن رواية الجازية والدّراويش[1] من تلمّس هذا الشّكل وهي تسير خلف شخصية إمام القرية تحسب خطواته وترقب اتّجاهاته، فتظهر هذه الشخصية وهي لا تستوعب فكرة التطوّع التي كان يُقدم عليها الطلبة لأجل إنجاح مشروع الثّورة الزّراعية وتعجز قواها العقلية على أن تستسيغ واقع تواجد فتاة ضمن فوج الشّباب المتطوّعين هؤلاء فأفصحت عن استنكارها للأمر ولم تُخف امتعاضها من هذا الفعل المشين كما تراه ولم تتورّع وهي تستطرد في اختلاق الحكايات ونسجها بشأن الفتاة، فيتحلّق سكّان القرية حولها يستمعون لرواياتها التي يُصدّقونها دون جدال. أليست تصدر من إمام القرية المشهود له بالورع والتقوى والذي لا يُمكنه في نظر الكلّ إلاّ أن يكون صادقا!.

ولا يملّ الإمام وهو يُعيد على مسامع أهل القرية ما دار بينه وبين تلك الفتاة من حديث كان يستلذ إعادته في كلّ حين مع جملة من الإضافات التي لا تنقطع، فيروي قائلا "سألتُ الطّالبة صاحبة السّروال والسيقارة هل لك أب؟ نعم. ماذا يعمل؟. معلم. ما شاء الله!. هل لك أمّ؟ نعم. ماذا تعمل؟. حلاّقة. قال اندهشت عندما قالت لي أنّ أمّها تعمل حلاّقة!. كرّرت السؤال، قلتُ حلاّقة ! نعم حلاّقة للرّجال؟. قال ابتسمت وقالت للنّساء، النّساء يُحلّقن رؤوسهّن في المدينة! نعم"[2].

من هنا يبدو الإمام غير عارف بطرق الحديث فيتحاور مع الطّالبة المتطوّعة وكأنه يستنطق متّهمة يكنّيها بأخطائها لتكون صاحبة السّروال والسيقارة، فهو لا يُواري اندهاشه من لبسها السّروال لأنّ ما استقرّ في فكره هو أنّ هذا النّوع من الثّياب هو للرّجل، ولا يُمكن للمرأة أن تستعيره منه، ثمّ هو لم يتعوّد من المرأة الرّيفية مثل هذا الزّيّ.

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

[2] المصدر السابق، ص.79-80.

ويقصر تصوّر الإمام مرّة أخرى على أن يرى امرأة تضع بين أصابعها سيجارة وتنتشي بتدخينها مثلما يفعل الرّجل الذي يكون وحده أهلا لهذا، وإن فعلت المرأة ذلك فإنما هي تتطفّل عليه وتأخذ منه حقّه الذي لا يلزمها فتتمتّع به.

وهكذا هو الإمام في نظر الرّوائي لا يستطيع وعي الأشياء إلاّ بالمقياس الذي سكن عرفه ولا يُرضيه قانون آخر لِما يتحرّك حوله. ولهذا فهو لا يدعوها باسمها مع معرفته به لأنه يراها قد تنازلت عنه عندما انسلخت عن جنسها وقرّرت أن تكون ضمن الجنس الآخر، فلم يعد يليق بها إلاّ الاسترجال الموصوف بالسّروال والسيجارة.

ويُلقي الإمام وابل أسئلته على الطّالبة فيستفسر عمّا إذا كان لها أب، وكأنه فكّر في أن تكون لقيطة أو يكون أبوها قد تخلّى عنها أو توفّي، فبقيت دون حماية ودون يد ضابطة تأخذها بالتّربية والرّعاية فتُلقّنها أن لبس السّروال والتدخين هما من الموبقات التي يُحرم على المرأة الدّنوّ منها لأنها لا تجوز إلاّ للرّجل باعتبارها من علامات تأكيد رجولته.

وعندما يعلم منها أنّ أباها مازال يُظلّلها، يستجوبها عن عمله وبعدما تُخبره بأنه معلّم يُعقّب على الأمر مستهزئا بعبارة ما شاء الله، معرضا في دخيلته برجل العلم، هذا الذي لا يُمارس مسؤوليته الأبوية فيرخي لابنته الحبل ويتساهل معها في أن تقضي الأيّام بل الأسابيع الطّوال خارج البيت بحجّة التطوّع الذي لا يُجيزه الإمام مطلقا، وتتوالى لديه إشارات الإنكار فيسخر من هذا المعلّم الذي جبن على فرض رأيه على ابنته حتى في هندامها فتسامح معها إلى أن وصلت إلى التشبّه بالرّجل.

ولا يتوقّف الإمام عن استنطاق الفتاة فيسألها عن أمّها إذا كانت ما تزال حيّة، وعندما تردّ عليه بالإيجاب وبأنها تعيش في كنفها، يتعجّب لهذه الأمّ التي كسرت أنوثة ابنتها ولم تُعرّفها بأنها امرأة، عليها من الواجبات ما يفرض عليها التّفريط في بعض الأحيان حتى في حقوقها، وما الضير في ذلك، أليست امرأة؟!.

واتّهم الإمام في سرّه هذه الأمّ ووجدها لا تختلف عن الأب المعلّم في تبريئها من سلطتها.

ويطير عقل الإمام منه والفتاة تُخبره بأنّ أمّها تمتهن عمل الحلاقة ولا يستوعب المعنى فيُمعن في الاستفسار، حلاّقة للرّجال؟!، وما أن تُفهمه بأنّ في المدينة حلاّقة للنّساء يتجمّد فاغرا فمه فيظهر جهله بالمدينة وما يحدث فيها لأنه لم يبرح القرية في حياته مطلقا، ولم يصل أيّة مدينة لأيّ شأن من الشؤون، فهو وُلد في القرية وتربّى وكبر فيها، فعاش بعيدا عن الدّنيا التي يعيشها النّاس بعد قريته، بل ربّما لم يجر حتى في خياله أنّ هناك عالما آخر يقبع وراء قريته هاته، مختلف في سبله الحياتية كلّها عمّا عهده.

ويظلّ تحقيقه مع الطّالبة مستمرّا "أمّك تلبس السّروال مثلك؟ أحيانا تُدخّن مثلك؟. لا، أمّي لا تُدخّن.

قال ثمّ سألتها وأبوك يعلم بمجيئك إلى هذه الدّشرة الجبلية مع ستّة شبّان !. قالت طبعا يعلم بذلك. وأضاف يقول أبوها معلّم، أمّها حلاّقة، هي متطوّعة مع ستّة شبّان. أفهمتم!"[1].

ويزداد نهم الإمام لمعرفة أخبار أخرى عن هذه الأمّ التي يراها مسترجلة، وما ابنتها التي أمامه إلاّ نسخة منها، وتُخيّب ظنّه لفظة "أحيانا" التي تستخدمها الفتاة ليَثْبُتَ أنّ الأمّ تُحافظ على أنوثتها.

ويمتعض الإمام وهو يسمع الفتاة تنفي صفة التّدخين عن أمّها فتبوء تكهّناته وافتراضاته بالفشل ويَتَعَلَّقُ غروره لمعرفة المزيد عنها.

ولكن على الرّغم من هذا فهو لا يكبح سيل استفهاماته ويعود متحوّلا نحو أبيها يبغي الاطّلاع على ماهية رأيه وابنته تخرج متطوّعة نحو قريتهم النّائية بمعيّة زملاء لها كلّهم من الشّبان، فتُجيبه بأنّ أباها على علم بكلّ ما تفعله وأنّه هو من شجّعها على المشاركة في هذا التطوّع.

لم يرق للإمام ما سمعه منها، فهو كان يرغب في أن تكون الإجابة بعكس ذلك حتى يُضيف إلى أخطائها خطأ العقوق لأنّها ابتعدت عن بيت أبيها دون علمه، فلا هي

---

[1] المصدر السابق، ص.80.

استأذنته ولا هو رخّص لها التّواجد مع هؤلاء الشّبان هناك، فتكون بهذا قد تجاوزت كلّ الأعراف الاجتماعية، وقبلها الدينية التي يقف الإمام مظهرا دفاعه وغيرته عليها.

ويصل الإمام إلى نتيجة يقذفها إلى الملتفّين حوله من الفضوليّين وهي أنّ المعلّم لم يُحسن تعليم ابنته، وقبلها لم يُحسن بمن يرتبط فتزوّج حلاّقة، عمل لا يعرف أهل القرية طبيعته. وأخيرا يستفسر المجتمعين حوله هل فهموا قصده وهو أنّ الطّالبة ماجنة ومستهترة، خرجت عن الأخلاق وعن الشّرع بفعلتها هذه. ويكون بهذا الإمام قد نجح في تنفير سكّان القرية من فوج المتطوّعين.

وينتقل الرّوائي إلى إسناد دور آخر للإمام حين يُنيط به تأليف القصص عن أهل المدينة الذين لا يكاد يعلم عنهم شيئا، وينتهز فرصة جهل أهل القرية لهم أيضا فيُطلق العنان لخياله ليُعدّد ويُنوّع في الحكايات، مبتهجا بتجاوب وتصديق المستمعين له وهو يُخبرهم "أنّ النّساء في المدينة يحلقن عاناتهنّ لدى حلاّقة، وأنّ المعلّمين يُرسلون بناتهم إلى المدينة للإخصاب، وأنّ بعض النّساء في المدينة يتزوّجن بستّة رجال. إذا قوام المرأة في المدينة ستّة رجال، فامرأتان قوامهما اثنا عشر رجلا !. وبهذا الحساب رجل واحد من الدّشرة يُساوي أربعة وعشرين رجلا من المدينة لأنّ رجل الدّشرة يستطيع التّزوّج بأربعة نساء!"[1].

ولا يستطيع الإمام إخفاء حقده على أهل المدينة في نظر الرّوائي وهو يُعرّض بهم رجالا ونساء وأطفالا، فيُفسّر عمل الحلاقة تفسيرا غريبا لا يمتّ إلى الحقيقة التي كانت قد قدّمتها له صافية من قبل، ولا يُحجم الإمام فيتّهم معلّم المدينة بأنّه ديّوث فقد الحياء وضيّع الخلق، فهو لا يكترث بمحارمه فيبعث بهنّ إلى البادية ليرتكبن الفواحش والكبائر، وهو في كلّ ذلك لا يعني إلاّ الطّالبة صافية.

---

[1] المصدر السابق، ص.80-81.

والإمام وهو يتّهم المرأة في المدينة بأنّها تتزوّج بستّة رجال دفعة واحدة يُبديه غير منطقي مع نفسه، ومع إدراكه لهذا الشّأن إلاّ أنه يورده كما صوّره له فكره البعيد عن السّواء والذي أكّد له صحّته وأدخله ضمن مسلّماته التي لا تُناقض.

وعندما يختار الإمام العدد ستّة إنّما يختلقه بناء على معنى محدّد يرتبط بذهنيته البيئية وكذا الدّينية، فامرأة المدينة لا تُعاشر في زعمه إلاّ ستّة رجال، فلا هي تُجرّب أن تُنقص عددهم ليصيروا خمسة ولا يُمكنها أن تزيد ليرتفع إلى سبعة لأنّ العددين خمسة وسبعة يكتسيان عنده مرّة سرّ القداسة، ومرّة كينونة تفكيرية، فخمسة تُشير إلى عدد الصّلوات اليومية وإلى الأركان الأساسية للإسلام، كما يتحوّل عنده أيضا إلى علامة دارئة للعين، أمّا سبعة فيرتبط لديه بعدد السّماوات والأرضين، كما يُشير إلى عدد ركعات صلاة العشاء بعد إضافة ركعات الشّفع والوتر، ويومئ العدد أيضا ليوم الجمعة اليوم السّابع من الأسبوع، كما يوحي إليه بركن الحجّ الذي يتكرّر في كلّ مراحله تقريبا العدد سبعة.

وذكاء الإمام لا يُماثله ذكاء وهو يقوم بهذه العملية الحسابية التي لم يكن يُريد منها إلاّ الوصول إلى العدد أربعة وعشرين المالك لصبغة القداسة هو أيضا والذي تمكّن من العبور إليه ارتكازا على العدد ستّة دون غيره، وهذا حتى يُطمئن المُتَحَلِّق حوله من أهل القرية ويُعيد إليه الثقة بنفسه وهو يؤكّد له بأنه أغلب في الميزان من رجل المدينة لأنه بإمكانه أن يرتبط بأربع نساء في الآن ذاته، وهذا ما يعني بأنه وحده يُساوي أربعة وعشرين رجلا من ساكني المدينة، وكأنه بهذا يوجد لنفسه مبرّرا يركبه يوصله إلى الزّواج مرّات أخرى إلى أن يُصبح هو أيضا يُعادل أربعة وعشرين رجلا من المدينة.

والإمام في هذره هذا المتواصل عن المدينة وعن الطّالبة صافية إنّما كان يبغي من ورائه صرف أنظار رجال القرية عن الفتاة، فلا يلتفت ولا يُعجب بها أحد، وقد قدح فيها هو الإمام الثقة ونعتها بكلّ صفات البذاءة والفحش، فتبقى الفتاة ملكا له وحده، فقد فُتن بأنوثتها النّاضحة التي هيمنت عليه وشغلت كلّ تفكيره وخياله، فأخذ يُكنّ لها في عمقه شغفا أرّقه، فلم يحسّ إلاّ وهو يعترف لذاته بأنّه "يشعر بحنان نحو هذه الفتاة. ودّ لو

سمحت له ظروف الدّشرة وتقاليدها لأخذ الفتاة الطّالبة إلى مكان ظليل يعرفه تُغطّيه أشجار البلّوط ويهبها كلّ ما يجري في عروقه من ماء الحياة والإخصاب، لكنّ المحزن أنّه لا يستطيع، ولو استطاع لتبرّع بنفسه للفتاة. أصيب بالأرق لكثرة ما كان يُفكّر فيها"[1].

وهكذا تنكشف طويّة هذه الشّخصية على حقيقتها، فكلّ أحاديثها المشينة واتّهاماتها الكاذبة لصافية أمام سكّان القرية كانت تنبض من قرارة تفيض إعجابا بها، فقد كان يشعر بتيّار من الحنان جارف يقوده إليها، فتمنّى لو تصير له فيعيش الحياة كما يُريدها لا كما تُريدها القرية المكبّلة لحرّيته بأعرافها البالية التي ضاق ذرعا بها، وبدت له هذه القرية التي كان يمتدحها سابقا، منفّردة لا تصلح لأن يعيش فيها المرء، تمنّى لو أنّه يعيش في مكان غير هذا، لو أنّه يعيش في المدينة، ولِم لا؟! حيث لا وجود لهذه الصّوارم القاتلة.

تمنّى لو أنّ الطّالبة نظرت إليه مرّة واحدة لا كما تنظر إلى الإمام، لرأت فيه الرّجل الميتّم بهاو لأدركت ما يتخبّط بداخله من مشاعر الحبّ، تمنّى لو تمنحه فرصة فيبوح لها بأنّه يُريدها ويُريد الاستئثار بها وحده فقط، تمنّى لو تُطاوعه فتُبادله حبّا بآخر، فهو لم يعد يهمّه عمل أمّها إذا كانت حلاّقة رجال أم نساء، ولم يعد يأبه بأبيها المعلّم الفاقد لسلطته، صافية وحدها التي صارت تعنيه.

ويضعف الإمام وهو يستحضر صورتها فيصحبها إلى مكان في القرية يعرفه جيّدا، تُغلّفه الأشجار ويلفّه الظّلّ، مكان لا يراه فيه أحد، وهناك يُعطيها من الحبّ ما اختزنته كلّ ذرّة فيه، فيحسّ الحياة التي لم يعرفها من قبل أبدا. وفي غمرة أمنيته هاته التي أشعرته بفرح العيش انقبضت أساريره وانحسر على ألم شديد يأمره بأن يتوقّف لأنّ القرية كلّها تنظر إليه وتتبع خطواته. أليس إمامها !. وفعل كهذا لا يجوز له ارتكابه ولا حتى التفكير فيه، فيستبعده ليستحدّث لنفسه أمنية أخرى تجعله يمتلك هذه الأنوثة المتعصّية، لو أنّها تلتفت إليه وترضى به لَمنحها نفسه وقد خلع عنها شكل الآدمية، طائعا غير مكره، فيقبع بين يديها عبدا ذليلا ينتظر منها الإشارة ليُحقّق لها ما تُريد دون ضجر أو تبرّم، وقد عاهد

---

[1] المصدر السابق، ص.81.

نفسه ألاّ يُفارقها أو يجعلها تُفارقه، فيكون متسامحا معها في كلّ الأحوال، مهما بدر منها من فعل، وإن لم يُعجبه.

وفي خضم هذه الأماني يُفجعه الحرمان ويُسقطه في هاوية ضعف بلا قرار، وعبثا تحايل وتحايل على خياله حتى يمحوها ليرتاح ولكنّ صورة صافية بقيت تُلحّ عليه ففارقه النّوم وبات ليلته بأكملها يُفكّر فيها ويبني لنفسه من الأحلام والآمال معها، فيسعد بتلك اللّحظات.

وتكتّم الإمام على ما يحدث له وشعر يوما بالاختناق فلم يجد بدّا من البوح بحالته هاته لأحد أصدقائه المقرّبين، معترفا أمامه بهيامه بها وأنه عجز عن زجر نفسه حتى لا يُفكّر فيها، فصارت شغله الوحيد يومه كلّه، وأنّ أنوثتها تُلاحقه مستيقظا نهارا وتُهاجمه نائما ليلا، فيراها ويحسّها، بل ويرجو أن لا يستفيق حتى يبقى إلى جانبها أطول زمن ممكن، ويحكي له حلما عاشه ذات ليلة إذ وهو في "بيته وإذا بالفتاة الطّالبة تملأ الباب بأردافها البارزة من سروال (الجين)، تتقدّم إليه تحتضنه وتبكي تبكي. يرقّ لها، يشعر لأنه صار كلّه حنان في ذلك الحلم، يقودها للفراش لكنه في اللحظة المشرفة على اللّذة القصوى يلمع سيف في القاعة على شكل برق. يفهم في حلمه ذاك أنّ السّيف هو أحد الأولياء"[1].

إنّ العقل الباطن للإمام اختزن صورة صافية بكلّ تفاصيل الأنوثة فيها وألحق بهذه الصّورة عجزه على أن تكون له في الواقع فيتمتّع بها، وهكذا فما كان غير قادر على فعله وهو مدرك، كان يتحوّر في عقله الباطن اللاّواعي ويتشكّل في هيئة حلم يُبيح له كلّ محظور في الرّاهن فيرتاح من وطأة الكبت الذي أصيب به منذ مجيء صافية إلى القرية.

فظهرت أمانيه في أحلامه وقد أرخى لها العنان فرأى صافية تقصده في بيته، تقف على بابه تنتظر وقد فاضت أنوثتها، فلم يعد يرى إلاّ أردافها التي يفضحها سروال الجين، ودون إذن منه تدخل عليه البيت، تتوجّه نحوه وتقترب منه وتقترب أكثر إلى أن لا يبقى

---

[1] المصدر نفسه، ص.82.

بينها وبينه إلاّ مسافة الارتماء في أحضانه وهي تنتحب وتُقرّ به، فيفهم الإمام من تصرّفها هذا أنها متيّممة به مثلما هو مغرم بها وأنها في حاجة إليه، فلم تعد تقدر على فراقه أكثر، فجاءته حتى بيته. وأمام منظرها هذا تصير أحاسيس الإمام شفّافة فلا يمتلك غير أن يضمّها إليه بحرارة ويُرافقها بمنتهى اللّين إلى الفراش، وهناك يروي عطشه من ذاك الجسد الذي طالما بهره واستهواه النّظر إليه وغالبه فغلبته تفاصيله فجمد مشدودا إليه وقد سُلب منه أمره فافتضح.

ومنحه عقله الباطن كلّ الحرية في أن يُمارس متعته ولكن عندما قارب على لمس اللّذة القصوى إذ بسيف يُشهر فينخطف بصره ويَنشلّ جسده، وهكذا يُحرم من أن يعيش اللّذة التي تمنّاها في يقظته، وما انفكّ يُريد أن يُحقّقها في أحلامه.

ويُفسّر الإمام لحظة الضّوء الرّاعد التي انتزعته من لذّته التي أوشك عليها بغضب أحد الأولياء –السبعة الذين يثوون في القرية– عليه وعدم رضاه عن ما كان يرتكبه من أفعال . ويبرز هكذا معتقد الإمام وقد تسلّطت عليه "فكرة أولياء الله الصّالحين وقدرة تصرّفهم أحياء وأمواتا"[1].

ويستيقظ الإمام مفزوعا صارخا وقد جفّ حلقه ممّا رآه، مذعورا وقد تسارعت نبضاته وتصبّب جسده ماء ممّا استقرّ في خاطره من تفسير لما رآه في حلمه.

وتبقى أنوثة صافية تأسر نفسية الإمام فصار كلّما يراها يسبقه الغضب فيُخاطبها بلهجة قاسية وكأنّه يلومها على أنّها لم تأبه ولم تحسّ بشعوره نحوها، وعندما تخرج صافية مع فوج المتطوّعين للبحث عن زميل لهم غيّبوا أثره يرمقها الإمام بنظرة غيظ شديد آمرا إيّاها بأن تلزم مكانها مع النّساء لأنّ مثل هذا الأمر هو من مهام الرّجال.

---

[1] عبد المالك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، دراسة في المعتقدات والأمثال الشعبية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص.22.

"عودي يا امرأة إلى البيت. ليس لك مكان بين الرّجال، أما يكفيكم ما جلبتموه لنا من كوارث؟ لقد غضب الله علينا وغضب أولياء المقام. عودي إلى البيت، لن نراك بعد اليوم هنا في هذا المكان وإلاّ حلّت بنا كارثة أخرى لا تُبقي ولا تذر"[1].

إنّ طريقة الخطاب التي يتوجّه بها الإمام إلى صافية يُعطي بها الحقّ لنفسه بأن يتحوّل إلى وصيّ عليها، فطريقة الأمر والنّهي الجادّة والجافّة تُعطي الانطباع بأنّ حديثه موجّه إلى زوجته لا إلى فتاة لا تربطه بها أيّة علاقة من أيّ لون كان.

ويتمادى الإمام في استعمال هذا الحقّ فيذهب يُذكّرها بأنّها امرأة على الرّغم من لبسها لسّروال (الجين) وتدخينها للسّيجارة، التصرّف الذي لم ينتزع منها أنوثتها بل أظهرها أكثر، وكان هو الإمام ضحيّتها، فطارت بلبه وسكنت خلده، فما اهتدى لوسيلة يطردها بها.

ويظهر الإمام وهو يُنبّه صافية إلى أنّها امرأة كأنّه يغار عليها، فلا يُريدها أن تختلط برجال القرية فتكون معهم. ويُخاطب الإمام صافية بلهجة الجمع حتى لا يُكشف أمره فيُحمّل ما حلّ بهم، بل ما حلّ به هو من كارثة استوطنت ذاته، فكان يُصارعها في كلّ وقت، وصافية منشغلة عنه بأمورها.

ويبدو من خلال طبيعة حديثه إلى صافية أنّ كارثة الإمام في نفسيته المتذبذبة المضطربة الخائفة التي تُداري خوفها بالاختفاء وراء ذهنيتها الدّينية فيُعلن أنّ الله غاضب عليهم وهو إنّما يعني غاضب عليه لأنه لم يغضّ بصره وأباح له التطاول، بل والطّمع في ما ليس له ولا يُمكن أن يكون له أصلا، وأنّ أولياء الله الصّالحين الذين لم يفقدوا صلاحيتهم بنظره، حتى بعد مغادرتهم لهذا العالم، غاضبون عليه أيضا، بدليل تلك ألأحلام التي كان يراها والتي كانت تُعاود إفزاعه.

ويُكرّر الإمام الأمر إلى صافية بلفظة "عودي إلى البيت" وكأنّه يُريد بها عودي إلى المدينة من حيث جئت حتى ينقطع أمله في رؤيتها ثانية، فهو كلّما وقع نظره عليها إلاّ

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، الجازية والدراويش، ص.143.

وتذكّر حالته فتألّبت عليه الأشجان والمواجع فتعيش دخيلته مرّة أخرى الكارثة التي لم يجد لها تفسيرا يحلّها ولا تصريفا يُزيح عنه ألمه الذي كان يتعاظم أمام عجزه عن مقاومته للتّخلّص منه.

2 -الانفجار: محمد مفلاح.

إذا كان بن هدوقة في روايته السّابقة الذكر "الجازية والدّراويش" قد جرّد شخصية الإمام من الاسم وعرضها نكرة فإنّ محمد مفلاح [1] ينتهج عكس مساره هذا وهو يُقدّم نفس الشّخصية -إمام القرية- فيمنحها اسما يُعلّمها ويُميّزها عن غيرها فتغدو معروفة بالسي عبد الحميد، هذا الإمام الذي وقع في حبّ رحمة، الشّابّة المراهقة ابنة الفحّام، والتي صنعت من زياراتها المسائية له طقسا لا تتخلّف عنه أبدا وهو قابع في مقصورة المسجد التي اتّخذها للاعتكاف وتعليم الطّلبة.

وهناك كان الإمام ينتظرها بلهفة الخائف من احتمال أن تنسى أو تتناسى موعدها معه، فيمضي ليلته وحيدا دونها، وفي لحظات التّرقّب تلك تحضر وهو ينظر إليها مقبلة نحوه، يُخاطبها مناجيا نفسه "أصبحت لي مخدّرا أُدمنه في كلّ حين غير آبه بكلام النّاس. بعد ذهاب أبيها تفرّ العصفورة إلى مقصورتي طالبة الدّفء"[2].

ويتبدّد ضيقه وهو يراها تتذكّره فتركض نحوه ويعترف أمام نفسه وعليها بأنّه صار أسير هذه المراهقة وأنّه لم يعد يقدر النأيّ عنها، فهي لذاته ذاك الممنوع الذي يودّه في كلّ وقت ويتحرّق للاستزادة منه، وهو يُريه ويُدخله حياة ما عرفها من قبل، فكان ينساق وراءه بإرادته ووعيه وهو مدرك عواقب ما يصنعه ولكنّه يفعله. فقد حوّل جزءا من المسجد، المكان المقدّس في قناعة الجميع، إلى مرتع مدنّس يشهد عليه وهو يعيش أوج نزواته ويخوض في مغامراته الشّعورية التي لم تكن تهدأ، فجعل يُفصّل منها حللا للإثم والخطيئة.

بعد أن أصبحت هذه المراهقة تجري منه مجرى الدّم فلا يملك قوّة توقيف سريانه ولا يجرؤ على الحدّ من أمر تجدّد دورانه، فهو لن يقبل فكرة أن تتغيّب عنه مهما حصل أو قد يحصل، فقد افتكّت منه لبّه، هذه الصّغيرة التي كانت تخونها التّجربة وتعوزها حيل

---

[1] الانفجار، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

[2] المصدر السابق، ص.30.

الدّنيا أمامه، هو الإمام المجرّب العارف الذي خبر الحياة وما خبرها، فعجز علمه الذي تبحّر فيه وتعاليم الدّين التي أتقن حفظها من أن تُلجمه فيكفّ عمّا يأتيه من أفعال يُناقض بها ما كان يتشدّق به ويُكرّره على أسماع أهل القرية من قيم ومعتقدات لم يعتنقها ولم يؤمن بصحّة شيء منها.

فقد كان بعلاقته بتلك المراهقة يُحرّضها على ترك البيت ليلا بعد أن يُغادره أبوها لضرورة الاسترزاق والعيش، وهو عارف بخطورة ما قد تتعرّض له الصّغيرة في جنح الظّلمة وهي تبغي الوصول إليه، وعارف أيضا بما قد يلحقها من مهانة وعقاب إن افتُضح أمرها، ولكن على الرّغم من ذلك فإنّ الإمام لا يأبه بهذا كلّه، فمتعته الخاصّة تسبق فتُلغي كلّ هذه الاحتمالات فلا تجول بباله مطلقا.

ولا يتراءى لنفسه إلاّ مخلّصا لها من سجنها الذي تُخاتل للخروج منه لتستطيب الأمان وتستلذّ الحرّية، نعمتان لم تجدهما إلاّ عنده ولم تعرف حقيقتهما إلاّ وهي معه. وهكذا يكون الإمام إنسانيا جدّا وفاعلا للخير، يفوق كلّ محسن، فينجح بمثل هذا التّفكير في التّسويغ لأفعاله.

ومقصورة المسجد التي تكون براحا لجنونيّاته ليلا تتحوّر إلى مجلس علم عندما يطلع النّهار، فيستقبل فيها مريدي العلم، وكان من ضمن هؤلاء أحد رعاة القرية الذي كان يتردّد على الإمام كلّما سمحت له ظروفه بذلك، ناشدا عنده المعرفة بشؤون الكتابة والقراءة.

وكان هذا الرّاعي مغرما هو الآخر بابنة الفحّام ولا يدري شيئا عن علاقة الإمام بها، وكثيرا ما كان الطّالب الرّاعي يُتعبه جدُّ التّعلّم فينصرف عنه ليُفصح للإمام باختلاجاته الرّوحية ويُخبره عن حبّه لرحمة وحبّها له، متوعّدا بالقتل كلّ من يُحاول الاقتراب منها أو استمالتها إليه.

وكان الإمام وهو يستمع إليه يُعقّب على حديثه في دخيلته "من هذيانه تعرف مدى الضّياع الذي بلغه ولكن لا أستطيع أن أتخلّى عنها. جئت متأخّرا. ألا تدري يا صديقي أنّي لا أخاف القتل، لقد متّ مرارا. جئت متأخّرا"[1].

ويستكشف الإمام أنّ له غريما ظلّ يجهل وجوده إلى أن أفصح عن نفسه، ولكن عندما عرفه لم يشعره بأدنى خوف، ولم يُضمر له غيرة أو حقدا لأنه غريم ضعيف في تصوّره، لا يرقى إلى مستواه ولا يجرؤ على منافسته، ولأنّ الإمام متأكّد من أنّ رحمة له وحده ولا يُمكنها أن تُعير غيره مجرّد النّظرة. لم يُساوره لحظة الشّكّ فيها والرّاعي يُخبره بأنّها تُبادله الحبّ نفسه. ويستمرّ الإمام في الاستماع إلى الرّاعي بإشفاق كبير وهو يراه يترك العنان لخياله فينسج له سرابا، يُصوّر له نبع الماء قريبا فيعيش راكضا نحوه، حالما بالوصول إليه.

ويُدرك الإمام بحسّه الخابر أنّ الرّاعي تائه لا يكاد يستبين طريقه، محموم لا يصحو فتتناوبه الخيالات والأوهام، ولا يقدر الإمام إلاّ أن يقول له في خلده بأنّه ليس مستعدّا على أن يتنازل عن رحمة لا له ولا لغيره حتى وإن جثا أمامه متوسّلا وتمسّح بأذياله باكيا، فقد تأخّر الوقت وقضي الأمر، فقد أحبّ هذه الصّغيرة وتعلّق بها ولن يسمح لكائن مهما كان أن يأخذها منه.

ويُصغي للرّاعي وهو يجهر بأنّه لن يتوانى عن إشهار السّلاح وإنهاء كلّ من يُفكّر في الدّنوّ من حبيبته رحمة، فيُعقّب الإمام عليه في سرّه أيضا بأنّه لا يخشى الموت لأنّه كان يُقتل قبل أن يعرف رحمة آلاف المرّات، أما وأنه بدأ يحيا مذ عرفها فلن يُضحّي بحياته مطلقا.

إنّ شجاعة الرّاعي التي كانت تجعله يُقدم على استجلاء مشاعره أمام الآخر، لم يكن يعرف لها معنى الإمام الذي عندما شكت به زوجته وواجهته بأنّه على علاقة بامرأة أخرى، ارتعب وفقد رويّته وانهال عليها ضربا. يقول عن هذه الحادثة "أشدّها من لباسها المهلهل

---

[1] المصدر السابق، ص.15-16.

وأدفعها. أصفع زوجتي تهرب راكضة إلى الغرفة. تبعتها، كانت مستلقية على الفراش وهي تبكي. أجذبها من منديلها الطّويل. انهضي، انهضي، ماذا تعرفين"[1].

يبدو من رواية الإمام هاته أنّ الشّعور الجميل ما بقي يربطه بزوجته وأنّه قد غيّب علاقته بها وقطع أسلوب الحوار بينه وبينها على الرّغم من أنّ هذه الزّوجة مازالت تكنّ له من الودّ ما يُشعل الغيرة في قلبها عليه وأنّها كانت تنتهج معه سبيل الحوار، حتى وإن كان في ثوب اتّهام له بخيانتها.

غير أنّ الإمام الذي هو القدوة والذي وجب عليه أن يُجادل بالتي هي أحسن تناسى أو نسي هذا وهو يؤدّب زوجته بتلك الطّريقة الهمجية والوحشية وكأنّه يُبلّغها أنّه يمقتها وما عاد يودّها وما أصبح يستسيغ وصايتها عليه، وهو يروي تفاصيل العقاب الذي سلّطه على زوجته لا يظهر عليه أيّ أسف ولا يتفوّه بعبارة ندم واحدة.

فقد أمسكها بقوّة من ثوبها المهلهل، ويأتي وصفه للثّوب بأنّه كان مهلهلا ليُدينه باعتبار أنّه لم يكن يوفي زوجته حقّها في الملبس حتى استحال ما تُخفي به عورتها رثّا باليا من طول ما استُعمل فصار لا يفي حتى بغرض السّتر.

ويظهر الضّعف الكبير للزّوجة بدنيا مقارنة بالإمام الذي كان يدفعها ثمّ في ذات الآن يجذبها إليه ويصفعها بكلّ ما يُبطنه من غلّ عليها، فلا تقدر أمام قوّته إلاّ أن تجري لائذة محتمية بغرفة أخرى تنتحب فيها، ولكنّ هروبها هذا لا يُجديها نفعا فقد لاحقها الإمام غير مكترث بدموعها فأخذ يجرّها من المنديل الذي كانت تُغطّي به رأسها فبدا له طويلا وهو يستعجل إسقاطها من على السّرير الذي استلقت عليه تبكي حالها الذي هي فيه، وبعد أن يرميها أرضا يأمرها بأن تقوم وبسرعة وهو لا يتوقّف عن استنطاقها ماذا تعرف عن الأمر، وكيف عرفت، ومن أخبرها. واختلط بدخيلته شتات من مشاعر الحيرة والخوف والقلق والجبن والنّدم على أنه لم يحتط لنفسه بما يكفي فيجعل حتى المقرّبة منه وهي زوجته لا تحسّ بشيء.

---

[1] المصدر السابق، ص.13.

وتسمّر لحظة في مكانه وهو يتمثّل نفسه وقد غدا نكتة جميع أهل القرية ومثار ضحكهم وتنابزهم وتغامزهم، فيفقد بذلك هيبته فيهم واحترامهم وتبجيلهم إيّاه. ويُخاطبه صوت الإمام فيه يزجره على ما فعله ويفعله "تُداعب قلبي مشاعر حبّ فيّاض. رحمة أضحك. رحمة المراهقة التي تنام بين يديّ لا تعرف الحرام، البريئة، ولكن أنا الكهل، الإمام المحترم المتبحّر في مسألة الحلال والحرام"[1].

ويصحو ضميره النّائم ليُمارس عليه صلاحيّاته من جديد فيهزّه بعنف على ما يقترفه من دنايا ويُذكّره بأنّه الإمام الذي حاز وقار الجميع الذين راحوا يشهدون له بالتّقوى والورع. هو الإمام قبلة الكلّ، يأتونه ليستفتوه في أمور دينهم وصلاح شؤونهم الحياتية. هو الإمام الفقيه في الشّرع، العارف بما أبيح وبما حرّم، فلا يحتاج لمن يُعلّمه قضايا الدّين التي أدركها بعد أن درسها وتعمّق فيها، فميّز كلّ أنملة فيها. هو الإمام الكهل المحصن الذي بلغ من العمر ما يؤهّله لأن يضرب صفحا عن مثل هذه الزّلات فلا يقربها ولا ينظر إلاّ إلى زوجته التي تحلّ له.

ويستمرّ ضميره في توبيخه ويُحمّله مسؤولية أنّه أسقط في الإثم طفلة بريئة وجرّها إلى الحرام بعد أن غرّر بها باسم شعور الحبّ الجارف الذي لم يستطع مقاومة روافده المتدفّقة التي لم تكن تنقطع. وبقي الإمام يصغي إلى ضميره وهو يُعرّي أمامه أخطاءه ويأمره بأن يرجع عن غيّه ويعود إلى رشده ويُبادر فيُفهم تلك الطّفلة التي أوقعها في شركه أنّ ما يقومان به إنّما هو عصيان عظيم وجب التّكفير عنه وعدم إتيانه، فيضع حدّا لتلك العلاقة المشبوهة التي إن استمرّت فستجلب له عقاب خالقه ووبال أهل القرية برمّتهم إن هم عرفوا الخبر وتأكّدوا من حقيقته.

ويعيش الإمام لحظات وجل رهيبة وضميره يسائله ويُحاسبه ولكنّها لم تكن إلاّ لحظات وإذا بالإمام يُدير ظهره لهذا الضّمير المزعج فلا يسمع منه المزيد، وقد قرّر أن لا يُضحّي بحبّه لهذه المراهقة، مهما كانت النتائج.

---

[1] المصدر السابق، ص.27.

وهذه سمة "الذّات المفكّكة التي هي نتاج لجميع الالتواءات والتناقضات في الحياة"[1].

وبقدر ما كان الإمام عنيدا، كانت زوجته لا تملّ من مراقبته وقد آلت على نفسها ألاّ تضبطه إلاّ متلبّسا، وكان لها ما أرادت حيث فاجأته ذات يوم رفقة عشيقته في مقصورة المسجد فانهالت عليها ضربا والإمام يقف مشدوها، فاقد الحركة، يكتفي بالتّفرّج على ما يحدث. وعندما انتهى المشهد وانفضّ الجميع يُقرّر الرّجوع إلى البيت ليؤدّب زوجته ولكن هذه المرّة بأبشع قسوة ممكنة، وهو يقطع المسافة الفاصلة بين المسجد وبيته كان يُحدّث ذاته "زوجتي لم تملأ الفراغ الذي أشعر به، وهي الآن تُحارب الضّياء التسلّل إلى أعماقي. ستنقطع رحمة عن زيارتي، ستتركني وحيدا في وقت أنا محتاج للعواطف النّارية"[2].

ولا يتعب ذهن الإمام كثيرا فيجد المشجب الذي يُعلّق عليه كلّ خطاياه ويُحمّله كلّ ما وقع فيه من عصيان، هي زوجته، ومن غيرها، هي التي لم تُشعره يوما بالحبّ ولم تقدر أن تُحبّه بالطّريقة التي يتمنّى ولم تحتوه رعاية كما كان يشاء، فيبقى في كنفها وديعا مطمئنّا، هي التي لم تعرف كيف تروي الكائن الظامئ للحنان فيه ولم تُحاول أن تُرمّم ما كان يحصل فيه من تصدّع أخذ يكبر يوما تلو الآخر، فكان أن تشكّلت الهوّة السّحيقة بينه وبينها فأصبح كلّ واحد يعيش في ضفّته التي تمنعه من الاقتراب أو الوصول إلى الآخر، حتى وإن جاهد، وزوجته في نظره لم تكن من ذاك النّوع الذي يُصارع من أجل أن يمكث، بل من النّوع الذي يشتهي الاحتفاظ بما لديه لأنّه صار لديه وكفى وعنادا، فهي تقف في طريق كلّ من تُسوّل له نفسه الاستحواذ عليه، وهكذا يتّهم الإمام زوجته بأنّها كانت وراء تطلّعه لأخرى وأنّها هي من تسبّب في عثرته وسقوطه في الحرام، ومن ثمّ فالمجرم هنا هي زوجته والضّحية هو ويَسْتَلٌّ هكذا نفسه بريئا يطلب التّعويض.

ويشعر الإمام بحنق شديد نحو زوجته التي لم يكفها أنّها صيّرته حيّا ميّتا، بل راحت تزيد على ذلك فتُتابعه وتقتفي خطواته لتعلم أين ذهب، ومن أين وصل، وبمعيّة من كان،

---

[1] عبد السلام حيدر، الأصولي في الرواية، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص.97.

[2] محمد مفلاح، الانفجار، ص.32.

وهي في منطقه الآن لا حقّ لها عليه بعد أن عثر على النّور الذي أضاء نبضه وملأ شعاعه كلّ مساحاته وأرجائه، فحوّله إلى كائن حيّ يحيا زمنا فاته، وزمنا هو فيه، ويحسّ الزّمن الآتي، فيتذوّق ويستطيب طعم الأزمنة كلّها ولا يأسف على ما فات لأنّه في الواقع لم يفت.

ثمّ يضطرب فجأة وهو يُسرّ ذاته، فيُجزم أنّ رحمة ستتحلّل من مواعيدها المسائية له بعد الذي ارتكبته زوجته في حقّها، وإذا قطعت على نفسها ألاّ تراه ثانية فسيُخلّف وحيدا وهو يخاف وحشة الوحدة، فقد كابدها ردحا من وجوده قبل أن يُقابلها ويعرفها، وأنّها إن قرّرت ذلك فستقضي عليه بالعودة إلى التّابوت الذي كان محنّطا فيه، وهو لا يقوى الآن على تحمّل ثلج التّابوت بعد أن ألف حرارة الحياة وتعوّد على ما تؤجّجه فيه رحمة من أحاسيس. هي وحدها من يُجيد إشعال فتيلها، وهو لا يُفكّر مطلقا في أن يعيش محروما من تلك التي تصنع من ذاته كتلة ملتهبة تهبه روعة الحياة ووهجها.

وظلّ الإمام كلّما مرّت بوعيه فكرة افتقاده رحمة وأنّه سيعود إلى أيّام الشّقاء مع زوجته، أيّام بساعاتها الطّوال المملّة التي لم تكن تنقضي إلاّ وهو يُقضى عليه معها.

ولكن يظهر أنّ رحمة هي الأخرى كانت تلهج بشخص الإمام، فلم ترتدع بعد الضّرب الذي أذاقته جسدها زوجة الإمام، ولم تُعر تهديداتها وتوعّداتها أقلّ بالا يذكر، وعادت لتزور الإمام كعادتها في مقصورته بالمسجد وهي تطوي الخطو عدوا إليه في ليلة مظلمة، زادها مطرها حلاكة. ويسترجع الإمام ما حدث في تلك اللّيلة بينه وبين تلك المراهقة "ليلتنا كانت انفجارا رائعا في غرفة مظلمة والأمطار تهطل، فالذي قمت به في هذا اللّيل الماطر سيجلب لنا سخط القرية والعالم"[1].

ويتعمّد الإمام استرجاع ما حدث في تلك الدّجنة وكأنّه يُريد أن يعيشه ثانية بخياله بعدما عاشه في واقعه ليشعر بلذّته تارة أخرى وكأنّ لذّته الوقتية لم تكن تكفيه، فرام الاستزادة منها فاستفزّ لاوعيه حتى يُقدّم له اللّذة تلك في أوج اكتمالها، فيشبع بذلك جوعه من الأنثى التي لم يصل إلى كنهها على الرّغم من أنه خبرها عندما جرّب الزّواج.

---

[1] المصدر السابق، ص.40.

وهو يتحدّث عمّا وقع يُبسّطه بكثير من الخيلاء والإعجاب بذاته، فقد كانت اللّيلة جميلة تتعالى عن الوصف، بل هو الذي كان متميّزا، فقد أحسّ أهميّته وحقيقة مكانته المدهشة التي بهر بها المراهقة، فانقادت لِما زيّنه لها وسلّمته الأنثى فيها طواعية. الإمام الذي لا يُمكنه أن يُلحق الضّرر بأحد. أليس هو الإمام الذي يتبعه النّاس ويمشون خلفه فيما يُريد لأنه لا يخفي عداء أو بغضاء أبدا لأيّ كان لأنّ نيّته بريئة من أيّة شبهة!.

ومن هنا فإنّ الإمام يقف في سواد تلك اللّيلة على أقصى درجات الخيانة وهو يغتصب ضحيّته المراهقة المحبّة المستكينة له، محسنا في ذلك اختيار المكان والزمان، فمقصورة المسجد لا يُمكن أن يقصدها أحد لأنّ المسلك إليها في ذاك البهيم من اللّيل لا يُستوضح، وحتى وإن حدث وهمّ أحد قاطني القرية بالمجيء إلى المسجد فلن يفعل لأنه يكون متأكّدا أنّ الإمام في تلك الأثناء المتأخّرة من اللّيل لن يتواجد إلاّ في بيته، خاصّة وأنّ المطر لم يكفّ عن الهطول، فأعاق أهل القرية جميعهم فلزموا بيوتهم لا يُغادرونها، يتلمّسون فيها الدّفء والسّلامة.

ويستطيع الإمام في هذه الأوضاع أن يُفجّر رجولته فيُعلنها لنفسه ويكشفها للمراهقة تحت أجنحة الظّلمة، وعندما يُنهي الأمر يصحو ضميره متأخّرا كالعادة ليقول له إنّ فعلته إن عُلمت فإنّه لن ينجو من غضب أهل القرية وشرّهم، وأنّ ما سيُسلّط عليه من عقاب لا يُتصوّر مداه. ولم يُفطنه ضميره النّائم الصّاحي إلى قضيّة الحلال والحرام هذه المرّة وكأنّه سلّم بأن لا جدوى معه في إثارة متناقضة الحلال والحرام لأنّ الإمام قد عادى الحلال وغاصت قدماه في وحل الحرام، فرهب عقاب البشر وأغمض الطرف عن القصاص الإلهي بعد أن تملّصت منه ذاكرته وتناثرت منها قواعد الشّرع الذي تعلّمه، وكان به الإمام المبجّل.

وبعد تلك اللّيلة تهرب رحمة من القرية خشية أن يُفتضح أمرها فيتداول حكايتها رجال القرية ونساؤها، وعندما يتناهى الخبر إلى الإمام يفقد صوابه وتُصبح تصرّفاته غريبة ويفقد السّيطرة على أفعاله وهو يُدعى إلى عرس من أعراس القرية، فيدخل حلقة الرّقص مع الشّباب ولا يتحرّج، فيقذف بعمامته بعيدا وكأنّه يتبرّأ من الإمامة ليُصبح كغيره من البشر،

فلا تُحسب عليه أفعاله ولا يُراقب الآخرون سلوكاته، ويستغرقه الرّقص حتى يُرديه مغشيّا عليه ثمّ يُغادر العرس بغصّته التي لا يعلمها أحد، فقد أدخلته رحمة زنزانة الوحدة من جديد وهي تمضي بسرّه وسرّها إلى وجهة يجهلها، ويتوجّع الإمام ويصل إلى قمّة يأسه، فيُشاهد وهو يُعانق شجرة ويصرخ مناديا رحمة!.

3 -السعير: محمد ساري.

أمّا شخصية الإمام في السّعير[1] فلا يُكسبها فعل التّسمية إن اكتسته أدنى أهمّية لأنّ ما يجعلها تتفرّد هو كلّ ما تتبنّاه من أقوال وسلوكات، وما تعتنقه من معتقد، تسعى لإشاعته ونشره حتى تُصيّره أساسا يحكم ويَحتكم إليه الجميع في أمر كينونتهم التّعاملية، دون جدل أو استفسار، فتتشكّل هذه الأسس لتتّخذ قوالب المسلّمات التي تُرغم الكلّ على أن يدين لها بالولاء باعتبارها تلقينات الإمام وإملاءاته، وبالتالي فبقاء هذه الشّخصية غير معلّمة لم يؤثّر على المسار العام والخاص للصّيرورة الحدثية.

ولا يُحسن هذا الإمام إلاّ أن يحمل عصا التّرعيب وفي كلّ الأوقات متوهّما أنّه إنّما يقوم بالنّصح والوعظ حتى وإن كان الشّأن الذي يُثيره لا يستدعي الفكرة الوعظية، فينتدب نفسه فيُحرّم ويُحلّل كيفما بدا له، فهو مثلا يعدّ الذي يمتلك السّيارة أو يركبها قد ارتكب السّيئة التي لا تُغتفر، ووجبت عليه التّوبة بعدم العودة إليها لأنّها "رجس من عمل الشّيطان لأنّها الوسيلة المناسبة والمكان اللاّئق ليخلو رجل بامرأة ويقومان بارتكاب الزّنا، لذلك فهو يُفضّل امتطاء الحافلة العامرة حينما يُسافر بعيدا مع عائلته"[2].

فركوب السّيارة في مفهوم الإمام يُوازي شرب الخمر ولا يفترق عن الجلوس حول طاولة لعب القمار، ولا يختلف عن السّرقة، وأنّ الذي فكّر في اختراع السّيارة ومضى يعمل نهاره ويكدّ ليله حتى رآها تُصبح حقيقة للعيان تؤدّي غرضها إنّما هو شيطان لم يفعل سوى أن ركّب أداة جديدة من أدواته وقذف بها نحو البشر، ليُبعدهم عن قيم الدين

---

[1] محمد ساري، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1986.

[2] المصدر السابق، ص.140-141.

ومُثل العقيدة، ويُفتي الإمام بعدم جواز ركوبها مهما كان الغرض لأنّ مجرّد نيّة التّفكير في استعمالها هو مروق عمّا يرضاه الدّين.

فالإمام صعُب عليه إدراك ما تكون قد أهدته السّيارة للبشر من منافع باختزالها للبعد، ومن ثمّة إشعارهم بالرّاحة وهم يستقلّونها من مكان إلى آخر دون ضنك أو مشقّة، كما أنّها تتحوّل إلى نجدة يُلجأ إليها فتكون خير عون على الإطلاق.

وبهذا فالإمام قد تقزّمت نظرته بحيث استعصى عليه تلمّس منافعها واستيسر عليه بأحادية ضيّقة أن يراها تستقيم ماخورا بما تؤمّنه من أسباب الخلوة بين المرأة والرّجل، فيُصبح سهلا عليهما الانحدار إلى خطيئة الزّنا، وبهذا تتساوى السّيارة عنده مرّة أخرى بموبقة الفحش التي ما كانت لتكون لو لم يهتد الشّيطان بأساليبه إلى اختراعها وإغراء الآدميّين بها.

وكأنّ فعل الزّنا مرتبط لديه بوجود السّيارة وأنه لم يكن موجودا قبلها، وعلى الرّغم من أنّ الإمام مطّلع على حقيقة هذه الجريمة وأنها تكون قد اجتُرحت قبل آلاف السّنين من تمثّل السّيارة إلاّ أنّه لا يكفّ عن المغالطة وتبديل الأمور.

ومن هذا المنطلق الذي يبدأ منه الإمام فإنّ السّيارة ليست للرّكوب والتّنقّل، ولا هي وسيلة يقضي بها النّاس أغراضهم وحوائجهم المستعجلة والضّرورية في أمان يُزيل الكلل. ويستحيل وفق هذا أن تُقدّم السّيارة أدنى خدمة مدعاة، بل كانت وستظلّ حيّزا لإتيان ما حرّمه الله على عباده ويتكبّل تفكير الإمام بهذا الغلّ المُحْكِم فلا يؤمل فكّه.

وبالمقارنة مع هذا يُعطي بديلا تحرّكيا أو تنقّليا آخر هو الحافلة، فيُهلّل لها ويجهر بأنّه من أنصارها ومشجّعي استعمالها لأنّها مكان مكتظّ بالنّاس ولا تحدث الخلوة فيه أبدا، وعليه فلا شبهة ممكنة، ولذا فهو إذا ما عزم السّفر وحده أو مع عائلته فلا يستقلّ إلاّ الحافلة لأنّ الذي فكّر في صنعها قد يكون ملاكا أو قدّيسا لأنّه قطع على الشّيطان طريقه.

ويظهر بجلاء أنّ تفكير الإمام لا عقل له، فهو إن استقلّ فرضا سيّارة للسّفر مع عائلته ماذا كان سيحدث؟، هل كان سيختلي بنساء أخريات فيوقعنه في الخطيئة، أم كان أحدهم سيختلي بزوجته وهو معها حاضر، فيوقعها في البغاء على مرأى منه؟.

ويبقى الموقف هذا من الإمام ربّما إجابة لمن يكون قد سأله لماذا هو متحرّج من استعمال السّيارة في تنقّلاته، فلم يعثر للسّؤال إلاّ على هذا اللاّمقنع من الرّدود، وقد يكون الأمر يحتمل حقيقة مخفية غير هذه كأن يكون ركوب السّيارة باهظة تكلفته عليه، ولمّا كان يُناسبه الأرخص اتّجه إليه على الرّغم ممّا قد يُعانيه فيه من مضايقات وتعب.

وقد يكون هذا التّفضيل من منطلق الشّحّ الذي زيّن له القبيح فظهر له الأمثل شائنا، فأعلن تأييده للأوّل ونفوره من الثّاني، واستساغ لغيره أن يمشي على آثاره وهو القدوة كلاما وفعلا، المستحسن والمترفّع عن ارتكاب الغلط بمقياسه.

وقد يُفسّر الموقف هذا من الإمام من باب الحسد والغيرة التي يُضمرها للآخر الذي تسمح له مادّياته باقتناء هذا اللّون من الرّفاهية، بينما يستمرّ هو ينظر إليه وقد تآكل قلبه غيظا وفاضت دخيلته شرّا، وحتى يعيش هو مطمئنّا فلا يسطو عليه هذا الشّعور المقيت ضدّ الآخر فيموت بكمده.

تجرّأ على تجريم كلّ من يمتلكها أو يُفكّر في ذلك لأنّه يأتي بحيازتها فعلا شيطانيا يُغضب الله، وبهذا يقطع السّبيل على الجميع بحيث يكونون كلّهم مثله لا ينعمون بهذه الرّفاهية.

ويستغلّ الإمام جهل العامّة التي لا تعرف أمور دينها ويشرع في اختلاق القصص وتلفيقها للأنبياء، مستعرضا براعته في العلم بشؤون الدّين، مظهرا فقهه الذي يتفوّق به على الكلّ. وكان مولعا بإيراد إحدى تأليفاته التي من تكرار ما سمعها الآخر صار يحفظها ويقف عند الصّغير من تفاصيلها، وهي رواية "الجمجمة التي صادفها النبي عيسى عليه السّلام وشرعت في الكلام قائلة أنّها كانت ملكا على أقوام كثيرة، واصفة لحظة خروج الرّوح من جسم الملك المتجبّر وأنّه لولا سبعون ملكا أمسكوا به بقوّة، عشرة قبضوا على

يده، وعشرة جلسوا على صدره، وعشرة أمسكوا برجليه، وعشرة دخلوا جوفه، وعشرة التصقوا بلسانه، لأطلق صراخا يفزع منه كلّ الحيوانات الموجودة على الأرض، ناهيك عن البشر الضّعيف الخائف، وزعزع كلّ جبال الأرض بحركة يدوية ورجلية من قوّة سكرات الموت"[1].

إنّ الإمام يمتطي صهوة الزّعم وهو يحكي مرويّته فلا يُبقي من الملك المتخيّل إلاّ جمجمته التي سيعثر عليها النبي عيسى عليه السلام وكأنّ الإمام قد عرف أنّ جمجمة الإنسان في حياته متعلّقة بها كينونته المادّية كلّها، ففي الجمجمة يتموضع الدّماغ الذي يُسيّر آليات الحواس جميعها، وفي الجمجمة تسكن أدوات جهاز الصّوت التي تُحدث بتضافرها وتعاونها النّطق، ومن ثمّة الكلام، ولهذا فهو يُقرّر أن لا تتلاشى مثلما اندثر باقي هيكل الملك العظمي حتى يُسند إليها مهمّة التوصيل والإبلاغ وحتى يصبغ زعمه أيضا بطلاء المعقول فيُصدّقه الآخر الذي ينصت إليه، إذ من غير المفترض أن تضطلع بعملية الحديث عظام اليد أو الرّجل أو القفص الصّدري أو غيرها من العظام السّندية لجسم الإنسان أثناء حياته لأنه في هذه الحالة سيُنكر عليه الآخر هذا ويُمطره بوابل من الاستفهامات التي هو في غنى عنها لعدم امتلاكه الإجابة عليها.

وهكذا تنطق الجمجمة لتُعلم سيدنا عيسى عليه السلام بأنّها كانت لأحد الملوك الجبابرة الذي بسط يده ليضمّ تحت نفوذه خلقا كثيرا من النّاس وأنّ مملكته امتدّت لتستحوذ على مساحات لا تُحدّ، فتطول مسافاتها على مرمى البصر اللاّمنتهي.

وأنه كان يتمتّع بشدّة وبأس لم يحظ بهما أحد من البشر، فحوّلته قوّته هاته إلى متغطرس عنيد يستأسد على الآخرين بإغماطهم حقوقهم، فلم يسلم منه أحد، فحدث أن أضمروا له الضّغينة، فكانوا يبيتون وهم يتمنّون زوال ملكه ويُصبحون وهم يتوقّعون خبر انقضاء عيشه، ولم يكن الملك من الخالدين فجاءته ذات يوم لحظة الرّحيل عن الدّنيا،

---

[1] المصدر السابق، ص.159.

فأوكلت مهمّة سحب روحه من جسده إلى سبعين ملك، توزّعوا على جسمه بالنّظام العشاري.

فعشرة ضغطوا على صدره حتى يكتموا نفسه فلا يقوى على النّهوض والقيام، وعشرة استوطنوا جوفه، وعشرة قبضوا على يده، وعشرة شدّوا رجليه، خمسة تولّوا الرّجل الأولى وخمسة اهتمّوا بالرّجل الثّانية، وعشرة ألجموا لسانه وإلاّ لكان أصدر صوتا منكرا يصل صداه المفزع إلى كلّ كائنات الأرض بمن فيهم البشر المنهكون، ولحرّك كلّ رواسي الأرض وهو يضرب بيديه ورجليه.

ويبدو فكر الإمام مفرطا في الجهل وهو يتصوّر، بل ويؤمن بمثل هذه الخزعبلات ويعمل على توريثها للآخر بكلّ ما يُثقلها من ادّعاء وكذب، وقد غاب عنه هو الإمام أنّ ملك الموت واحد: "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم" [1]، وهذا مهما كانت شدّة البأس التي تفيض من الكائن البشري.

وعلى الرّغم من كلّ هذا الإبداع فإنّ الإمام خانته العملية الحسابية فلم تستقم معه ولم يصل إلى العدد المكذوب وهو سبعون، بل كان النّاتج هو خمسين فقط، وعندما ارتفع صوت أحد الحاضرين يستفسر عن دور العشرين ملاك المتبقّية، يُعيد الإمام الحساب من جديد وهو مصرّ على العدد المتوهّم، ويبقى يُكرّر العدّ إلى أن يجهر أحدهم بأنّ العشرين الباقية مهمّتها قبض الرّوح الصّاعدة إلى بارئها.

يُعجب الإمام بهذا التّفسير ويطمئنّ إليه ويصير كلّما ذكر هذه الحكاية إلاّ وأضاف إلى المجموعات العشارية السّابقة مجموعة عشرينية يأتمنها على قبض الرّوح الخالدة.

ويسأله مرّة أحد الشّباب الذين كانوا يؤمّون مجلسه عن معنى الرّوح، ومن أين تخرج؟، فنهره بعنف آمرا إيّاه بأن يصمت فلا يعود إلى هذا أبدا "أسكت يا واحد الشّيطان. أنت ارتكبت سبعة وسبعين ألف سيّئة بطرحك هذا السّؤال. استمع وتمعّن في أسرار ربّك

---

[1] سورة السجدة: الآية 11.

ولا تسأل. من تفلسف تزندق، قالها سيدنا الإمام الفقيه العلاّمة الغزالي، وهو أدرى الفقهاء، لكونه تفلسف فتزندق ثمّ تاب بعد التّهديد. صحيح ولكنّه تاب. هذا هو المهمّ"[1].

لقد اتّخذ زجر الإمام للشّاب أبشع صورة وهو يُلقّبه بالشّيطان وكأنّه باستفهامه ذاك قد وقع في نفس العصيان الذي سعى إليه الشّيطان عندما جهر بالخروج عن طاعة الله بعد خلق الإنسان، فاستحقّ بذلك اللّعنة الرّبانية والعقاب الأبدي الذي هو واقع عليه لا محالة.

ولا يرغب الإمام في أن يسمع الشّاب فيُطالبه بأن لا يتفوّه بالمزيد لأنّه قد جنى على نفسه وجرّ إليها سبعة وسبعين ألف ذنب، قُيّدت كلّها في سجّله ولن تُمحى لأنّ التّكفير عنها مستحيل، فهذا النّوع من الاستفسار هو لون من الكفر بالخالق.

ويُنزل الإمام العدد سبعة محلاّ خاصّا، فهو يبدأ بالسّبعة الأولى نقطة مركزية ثمّ يفرع منها العدد نفسه عشر مرّات ليعود إلى السّبع الأولى، فيخرج منها ساق الأَلْفِ، ويرجع إلى السّبعات العشر فيحدّها بنصف دائرة يمنحها قدر الأَلْفِ أيضا، ليغدو الشكل تقريبا كالتالي:

الشكل:

شجرة وهي التي أغوى بثمرها الشّيطان سيّدنا آدم فأخرجه من الجنّة هو وزوجه، وارتضى لهما الأرض مستقرّا إلى حين. وعندما تقرأ الشّجرة من أسفل إلى أعلى المركز تكون سبعة آلاف، وتكون سبعين ألف عندما تُضاف الأغصان إلى نصف دائرة الأَلْفِ، ويُصبح المجموع بهذا سبعة وسبعين ألفا، وهو عدد الآثام التي لحقت الشّاب السّائل ووازته بالشّيطان.

وكان سهلا على الإمام أن يُجيب ذاك الشّاب دون أن يلفّ به هذه الدّورة كلّها ثمّ يُبقي الاستفسار معلّقا، حاثّا إيّاه على الإصغاء فقط والتّدبّر في المعجزات الإلهية باعتبار

---

[1] محمد ساري، السعير، ص.160.

أنّ الإجابة جاهزة وحاضرة في النّص القرآني "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"[1].

وحينما يعجز الإمام عن إيراد الحجّة يبدأ فكره في إخفاء ضعفه بالقفز من أمر إلى آخر، ومن موضوع إلى غيره، فيُصنّف ما طرحه الشّاب في خانة الفلسفة الملحد مريدها، ويُواصل فكره شطحاته فلا يسلم منه حتى الإمام الغزالي فيتّهمه بأنّه هو الآخر مرق عن الدّين عندما أقدم على البحث في المسائل الفلسفية، وأنّه لولا التهديد الذي تعرّض له فخشي على نفسه الموت ما تراجع عمّا كان فيه، ولا أعلن توبته منه.

وهكذا فإنّ الإمام لا يترك مبرّرا واحدا للمغالطة إلاّ سلكه حتى يُداري فشله، فلا يكشف الآخر أمره فيُنزله من على كرسي الإمامة، فيصير مثله مثل بسيطهم، وهذه حال يستشنع الإمام حتى أن تمرّ بخياله، فقد استطاب أن يكون المقدّم فيهم، الذي يطلب ودّه ورضاه الكلّ، فيُبجّل في المناسبات الخاصّة والعامّة، السّارة والأليمة، ويُحترم وتكون له الحظوة فلا يُستثنى من أيّ مجلس، فيأتمرون بأمره ويستمعون لكلمته ويُقرّون رأيه، فيكون هو المسيّر لأمور عيشهم الدّنيوي والدّيني.

وإن خُلعت عنه هو الضّعيف الحجّة كلّ هذه الهالة، هل كان سيرضى بأن ينسى ما ألفه ويتنازل عمّا حازه؟. بطبيعة الأمر لا، ولذا فهو كلّما استشعر قدوم الخطر الذي يُجرّده من كلّ امتياز رفعه، فتح أبواب التّكفير والتّحريم ولفّها بكثير من اللّغط والصّخب ليسلم هو ويستمتع بالرّاحة ويستكين إليها وتدوم معه إن هو أسدى للآخر ما يحسبه وعظا ومَنَّ عليه بما يزعمه نصحا وإرشادا، فكان ضميره يزفّ له التّهاني ويُبشّره بأنّه من الأخيار دونما شكّ وأنّ "الملائكة قد انطلقت بسرعة البرق عبر السّموات السّبع لتسجيل الحسنات في السّجل الأبدي مع الصّالحين والعابدين والمبشّرين بالجنّة الخالدة. نظر إلى

---

[1] سورة الإسراء: الآية 85.

السّماء، إلى الغيوم القليلة الدّاكنة وحدّق عبر الأديم الأزرق مفكّرا بأنّ الملائكة أسرع من البرق والضّوء، ولا يُمكن للبشر ملاحقتها بالبصر الضّعيف، فهزّ كتفه مبتسما"[1].

إنّ الإمام يُزكّي نفسه ويُثني عليها بالصّلاح ويُضفي عليها من مظاهر التّقوى ما يُقرّبها من الكمال، فهو ليس بحاجة إلى رأي الآخر فيه، فهو تكفيه نظرته لذاته التي لا يجيء منها إلاّ كلّ مرغوب سويّ، ومحبوب قويّ، ومقنع لا يُخاصم، وواضح لا يُناقش.

إنّ هذه النّرجسية المتدفّقة منه توحي إليه بأنّ الملائكة قد رأت صنيعه واستمعت لِما كان يُلقّنه للآخر من خير فأكبرته فيه وطارت بسرعة تُضاهي البرق، فهو إمام ويعرف كيف تتحرّك الملائكة وتنتقل من مكان إلى آخر، ثمّ تهتف له نرجسيته، بتلك السّرعة تكون الملائكة الآن قد تجاوزت السّموات السّبع برمّتها وتكون قد وصلت إلى موضع السّجل الأبدي وبدأت تُرقّم حسناته وتحسبها، وأكيد أنّه الآن قد قُيّد مع الصّالحين والصّادقين والعارفين والمرشدين لِما أمر الله والعابدين الحافظين لِما أنزله، المستشهدين بقرآنه غير مخاتلين ولا منافقين، فهو بحسناته ودرجاته سيكون لا محالة من المبشّرين بالجنّة، شأن الصّحابة العشرة الذين وُعدوا بها.

وتُزيّن له نرجسيّته أن لا فرق يفصله عن الصّحابة، فلماذا لا يكون ضمنهم وينال ما نالوه هم؟، ألا يتمتّع بنفس علمهم وكياستهم وفقههم وتديّنهم وتسامحهم وصدقهم؟. الزّمن فقط الذي تغيّر فلم يعد فيه الصّحابة، ولكن فيه من يُماثلونهم، وهو واحد منهم.

ويرفع رأسه ناظرا إلى السّماء مليّا فيبدو له بعض الغيم الأسود الذي يُلبّد جانبا منها، ويظهر له في ذات الآن الصّحو المشرق في جانبها الآخر، وركّز بصره نحو هذا الجانب الصّافي وكأنّه يتطلّع علّه يلمح أحد الملائكة المارّين بالجوّ مادام قد وصل إلى مصاف الصّحابة مكانة. ويلكزه شيء ما بداخله ليُذكّره أنه ليس إلاّ إنسانا من البشر الذي يَستعصى عليه مجرّد لمح تلك المخلوقات التي اصطفى الله لها ميزاتها وخصوصيّاتها

---

[1] محمد ساري، السعير، ص.142.

التي تجعلها بمنأى عن حوّاس البشر، فتنفرج منه ابتسامة رضا بما يكون قد أحرزه من موضع عند ربّه.

المبحث الثاني: شخصية المثقف وتكشفاتها من خلال:

1 -التهور: اسماعيل غموتات.

إنّ رواية التهوّر [1] هي من ضمن تلك الأعمال السّردية التي حاولت وتمكّنت في عديد مواقعها من رفع الوشاح عن نوعية من الطّبقة المثقّفة التي لم تعثر على المساحة المكانية اللاّئقة الأبعاد حتى تتنقّل فيها بتصالحية ذاتية تنأى بها عن الإحساس بالإجحاف الذي يفتكّ منها الاعتقاد في نفسها، ومن ثمّة الرّضا عليها، فيُخلق ويكبر التعثّر بداخلها ويصير هو الحاكم والمتسبّب في سقوطاتها المتتالية التي يعقبها زمن من الانهزام المميت فلا تتبيّن مسلكا لتجاوزه.

والمثقّف في هذه السّردية يُعلن عن نفسه ملتصقا بالرّاوي فيُستبعد الاسم الذي لا معنى لوجوده أمام كينونة الضّمير المتخوم بالأنا الضّائع والطّامع في الوصول إلى نفس مكانة الآخر، فيكون عنده ما لديه، وتستبدّ بهذا المثقّف فكرة واحدة وهي أن يتولّى مهمّة إدارة المؤسّسة التي يعمل بها باغتصاب المنصب من أحد أترابه وأصدقائه أيّام الدّراسة، فيُصبح البديل عنه، لأنّه لا يراه في إيمانه أهلا لِما ينعم به، وأنّ المنصب من حقّه هو لأنّه يتفرّد بمؤهّلات تُرشّحه لنيل ذاك الكرسي قبل الآخر.

وتغلبه الفكرة فيُحدّث نفسه مقهورا "درسنا في ثانوية واحدة، وفي نفس الجامعة والقسم، وبدأنا العمل في يوم واحد، ثم مضى يترقّى كالصّاروخ حتى بلغ ما بلغ، في حين بقيت في أسفل السّلم"[2].

ينطوي هذا الحديث على تركيبة مثقلة بالحقد والكره والغيرة والحسد، يصبّ كلّ شعور تلقائيا في الآخر ليصنع حيثيّات قضية تنفتح على ألف استفسار واستفهام، إذ كيف زامله في الدّراسة بداية من المرحلة الثّانوية التي أمضياها في مؤسّسة تعليمية واحدة،

---

[1] اسماعيل غموتات، التهور، المؤسسة الوطنية للكتاب.

[2] المصدر نفسه، ص.78.

وصولا إلى الجامعة حيث زاولا التّخصّص نفسه ليتخرّجا بعدها، فتشاء لهما الأقدار أن يتسلّما الوظيفة ويدخلا عالم العمل في يوم واحد، ولكن ما الذي حدث بعد ذاك اليوم؟.

الذي حصل أنّ واحدا منهما أهدي إليه سلّم التّرقيات، فصعد درجاته بسرعة مذهلة ليُحرز منصب مدير، بينما الثّاني لم يتقدّم إلى الأمام شبرا واحدا، وبقي مكانه لا يتزحزح منه، فاجتاح تفكيره سؤال عملاق، لماذا حدث هذا وكيف؟، فيصير السّؤال اتّهاما لذاك الذي سبق الرّكب. نعم هو لم يَثْبُتْ عليه شيء لكن كونه يترقّى بالمعدّل اللاّمألوف ليصل إلى مركز القيادة قبل الآخرين، هنا تتموضع التّهمة الثّابتة عليه وعلى أطراف أخرى كان لها يد في المساعدة بالتّوصية والتّزكية، أطراف شكّلت لأجله السّد الفولاذي الذي وقاه الهزّات، هذا السّد الذي لم يكن موجودا أيّام الدّراسة وإنّما نشأ حديثا بعد الوظيفة.

والمناعة هذه تكون قد وصلت إليه من أقارب جدد كالأصهار أو من جهة بعيدة كان أشخاصها يستفيدون منه عن طريق رسوم رشاوية يُكرّر دفعها إليهم كلّما استعصى عليه تحقيق شأن من شؤونه.

وبقي كلّ هذا التّفسير مجرّد فرضيات تدور في ذهنه وهو يرى نفسه مثقّفا من الدّرجة الأخيرة ومن الطّراز الرّديء الذي كلّما أمعن في البحث عن الشّروحات تضبّبت الرّؤية أمامه وعجز عن تفتيت رموزها، وفرّت منه الحجّة التي يُريد إقناع تساؤلاته بها فتسكت، وحتى وإن وصل إلى هذا فوجعه من الظّروف التي عاكسته وحالفت خصمه يظلّ متيقّظا، ويُكلّفه عدوّه المدير بإنجاز تقرير طلبته الوزارة بخصوص سير المؤسّسة وعملها، فيمتثل لأمره على مضض منه ويُخفي تذمّره فلا يُظهره إلاّ لنفسه "كالعادة نحن نغرس وهم يأكلون. إلى متى!، إنّ العمر يتبدّد فيما لا ينفع، فليت أمّي ما ولدتني"[1].

ويمضي إلى إعداد ما طلبه منه مديره بل عدوّه لأنّه يُدرك عاقبة الامتناع عن العمل المسند إليه، ويعلم أنّ أيّ تقصير منه لن يكون في مصلحته، ثمّ هو لم يبدر منه فيما سبق أيّ اعتذار لأيّ عمل كان يُطلب منه، فكيف يأتي الآن ويُقرّر هكذا، وبلا مقدّمات،

---

[1] المصدر السابق، ص.08-09.

أن يرفض ما أُوكل إليه على الرّغم من أنّه متفطّن إلى أنّ هذا النّوع من التّقارير إنّما هو من اختصاص مدير المؤسّسة نفسه.

ويتكشّف له للمرّة الألف أنّ عدوّه متسلّق، تَعَوَّدَ الصّعود على هامات المغفلين ليكبر ويعلو قدره، وارتدّ نحو نفسه يحتقرها ويؤنّبها على ما يسكنها من بلاهة وهي تُعين ذاك الطّحلب على الحياة، ذاك الذي لا يقدر على تحرير جملة، فكيف بتدبيج تقرير كامل مفصّل عن المؤسّسة، ما لها وما عليها!.

وانتبه أكثر فوجده طيلة الوقت يستغلّ كفاءاته وقدراته العلمية والعملية، رأى نفسه هو الذي يتعب ويكلّ والآخر يجني في الأخير وببساطة متناهية التّهاني والتّشكّرات والامتيازات التي لا تُحصى.

ويُتأكّد له أنّ عدوّه إنّما وصل أيضا عن طريق انتهاز وتلقّف أهلية مستخدميه، فكان يسرقها منهم بذريعة الفوقية التي يَرْفُلُ فيها، هو المدير بالنّظر إلى باقي العمّال المستخدمين، وينظر مليّا لِما حوله ضجرا، فيبسط السّؤال الوحيد المتبقّي بحوزته، إلى متى يظلّ هو على هذه الحال؟ !. السّاعات تجرّ خلفها الأيّام، والزّمن يتسرّب منه، وهو كمن فقد وعيه مستكين راض بوضعه، والوصولي يتّخذه مصعدا للطّوابق العلوية، ولكن ماذا بإمكانه أن يفعله؟.

وعندما يُرجِع إليه الصّدى سؤاله يكون السّأم قد قطع به الأشواط العملاقة ليُلقي به في هوّة لا جدوى العيش، فيُمطر عدوّه جام لعناته ويُحمّله سبب ما لحقه من تأزّمات سدّت عليه الطّريق ونفته إلى غياهب لا رجعة منها، ويبلغ منه الإحباط ذروته فيدعو على نفسه بالموت، سبيل الرّاحة الفريد، وطفت الأمنية الدّفينة فيه، ليته ما جاء إلى هذه الحياة ولا عرفها، ويُلقي بوزره على أمّه التي مهّدت له طريقه نحو الحياة التي ما أن بدأ يستوعب طبيعة ما يتحرّك فيها حتى دبّ إليه الذّعر ولفّه اللاّأمان من البشر وما يرتكبوه في حقّ الحياة حتى أفقدوها عافيتها.

فلم يُصادف أمرا يستقيم في مكانه الصّحيح وأضحى الاعوجاج هو الحاكم الذي لا يراه إلاّ مجرما تسبّب في كلّ عقده، على اختلاف حجمها ونوعها وحتى لونها.

وبهذا الانكسار كلّه الذي يأكله مازالت كيفية نيل المنصب تؤرّقه "عيني لا تبرح المنصب العصي. كأنّني مشدود إليه بقوّة المجهول"[1].

ويستبدّ الهوس بدخيلته ويشتدّ تعلّقه بالمنصب فيُمنّي نفسه به طوال نهاره وكامل ليله، فلا يغب عن فكره برهة من زمن، فيُتصوّر له في منامه، ويظهر له في يقظته، ويراه جالسا وواقفا، ويحلم به مشتغلا ومرتاحا، ويبرز له جائعا وظامئا، وتستحوذ عليه يقينية الجلوس على كرسي المدير لأنّه من حقّه وسيؤول إليه لا محالة يوما، وأنّ هذا اليوم يحسّه يلوح قريبا جدّا، هكذا تقول له القوّة القدرية التي تشدّه نحو هذا المنصب وتجذبه برفق ليجلس على الكرسي، هذه القوّة التي تؤكّد له أنّ ما استصعب عليه إحرازه اليوم سيسهل عليه يقينا الفوز به غدا.

ويتخيّل مرّة من كلّ أعماقه أنه يجلس على ذاك الكرسي فينتشي وقد أترعته الفرحة وأدخلته هالة من الرّاحة لم يسبق له أن عرفها أو ذاق طعمها منذ وضع نصب عينيه قوّة المنصب والجاذبية السّحرية للكرسي التي تُحوّل المرء بعد البشاعة جميلا، وبعد الغباء المستحكم ذكيا لا يُضاهى، وبعد القذارة نظيفا، وبعد الذّل عزيزا، وبعدما كان يُداس بالأقدام صار هو الرّافس الذي لا ينجو من ألم نعليه أحد. الكرسي الذي سيجعل الجميع يأتمرون بأمره فيحترمونه على الرّغم منهم، ويسعون إلى التقرّب منه بمناسبة وبغيرها، الكرسي الذي سيجعله يصل إلى من هم فوق في الأماكن العليا، فيُكوّن معهم علاقات يحرص أن تكون متينة لا تنقطع أواصرها حتى يقي كرسيه من كلّ هزّة فلا تلحقه، وهو أيضا بطبيعة الحال لن يدّخر جهدا في خدمتهم في كلّ الظّروف والمواقف التي يحتاجون إليه فيها، سيجدوه في لمح البصر رهن إشارتهم، وبهذا سيُصبح صاحب نفوذ وعُزوة يستعملها متى أمرت الدّواعي إلى ذلك، فهو حينما سيجلس على العرش لن يسمح لأيّ

---

[1] المصدر السابق، ص.68.

مخلوق، مهما كانت قوّته ووصوليته، أن يغتصبه منه لأنّه سيؤمّنه ضدّ كلّ الأخطار، فهو لن يقبل مطلقا العودة إلى ما كان فيه، الموظّف المأمور دائما، الغبي الذي يزرع ليأكل غلّة عرقه واجتهاده الآخرون.

ويتضاعف يوما عقب الآخر، بل لحظة بعد أخرى، ولهه بالمنصب والكرسي وما سيُحدثانه من طفرة تتبدّل بها حياته، فيمتلك صولجان السّلطة والجاه، وينعم برغد العيش، ويصعد إلى التّشكيل الاجتماعي الأوّل الذي يُجلّه الكلّ ويحسبون لأمره آلاف النّتائج، فلا يُغامر أحد بالتّعرّض له لأنّه سيتحوّل في نظرهم إلى الأكمل الذي لا يخذله المدد ساعة العسر.

ويُقدّر خياله منّة الانتصار على عدوّه بعد النّجاح في الإيقاع به فيسلبه منصبه ويتربّع على كرسيه على مرأى منه، فيشفي غليله منه وهو يتفرّج عليه، يندب حظّه وينوح على عصر ولّى، وينمّ الحوار المتصوّر بينه وبين عدوّه المدير عن فداحة الغبن الدّاخلي الذي قد يوصل صاحبة إلى حافّة سقوط العقل في مفازة الجنون، "المدير: مبارك فقد تمّ تعيينك مديرا. هذا جزاء ثقتي بك، لقد كنتُ أعمى وعليّ أن أدفع الثّمن. هتف بغضب، أهذا جزاء من يثق بك.

قلت: بهدوء، لم تكن هناك وسيلة أخرى، ثمّ أنّي لست نادما على شيء.

فقال بتقزّز وغضب: طبعا لا يُمكن أن تكون نادما على شيء، ماذا يُمكن أن ينتظر المرء من أمثالك غير الطّعن في الظّهر؟.

فأشرتُ إلى مقعده وأنا أراوغ الغيظ، وجلوسك على هذا المقعد كيف تُسمّيه؟!"[1].

إنّ هذا الاستغراق المنولوجي التنفيسي لم يكشف لنا ملابسات ما حدث وما نوع المصيدة التي يكون قد ثبّتها لعدوّه ذي الوزن الثّقيل حتى أطاح به وأزاحه عن سبيله، فانقشع كدره وكأنّ الأداة التي يكون قد استخدمها لإنهائه ليس ذكرها بذي قيمة وأنّ الجوهري في الأمر هو رؤية بعد ردّة الفعل عنده ومدى تأثير قوّة الصّدمة عليه، وكذا

---

[1] المصدر السابق، ص.47-48.

معرفة كيفية تعامله مع الواقع الجديد وهو يستدعيه إلى مكتبه ليزفّ إليه بنفسه الخبر الذي ظلّ ردحا من عمره يرتجيه.

وكانت لفظة مبارك إيذانا فعليّا بسقوط عرش هذا العدوّ الذي لم يُمهله ليسعد بنشوة الانتصار ويستلذّ حلاوته، وبادر مسرعا ففتح عليه نيران التّعنيف والتّأنيب، متّهما إيّاه بأنّه ليس محلّ ائتمان ولا ثقة، وأنّه خائن وماكر وصيّاد فرص، استغلّ الثّقة العمياء التي أولاه إيّاها وهو يُخادعه بإخفاء خنجره المسموم، الذي ما أن أحسّ الفرصة حتى أخرجه وغرسه في ظهره وهو غافل عنه، وينعته بالجبان الذي لا يستطيع خوض حروب المنازلات وجها لوجه.

ثمّ يرجع باللاّئمة على ذاته متحسّرا لأنّه لم يق ظهره من مثل هذه الضّربات المتوقّعة، وكلّما لفظ كلمة الضّرب احتقن وجهه وتغيّرت ملامحه، وكاد الكلام يحتبس في حلقه، وبأخلاق المنتصر الشّريف لم يُعقّب على كلامه كأنّه لم يسمعه، ولكنّ عدوّه يُسهب في تجريحه صارخا في وجهه، يُطالبه بأن يردّ على استفهاماته، أهكذا يُردّ الجميل؟، وهو لا يُريد من وراء هذا إجابة فعلية، لأنّ الرّد كان قد تلقّاه وعرفه واستوعبه، وإنّما كان يروم من هذا الفعل الإمعان في إذلاله وتحقير شأنه وتشنيع فعلته التي ليست من مروءة الرّجال وأنفتهم.

ويتمالك أعصابه، هو المنتصر أمام هذا السّيل الجارف من الغضب والتّجريم وخدش للكرامة، وبعيدا عن الشّطط وبطريقة غاية في الهدوء يُجيبه بأنّه لم يكن يملك خيارا آخر وأنّ الشّكل الذي تعامل به معه لا يُخجله ولا يُشعره بأدنى أسف، وأنّ ضميره طوال الوقت كان يُحفّزه ويدفعه، بل ويأمره لفعل ذلك، ولهذا فهو اليوم لا يشعر بأيّ تأنيب، مهما كان حجمه، لأنّ ما قام به كان يجدر به أن يفعله منذ أمد طويل.

وترتفع درجة عصبية عدوّه ويرمقه شزرا كما لو أنّه ينظر إلى حشرة وترتسم على وجهه علامات القرف، فيُجرّده من آدميته ويُقرّبه من الدّواب التي لا عقل لها تُميّز به ما حولها، فتذهب تنهش أجساد بعضها البعض فتأكلها. ويسمع المنتصر كلّ هذا

ويهرب من غضبه، وبمنتهى الحكمة يرفع يده ويُشير ببنانه ناحية الكرسي ليقول له، واستحواذك على هذا الكرسي واستئثارك به لعدد من السّنين المتوالية، وأنت لست أهلا له، كيف تُفسّره، أيّ شرح مشروع ستردّ به أنانيتك التي أعمت عينيك عن رؤية الآخرين والإحساس بهم؟، وأوهمتك بأنّك الأفضل والأعظم وبأنّك السّيد الذي يتوجبّ على الرّقيق خدمته، فسخّرتني وسخّرت مستخدمين غيري عبيدا، ركبت على أكتافنا لترقى وسعدت بالتّرقيات وأدهشتك المناصب، ولم يمرّ ببالك أنّك مثلما ارتفعت ستجيء السّاعة التي تهوي فيها جزاء، جناه عليك طمعك الذي أراد كلّ شيء له فضاع كلّ شيء منه.

وبعد هذا الطّيران يهبط إلى الواقع آملا أن تتحقّق أمنيته، حينها سيشمت بعدوّه وسيكيل له من الشّتائم والإهانات ما لا يقدر على تحمّله بشر.

ثمّ نظر إلى نفسه وفكّر في أسلوب عيشه فتبدّى له أنّه لا يتحرّك إلاّ ضمن اهتمام واحد، (الخمر والنّساء)، ويُلقي بتبعة هذه على عدوّه مرّة أخرى، فهو لم يدخل إلى هذه الدّوامة إلاّ حينما لمس فيها المسكن لألم القهر، وعثر فيها على الدّواء لحرقة التّهميش، فمنح هذه الثّنائية كامل الحرية في أنّها تقوده، وانساق وراءها بمغناطيسية نسيت الرّدع والزّجر فكان كلّما انتابه الرّفض إزاء ما يجري من لا معقول لا يستوعبه، رَكَض باتّجاه الحانة أو صوب التّفتيش عن امرأة فلا يهدأ حتى يجدها "شعرت أنّ قوّة خفية تدفعني إلى هاوية مظلمة ولا دواء لحالي إلاّ امرأة، فأين أجدها؟"[1].

لقد قاوم بكلّ ما فيه من نبض يتحرّك، الأوضاع الرّافضة لأنّ تهادنه، فوقف طيلة الوقت معلنا تحدّيه لها نيّة وفعلا، ولكن كانت النيّة تجهض والفعل يقتل، فيجد أنّه ما يزال يقبع خلف الحدود التي رسمتها له تلك الأوضاع، وحذّرته من مغبّة التّخطيط لتخطّيها، ولكنّه لم يفهم لغتها، فكان يُعاود النّية والفعل بفرضية أن يتملّص إلى المساحة الأخرى فيتساوى بالآخر.

---

[1] المصدر السابق، ص.15.

ويستدركه وعيه يُصحّح له الاحتمال ويُعْلِمْهُ أنه حتى وإن تعدّدت القفزات فصارت مئات بل آلاف، لن يلحق بالآخر لأنّ المسافة التي تفصله عنه غير ثابتة على حالها، بل هي تطول عند كلّ سانحة، والصّور الذي هو نهاية المسافة غير باق في مكانه، بل يتحرّك دائما باتّجاه الأمام، وكلّما بَعُد علا ومَتُن أكثر.

وتُساوره الفكرة التثبيطية لا داعي للمحاولة مجدّدا لأنّ المسافة لن تُفلح في تقديرها والجدار ستخفق في معاينته. وتملّكته سطوة سرّية خلعت عنه إرادته وشلّت فيه كلّ حركة وراحت تجرّه مرّة وتُكوّره وتُدحرجه أخرى حتى توصله، وتتوّقف به على شفا قاع فارغ معتم. جرّب بما بقي فيه من نفس أن يحيد عن الحافّة، حرّك رجليه ويديه، تململ وأبدى بعض المقاومة يُريد بها أن يُتعب هذه السّطوة الغريبة التي تلبّسته، ولكن عبثا فعل. خار جهده واستسلم، لم ينبس بحركة.

تدفعه السّطوة ثانية، يرى العتمة واضحة، يحسّها، ويريد أن يعود فيُقاوم، لكن دون فائدة، وقبل أن يرتطم بصخور الهاوية يلتقط أنفاسه، فيتراءى له شبح امرأة فيهتف أنّها الوحيدة القادرة على إشعال الحرارة في جثّتي المجلّدة، الوحيدة التي تملك نجدتي من هذا السّقوط، فيتّجه يمنة ثمّ يسرة، يجري إلى الأمام ويعود فيدور إلى الخلف، فيجري وهو يبحث ويتساءل ويسأل أين هي، أين تختفي؟. وتُصبح المرأة في هذه الأثناء الحقيقة المطلقة الوحيدة التي لا تعترى الحاجة إليها النّسبية، بها يتعافى وبها يهدأ.

وهو على ذاك الانقباض، فجأة تمرّ صورة زكيّة الشّاوية بذهنه فيهرع إلى الهاتف، وبابتهاج يُشكّل الرّقم وتردّ عليه، يُحدّثها بضع دقائق ثمّ يقترح عليها جولة في سيّارته، ودون تفكير لا تُمانع، وفي المكان المتّفق عليه يجدها ويتنفّس الصّعداء، فها هي المرأة التي كان يهذي بها منذ قليل تجلس إلى جانبه في سيّارته، والآن لم يعد يفصله عن المتعة التي طلبها إلاّ وقت يسير، وبأقصى ما تستطيعه السّيارة من سرعة يشقّ بها الطّريق، وجهته الخلاء الذي ألف التردّد عليه في كلّ مرّة برفقة امرأة، وعندما يصلان إلى ذاك القفر ويُراودها ليروي ظمأه منها، تتأبّى عليه وترفض أن تُسلّمه الأنثى التي يودّ، فشعر

بغيظ يكاد يُفجّر أوداجه، وأفلت زمامه منه، وأحسّ بحريق يسري في أعصابه فلم ينتبه إلاّ وهو ينهال عليها صفعا وضربا حتى لم يترك لها إلاّ خيار الإذعان، فيُشبع نزوته منها، ثمّ يُعقّب على ما حدث "وبرغم ما حصل كنت أشعر بارتياح"[1].

شعور طبيعي عندما يصدر ممّن لا يكترث بسواه ولا يهتمّ به إلاّ بقدر ما يستفيده منه، وبمجرّد تحصيل الفائدة لا يخجل من أن يُعلن نصرته للمبدأ القائل "أنا وليأتي بعدي الطّوفان". مثل هذا الأنا المنخور الكينونة يرتكز الجنس عنده على "متعة استلاب ما للآخرين"[2]، فتُنهب المتعة عنوة وتحور شكلا بطوليا يمتدح الذّات ويُقرّر وجودها، فيترادف الجنس مع الحياة ويُساويها.

في الوقت الذي يكون فيه ذات الأنا هذا قد فشل في حلّ معادلة وجودية أكثر حيوية بالنّسبة إليه، مقارنة بتلك الأولى، وهي ذاك المنصب المتمنّع عليه، الهارب منه، المستقرّ بين يدي عدوّه، يتأبّطه كلّ وقت مزهوّا متعاليا به عليه وهو يُحدّق، يكاد يفقد عقله من ديمومة المشهد وتعدّدية صوره، الذي لم يحرز السّبيل لمحوه إلاّ في أحلامه، بينما أخذلته حيلة الاقتراب منه في الواقع، وجَبُن على أن يتّخذ ضدّه أيّ فعل عقابي ليسلبه منه ويؤكّد تمتّعه به مثلما فعل مع ضحيّته الجنسية وهو يُمارس عليها الآلة العقابية في أشرس درجاتها حتى لكأنّها فعل تعذيبي.

ولمّا كانت القضية لا تخرج عن توقيع الانتصار وتقديمه إلى الذّات المكلومة، فردّة الفعل الاستحيائية لا تُطرح، والإحساس النّدمي لا يُفصح عنه لأنّه مفقود، وباب التّكفير عمّا وقع لا يُولج لأنّ مفتاحه ضائع.

ومن هنا فإنّ التّجويفية المخيفة لهذا الأنا ما كانت لتسمح له بالتقاط فرصة الفوز إن لم يخض في هذا الطّريق المؤدّي مساره تلقائيا إلى تأمين كفايته من الرّاحة الممزوجة

---

[1] المصدر السابق، ص.16.

[2] غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، ص.223.

ببعض الطّمأنينة والرّضا، دون النّظر إلى ما خلّفه من أذى وألحقه من ضرر بالآخر، فهذه التّفاصيل لا يستهويه التّوقّف عندها والجزئيّات لا تعنيه في كثير أو قليل.

وتموج بهذا المفاهيم وتختلط ببعضها وتنطمس معانيها لديه، فلا يظفر بالانتصار إلاّ في أحلامه اليقظية، وفيما عدا ذلك فكلّ راهنه مثقل بعار الهزائم ومرارته، وبالرّغم من ذلك فهو لا يُفكّر أو ينوي هجره.

ويستمرّ سعيه اللاّهث لإدراك المرأة بعدما تمثّل لنفسه مظلوما ومستلبا، وتثبّت من أنّ قَدَرَهُ هو هذا وسيُلاحقه ولا مردّ له. وأنّ ما يكفل له نسيان أنّه مستبدّ به، ولو لبعض الوقت، امرأة يحصل عليها. وما إن ينجح في مطلبه حتى يسمع الخلاء يُناديه فيُسرع صوبه بحكم ما تعوّده "عدت بصيد جديد. مضيت إلى محطّة الحافلات فالتقطت امرأة كانت في الأربعين أو أكثر، لا يهمّ أن تكون متزوّجة أو أرملة، مطلّقة أو عذراء، المهمّ أنّها هنا وكفى"[1].

ويتذكّر الأماكن العامرة، مؤكّد أنّ فيها مبتغاه، وتبدو له محطّة الحافلات أكثر اكتظاظا من غيرها، فهي مقصد الجميع، نساء ورجالا، على اختلاف أعمارهم وأوضاعهم المهنية ومستوياتهم الاجتماعية، وضالته لاشكّ تختفي في ذلك الزّحام. وبكازانوفيّته التي لا تُحسن الانتظار يضغط على دوّاسة السّرعة فتطير به السّيارة لتتوقّف بمحاذاة محطّة الحافلات. لم يدم انتظاره هناك إلاّ برهة، كان محقّا هذه المرّة في تنبّؤاته، فالطّريدة كانت سهلة المنال، أحرزها مثلما تُلتقط القشّة، دونما مراودة أو كلفة، ودون أيّة مراوغة أو تعب. صحيح أنّها تبدو قد جاوزت الأربعين، ولكن أين المشكلة، المهمّ أنّها امرأة، وهذا ما يبحث عنه.

ثمّ هو لم يضع شروطا مسبقة للمرأة التي يُريد أن يقتل بها الوقت ولذا فهو تُرضيه الصّغيرة، وبنفس الدّرجة الكبيرة، وقد يرضى حتى بمن تكون في عمر والدته طالما لا ينوي الارتباط بها، بل يسعى فقط ليُمتّع ذاته لبعض الوقت وبعدها كلّ منهما ينصرف إلى

---

[1] إسماعيل غموقات، التهور، ص.37.

وجهته. وما دامت باستطاعتها منحه ما يشتهي من متعة فهو لا يُشغل ذهنه مطلقا بقضية السنّ هاته لأنّه "لم يبق عنده من المرأة إلاّ شهوة تُقضى" [1]، وبالتالي فهو لا يُزعجه تجسيدها مع المحصنة ذات الزّوج، ومع الأرملة التي خلّفها زوجها بعده، ومع المطلّقة التي عافها زوجها فتخلّص منها، وحتى مع العذراء، فهو لا يرفض أن تكون رجولته الطّريق لعلاقاته المقبلة التي لن تكون قليلة، فالمرأة مقبولة لديه كيفما كانت، سمراء أو سوداء أو بيضاء، بدينة أو نحيفة، قصيرة أو طويلة، ما يكتسي الأهمّية عنده أن تكون في متناوله يُطفأ بها المضطرم فيه من رغبة.

وها هي الآن تجلس بقربه، وبعد قليل سيصل إلى الخلاء المتعوّد عليه وهناك سيملأ الفراغ الذي بداخله، فهذه من غير المعقول أن تتمنّع عليه أو تُقاومه، سيُحرز الانتصار الذي لم يُطاوعه مع عدوّه، وتستحيل المرأة عنده بمثابة البديل لذاك العدوّ الشّديد الجانب. وهكذا صارت الأمور عنده، كلّما تمتّع بأنثى نما بداخله ارتياح يُنسيه خصمه والمنصب لبعض الوقت.

وفي أحيان كان يُهدر الوقت الكثير ولا تنسجم معه الفرصة لتُهديه امرأة يُرافقها إلى ذاك الخلاء المعلوم عنده، ولأنّه لا يقبل بأن يكون يومه كلّه هزيمة كان يستقلّ سيّارته بمفرده قاصدا المكان القفر ذاته، وهناك كان يجلس ويستعيد ذكرياته مع نسائه اللّواتي جاء بهنّ هناك، ذكرى تلوى الذّكرى، ومغامرة بعد مغامرة، حتى يحدث لديه نفس انفعال الانتشاء الذي أحسّه حقيقة مع كلّ واحدة منهنّ، وعندما يقف على قمّة النّشوة ويشعر بالارتياح نفسه يركب سيّارته ويقفل عائدا وهو يرى نساءه كلّهن يجلسن إلى جواره.

وفي حالات أخرى عندما يشتدّ به الضجر كان لا يتجشّم عناء التّفتيش عن امرأة، بل كان يحثّ الخطى باتّجاه أقرب حانة، وهناك كان يشرب ويشرب ولا يتوقّف حتى الثمالة، ولا يُغادرها إلاّ وقد انتشر اللّيل وفقد وعيه واتّخذت الأشياء أمام عينيه غير طبيعتها، حينها كانت تغمره الرّاحة التي يطلب وينسى المنصب، معضلته الحياتية.

---

[1] غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص.67.

وإضافة إلى هذا فهو يُبطن تناقضات مهولة وتنطوي نفسيّته على لا مفهومات عديدة وغريبة، يَظهر بعضها عندما تُخبره أمّه بأنّ أخاه الأصغر منه يتعاطى الخمرة فيُهرول إليه ممتعضا صارخا في وجهه "إذن قد كبرت، صرت رجلا تُدخّن وتشرب الخمر، وتأتي بالخمر إلى البيت كأنّ البيت خمّارة"[1].

إنّ المتحكّم في المنع والإباحة في مفهومه هو عامل السّن لا غير، فإذا كبر المرء واكتمل نضجه ودخل مساحة الرّجولة، يحلّ له القيام بأفعال يُنكر على الصّغير الاقتراب منها، فالرّجل لا يُضيره إن هو دخّن، ويُسمح له بأن يتعاطى الخمر إذ لا يُعدّ هذا عيبا، ويُباح له فعل أمور أخرى عديدة غير هذه لأنّه رجل، والرّجل يقوم بالذي يشاء، وقت يشاء، ولا يُحاسب، بينما الصّغير يُراقبه الأكبر منه ويُعدّد له أخطاءه، وقد يصل إلى تأديبه بالضّرب مثلما يفعل مع أخيه الأصغر منه، وله كلّ الحقّ في ذلك.

وكأنّه بهذا يؤسّس للمبرّرات التي تخدمه فيظهر لنفسه نظيفا، لا تصل إليه الشّبهة، فهو رجل وما يفعله كالجري وراء النّساء والتردّد على الحانات يقوم به جلّ الرّجال، إذن فهو لا يؤاخَذ، ثمّ إنّه يأتي ما يأتيه مكرها لأنّه السّبيل الوحيد الذي أمّن له الإحساس بالرّاحة وأخرجه من الفشل الملازم له والذي سدّ عليه كلّ إمكانية لاقتناص المنصب، همّه الوحيد في حياته.

ويأتي تعنيفه لأخيه لأنّه يتعجّل الأمور ويحرق المراحل، وما كان عليه إلاّ أن ينتظر بعض الوقت حتى يكبر، حينها لا أحد يجرؤ على توبيخه أو مدّ اليد عليه بالضّرب، ثمّ حتى الرّجولة في هذه الحالات لها قواعدها التي تحترمها، فالتّدخين عندها لا يكون في البيت على مرأى الأهل والأولياء لأنّ حرمة البيت يجب أن تكون بعيدة عن مثل هذه الشّوائب، والرّجولة لمّا يحلو لها السّكر فلتتوجّه إلى حانة من الحانات التي يعجّ بها البلد، ولا تُداس قدسية الدّار لأنّ واحدا من أهلها أراد إحراز نشوة عابرة.

---

[1] إسماعيل غموقات، التهور، ص.32.

فهو مثلا لا يُعاشر النّساء إلاّ في الخلاء حيث لا تراه أعين بشر، وعندما يحتسي خمرا يكون ذلك في خمّارة، يختفي فيها فلا يُغادرها إلى تحت جناح الظّلمة وليس على مرأى الجميع، هذا هو المبدأ الذي يجب أن تمتثل له الرّجولة، التستّر ما أمكن، وعلى الرّغم من أنّه لم يختلف مع أوامر الرّجولة وتستّر كاتما تلك المتعة التي ما انفكّ يجنيها في القفر الخالي إلاّ أنّ هذا لم يبعد عنه تبعة أفعاله، فقد اتّصلت به زكية الشّاوية لتُخبره بأنّها حامل منه، لم يُصدّقها فأرادت مقابلته، فتهرّب منها مقرّرا أن لا يراها مجدّدا أبدا.

وفي نفس هذا الوقت يتّصل به صديقين له يُتاجرا في المخدّرات ويعرضا عليه الانضمام إليهما، خاصّة وأنّ له خبرة في هذا النّوع من التّجارة من أيّام كان تلميذا في الثّانوية، ليتوقّف عنها بعد دخوله الجامعة، إضافة إلى أنّه اليوم يملك سيّارة يسْهُل بها هذا النّوع من العمل، فكان ردّه عليهما أن طلب مهلة للتفكير.

وتشاء الظّروف أن يُنقل عدوّه المدير إلى مؤسّسة أخرى في هذه الأثناء، فيبتهج لهذا ويُسرّ حتى لا تتّسع الأرض في عينه لتضمّ فرحته، وعُيّن في منصب المدير، ولكن مؤقّتا، واعتقده المؤقّت الذي يدوم وأقنع نفسه بأنّ قرار تعيينه مديرا حقيقيا بات وشيكا، ولكنّ كلّ آماله تبخّرت وذهبت فرحته في مهبّ الرّيح، والمدير الجديد يلتحق بمنصبه، فيُصيبه "الذّهول المفاجئ واللحظة اللاّزمنية" [1]، جرّاء ما حدث حوله والذي لم يحسب حسابه ولم يتوقّعه، فاهتزّت دخيلته وتصدّعت وأصبح يُريد ما رفضه سابقا أو أرجأ النّظر فيه، فاتّصل بزكية الشّاوية عارضا عليها الزّواج، واشتدّ قلقه فاتّصل بتاجري المخدّرات ليُعلن لهما أنّه موافق على الانضمام إليهما، وتزوّج ودخل التّجارة وصار لا يهتمّ بشيء، يُمضي وقته متسكّعا في الشّوارع لا يلوي على شيء.

إلى أن يتّصل به أحد شريكيه في العمل الجديد ويُبلغه بأنّ أمرهم انكشف وأنّ سيّارته محجوزة بسلعتها لدى رجال الدّرك الذين هم في صدد البحث عنهم. وهكذا تكون خاتمته، انتحار متعدّد الوجوه.

---

[1] كولون ولسون، اللامنتي، نقله إلى العربية أنيس زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1979، ص.76.

2 -الحاجز: هــ. سعيداني.

أمّا الرّوائي سعيداني [1] فيعرض لمثقّف ذي طبيعة أخرى يُسمّيه الطّيب، المثقّف يؤكّد علمه، وتُثبت شهادته، ويُقرّ ماضيه الذي لا خدش فيه، وسيرته التي لا لبس يكتنفها، وأقدميته الملتزمة في العمل بأنّه الأجدر والأصلح، بل والأوحد الذي يحقّ له تسيير المؤسّسة، ولكنّه قابع في مكانه مثل أوّل يوم استلم فيه الشّغل، الموظّفون يترقّون ويتقلّدون المناصب بعد الأخرى، من الرّفيع إلى الأرفع، وهو ينظر إلى كلّ التّحوّلات التي تحصل من حوله وتزدحم، لا تنزّ منه حركة رفض، ولا يصدر منه صوت احتجاج يردّ به الاعتبار لوجوده في المؤسّسة ويُعيد قيمته بين الآخرين، فهو يخشى حتى الإقدام على المطالبة بحقّه، وهو يراه يُمحى من لدن الجميع، وحتى علاقاته بزملائه في العمل ضيّقة إلى أبعد الحدود، فهو لا يُحادث سوى البوّاب وزميلة له تقاسمه نفس المكتب، أمّا بقيّة الموظّفين والعمّال فلا يكاد يعرف لهم وجودا، وقد يكونوا هم كذلك.

وذات مرّة يُسدي البوّاب النّصح له ويُعشره بأنّ منصبه قد يؤول لآخر، ويُخوّفه بأنّ الإدارة تسعى لذلك، وأنّه حان الوقت الذي يتوجّب عليه فيه أن يُدافع عن وضعه وإلاّ صار في الشّارع، فردّ عليه "أبول عليهم وعلى قراراتهم. هل تُريد منّي أن أتنازل وأتملّقهم، وهو حقّ ظاهر لا لبس فيه؟، أليس ذلك واجبهم الذي ينبغي أن يعملوه دون أن ألحّ في المطالبة به!" [2].

يظهر أنّ المثقّف يؤمن إيمانا شديدا بالمدينة الفاضلة التي تُسيّرها المثل وتضبطها المبادئ، ويعتقد بالجزم أنّه يعيش فيها بمكانه المحفوظ، ومن المستحيل أن يتطاول أيّ كان ليطرده منها، ولذا فهو لا يُتعب ذهنه بالتّفكير ولا يُجهد أعصابه انتظارا لِما سيكون لأنّ المسلّمات في نظره لا تتغيّر والبديهيات لا تُقيّد، وبالتالي فلا أحد يسمح له معتنقه بأن

---

[1] سعيداني، الحاجز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

[2] المصدر السابق، ص.21.

يتجاوز الآخر ويسطو على ما لديه، وكأنّه يقيس العالم والبشر بمقياسه هو الذي يراه لا يُخطئ، فيسعى لأن يُقَطِّمَهُ بحيث يتلاءم معه الجميع.

وينزوي لا يُقدّم رجلا ولا يمدّ ذراعا ليأخذ ما هو حقّ طبيعي له، وعندما يُنصح ويُحذّر بأن يتفطّن وينتبه لِما يُدبّر في الخفاء من مكائد قد تلحقه فيُجحف حقّه لينعم به آخر وهو ينظر، لا يجد ما يقول إلاّ أنّه سيُصيّرهم نجسين ويُلوّث ما يُصدرونه من مقرّرات، العبارة الاعتباطية التي لا يُدرك شعورا معناها، فقد أفلتت منه فكانت ردّة فعل لسانية وحسب، وقد يكون متعوّدا على استعمال ذات الكلام في كلّ موقف يُستثار فيه وقد ضاق عليه الخناق.

وإذا ما آل حقّه فعلا لغيره، فما عساه فاعلا؟. هل سيطعن فيما يكونون قد وقّعوه من إجراءات؟، هل سيتعرّض لهم بالسّبّ والشّتم ويصفهم بشتّى الألوان الشّائنة والمقزّزة وينعتهم بالقذارة، وأنّ كلّ ما يرتضونه من أحكام إنّما هو قذر مثلهم؟، وهل سيجهر بأنّه لا يعترف بهم ولا بما يُفكّرون فيه، وأنّه لا يُعيرهم أدنى بال؟، وهل سيصل إلى رفع الشّكاوى ضدّهم؟. في كلّ هذه الأحوال يكون الوقت قد فات، وحقّه قد نُفي ومُنح امتيازا لغيره، فيصير أمره إلى أدنى ممّا هو عليه.

ويعتريه إحساس بأنّه أفضل من الجميع لأنّه يمتلك القيم التي يُعادونها ويتّفق والمبادئ التي يخافونها، لذا فهو لن يتدنّى أبدا فيتعامل معهم لأنّه إن فعل فسيكون مخاتلا يُظهر لهم المحبّة والولاء، وهو في دخيلته يُضمر لهم من الكراهية والازدراء، بل وحتى من العداء ما لا يُحدّ.

حينها كيف سيُحدّد علاقته مع ذاته وهو يعيش بوجهين، وجه يُجاهد لإخفائه حتى لا يفضحه، ووجه آخر يسمح له بالظّهور لأنّه هو من سيوصله إلى المراد.

ثمّ ما الذي يُجبره على ركوب هذه المجاملات العقيمة؟ التي تجعل منه نهبا للمقايضات التي إن هي بدأت يُرجّح لها أن لا تنتهي !، كيف سيرضى بأن يمدّ يده نحوهم ليشحذ منهم حقّه الظّاهر للعيان والذي لا يُنكره عليه إلاّ جاحد.

ثمّ يتساءل لماذا لا يقومون بعملهم مثلما هو مطلوب منهم دون أن يُرغموه على أن يكون ملحاحا يُنافق ويتنازل ويُهادي الخطوات التي يستهجنها ولا يستوعب كيف يُقدم عليها البشر.

وهو من كلّ هذا إنّما يُريد أن يجلس في مكتبه مكتوف اليدين وينتظر أن يأتيه حقّه على طبق من ذهب، دون أن يكون قد بذل لأجله أصغر جهد مرجوّ. والبوّاب وهو ينصحه إنّما أراد أن يُفهمه بأنّ الدّنيا تؤخذ غلابا، الحكمة التي لا يعرفها هذا المثقّف أو يعيها ولكن يتغاضى عنها.

كما أنّه ليس ضروريا أن يفوز بحقّه وهو يطرق باب التملّق وإنّما يُمكنه إدراك هذا الحقّ وهو يدقّ باب القوانين التي لا تخذل أحدا.

وعندما يُصبح الغطاء الذي بينه وبين الحقيقة شفّافا يُبدي له جبنه، يُسرع ويستبدله بستار الشّرف "إنّني أشرف منهم بدليل أنّني لم أرسل زوجتي أو أختي أو ابنتي إلى أحد في يوم من الأيّام لكي تتوسّط لي من أجل أن أحتلّ منصبا أو أفوز برتبة"[1].

ويتّخذ هكذا من الشّرف الخيط الذي ينسج به ثوب رجولته التي يُنكر على الآخر امتلاكها، فيصير وحده الشّريف والنّظيف الذي باءت كلّ محولات إسقاطه في قنّاصة المساومات بالخذلان الذّريع.

فهو لا يُعير اهتماما لتلك الرّتبة الإدارية ولا يُغريه بريقها إن كانت تتحقّق على حساب سمعته. وارتقاء المناصب إن كان يُحرز بعد تركيع الكبرياء يأنفه، فامتداحه لذاته يجعله يمقت تلك الرّتب والمناصب التي يتهالك عليها الجميع ولا يصلوا إليها إلاّ بعدما تُلوّث آدميّتهم، فهو لا يرغب في أن يتحوّل إلى أمثولة يضحك منها الآخر الذي يشهد له بأنّه ليس ديّوثا يُتاجر بجسد زوجته، فيبعث بها إلى أهل القرار لتعقد له الصّفقة الرّابحة مقدّما بعدما تُنجّسه، والآخر يعلم أيضا بأنّه ليس ذاك الأخ اللّئيم الذي يُسكت ضميره ويُهدر حياء شقيقته فيُرسلها إلى من لا ذمّة له تعرض عليه نفسها حتى يتذكّره وهو يُقسّم

---

[1] المصدر السابق، ص.21.

غنيمة الرّتب ويُفرّق مكسب المناصب، كما لم يغب عن هذا الآخر بأنّه لم يُفرّط في ابنته بأن أهداها لأحدهم لينال غايته، فهو يطلب الموت على أن تُلمس شعرة واحدة من رأسها، فهو الرّجل من ضمن كلّ هؤلاء الذي يذود عن محارمه ويقينهنّ من شبهة الفعل وحرجية القيل والقال.

إنّه لا يحسد هؤلاء على ما هم فيه لأنّ كلّ الذي صاروا إليه أو صار إليهم كان بعد أن جُدعت أنوفهم، فهو قانع هكذا بما يُصبح فيه ويُمسي، المهمّ لديه أن لا يتهامس عليه النّاس فينعتوه بالحقير الذي اعتلى عفّة محارمه دون خجل، حتى يربح الرّتبة ويلحق بذوي المناصب، وهو في حقيقته لم يزل بعد في نقطة البدء لم يبرحها لأنّ الانطلاقة الخاطئة تُقصي صاحبها من اللّعبة الشّريفة.

ولكنّ اليقين الواقع أنّ كلّ هذا السّيل من الاتّهامات التي يسكبها على رأس الآخر وكلّ هذا الاعتداد بالذّات الذي يتشدّق به أمام البوّاب إنّما هو لمغالطته وتوجيه رأيه ناحية أخرى، فيكفّ بذلك إلحاحه عليه فلا يُذكّره بنكبته الدّاخلية التي حرص على تخبئتها وبإحكام حتى لا تُبصَر، ولكنّها تخرج إليه فجأة عندما تستفرد به الحالة المهينة فيتصنّم ويخونه القول والفعل ولا يعرف لوضعه تفسيرا، كذاك الموقف الذي حدث له والمدير يضبطه وهو منسجم في حديث مع البوّاب فوبّخه وهدّده حتى تصاغر، وعلى الرّغم من أنّ الدّم فار في عروقه حينها إلاّ أنّه أذعن وسكت مثل الأطفال، وعاد بعدها يسقط باللاّئمة على نفسه "أنت يا الطّيب تنتفخ كالدّيك الرّومي لمّا يخلو لك الجوّ وتظلّ عاجزا عن اتّخاذ قرار جادّ يُمكّنك من مجابهة الغير"[1].

ولا يمرّ عليه كثير من الوقت حتى يفهم علّته فينقطع عن الرّاهن وينبري يُسائل أناه فيُناديها باسم الطّيب مرّة ويُحادثها بضمير المخاطب أخرى، فيُدين أفعال الطّيب ويتّهمه متبرّئا من تبعة ما هو لاحق به، يقترب منه يرجه مستخبرا منه، يطلب تفسيرا لما

---

[1] المصدر السابق، ص.23-24.

صار عليه من تدجين، ولما أصاب أحاسيسه من تصقّع فانكمش لا يقوى على ردّ أذى الآخر المتكرّر عليه وأضحت كلّ ردّات فعله استسلامية.

ويحسّ أنّه لا يدور إلاّ حول ذاته فيثقل عليه رأسه وكأنّ قوّة ما تضغط عليه، ولكن يستمرّ في استنطاقه، أين ذهبت مبادئك التي كنت دائم الجهر والقسم بالالتزام بها؟، أين تلك الرّجولة التي كنت ترفع شعارها رافضا أن تُنكس، ملوّحا بأنّها ملك لك وحدك وأنت تُعلّق على لوم البوّاب لك؟، لماذا لا تُشهرها الآن لتوقف بها ذاك الذي لا يمتنع عن الاستهانة بك ولا ينصرف عن استفزازك ولا يتورّع عن خلق الفرص للتحرّش بك، أم أنّ وقتها لم يئن بعد لأنّها لا تحيا إلاّ عندما تكون بعيدا عن باحة المصارعة، هناك فقط تبرز رجولتك شامخة بأنفها لتصنع منك سيّدا للجميع في غياب الجميع، فتكون أنت المقدام، وأنت المبارز، وأنت المنتصر، وأنت البطل الذي لا يصمد في مواجهته جريء، فيُدوّي صوتك مليئا بانفعال الغيرة على الشّرف والذّود عنه حتى لا يُستباح، ولكن بمجرّد ما يلفحك بعض الخطر حتى تجري نحو الرّمل لتدفن رأسك فيه كما النّعامة. أتدري لماذا؟. لأنّك جبان. كم هي جارحة الصّفة وكم هو مؤلم داؤها ولكنّها حقيقتك، فمهما تحجّجت وبرّرت فأنت تعيش قسوتها، وفي الآن ذاته تتوارى حتى لا يُذكّرك بها أحد لأنّه إن فعل يكون قد رفع الغطاء عن دخيلتك المتشلّئة التي تخاف النّظر إليها أنت نفسك، فما أشقاك بمرضك المستفحل، وما أتعسك بحالك، وما أسعد الآخر الذي يعلم بمرضك فيتمادى في احتقارك واستصغارك ليُصيبك بأكبر ضرر ممكن لأنّه متأكّد من أنّ إرادتك التي فقدت صلاحيتها منذ زمن لن تردّ الصّفعة التي ورمت خدّك، فيبقى هو السّلطة العليا عليك التي تأمرك فتُطيع وتنهاك فتنصاع، وتكون أنت الموظّف البسيط المغلوب على أمره الذي يُمنّي نفسه كلّ مرّة بأخذ ثأره ولكنّه لا يفعل لأنّه لم يستوعب بعد البعد الذي يُغيّر به الأوضاع لصالحة لكثرة تردّده وشدّة تلعثمه الذي يقبض على الكلام في حلقه كلّما وقف الآخر ناظرا إليه بكلّ عتوّه وجوره، فينسحب وقد أودعه هزيمته حتى من قبل أن تبدأ المساجلة.

ويُشدّد الطّيب لهجته مع الطّيب مستفهما منكرا لماذا تُقدّم له الانتصارات مجانا، ألست الأجدر بمكانه؟، أليست لديك شروطك التي تؤهّلك لذلك؟، لماذا أنت متخاذل وصامت؟، لماذا رضيت لحقّك بأن يكون هملا حتى سحبه منك الآخر، هذا الآخر الذي يستمدّ سطوته من خنوعك، وقوّته من إحجامك عن النّظر في عينيه ومواجهته بأنّك أفضل منه، وأنّ المنصب الذي اجترأ به عليك هو من حقّك.

متى يا الطّيب تُعيد الاعتبار لذاتك؟، متى تنزع عنك خرقة الجبن وتنفلت من زاويتك المعتمة حيث لا يراك أحد؟. خذ قرارا إيجابيا واحدا في حياتك تقلب به الموازين اللاّعادلة التي كنت ضحيّتها طوال الوقت. فكّر يا الطّيب، لو فكّرت لاهتديت إلى الطّريقة التي ستُبيد بها الآخر دون شكّ، استرجع الثّقة بنفسك يا الطّيب واضرب صفحا كلّيا عمّا مضى وابدأ من جديد، وكن الأقوى وإن اقتضى الحال اخلط الحابل بالنّابل. أخط هذا الميل وسترى أنّ إشارة منك واحدة سترفعك وترمي به إلى القاع، وتصير خيوط اللّعبة كلّها بين يديك، وقتها يجدر بك أن تُجرعه ما أذاقك إيّاه، وقتها صادر قوّته التي ما انفكّ يُفاخر بها، وأحجر على جبروته الذي كان يُوجّهه سلاحا نحوك، انتقم منه بكلّ المكاييل المعقولة واللاّمعقولة، وحقّره بطرقه المعهودة وبطرقك المبتكرة.

هيّا يا الطّيب تحرّك الآن، الغصّة التي أحرقتك دوما وأنت تنظر إليه من طرف خفيّ، حان موعد إطفائها. هيّا تحرّك يا الطّيب، لماذا لا تردّ؟. دمك بارد يا الطّيب !، وكأنّه ليس دم بشر. ستبقى هكذا يا الطّيب تحترف الخوف ويصرعك الجبن.

ولا يُفكّر الآخر في مهادنته وتتّسع مضايقاته ويتضاعف عقابه له فيأتيه برفّ من الملفّات ويأمره بأن لا ينصرف حتى يُتم دراستها كلّها، حتى وإن تحتّم عليه المبيت في المكتب.

ينظر الطّيب إلى الملفّات التي غصّت بها طاولة مكتبه ويختنق غضبا فتتلوّن طبيعة وجهه وينتفض في كتمان على ما كُلّف به ويراه ليس من مهامه، ولكن يعود فيبزّه جُبنه

فيقبل القيام بما فُرض عليه، وهو يقول لنفسه "لن أعطيه تلك الأهمّية. هو يُريد أن يستفزّني وأنا سأحتقره. سأنفّذ العمل ولو بتّ معه ولا أحدّثه"[1].

لقد دأب جبنه على أن يدلّه على السّبل الهروبية التي تكفيه شرّ مقارعة الآخر ولا يبخل عليه في هذه المرّة أيضا، فيُريه طريق النّجاة الذي يتعيّن عليه عبوره، فيُوحي إليه برأي في ذروة الغرابة، وهو أن يتجاهل الآخر فلا يُواجهه لأنّه إن فعل فهذا يعني أنّه يوليه من الأهمّية القدر الكبير، وهذا ما يُحاول أن يناله بشتّى التّصرّفات، وما دخوله في صراع معه إلاّ وجه من أوجه إحراز هذه الأهمّية.

ويُوافِق جبنه فيما يدّعيه ويُقرّر أن يسكت ويُذعن لأمر الآخر فلا يدخل معه ساحة المشاحنات لأنّه بالنّسبة إليه يُساوي لا شيء، وهو يخجل أن يكون في نفس مرتبة اللاّشيء، لن يوصله إلى غايته فيصير مهمّا على أكتافه، ويرقى قيمة في نظر الجميع الذين يُريدهم أن يمتدحوه مكبّرين مكانته التي لا يطالها أحد.

ومن شدّة ضعفه لا يفهم الأمور على حقيقتها، فحينما يقول عن الآخر أنّه يرغب في استفزازه، فهذا يعني أنّه استفزّه فعلا، ولا جديد في ذلك، فقد بات إزعاجه له شيئا معروفا وظاهرا. ولكنّ رعبه يَكذب عليه ويُقنعه بأنّه الأهمّ والأرقى، وعليه أن يتسامى عن تلك الأفعال الخرقاء، فلا يوليها بالا.

ويظلّ طوال الوقت يُدرك الأشياء معكوسة أو يتعمّد إدراكها معكوسة، فهو حينما يُقرّر الانكباب على تنفيذ ما يُرغم عليه من أعمال تعجيزية، يُولّد في اعتقاده أنّه نجح في تصغير الآخر، في حين أنّ الصّورة الصّحيحة هي أنّه هو المحتقَر، لأنّه لو أراد الحطّ منه كما يزعم لكان امتنع حازما عن القيام بما طُلب منه لأنّه ببساطة لا يمتّ بعلاقة إلى عمق عمله، ولكان أجاب إزعاجه له بإقلاق أكبر منه وأوسع، لا بالامتثال له والتّضحية بالجهد، والبقاء بعد ساعات العمل وانصراف كلّ الموظّفين الذين لم يتعرّض أيّ واحد فيهم لِما يُكره هو عليه ويرضاه على إنسانيته اللاّمبالية التي تبيت اللّيل كلّه في عمل لا يخصّها،

---

[1] المصدر السابق، ص.35.

متبرّعة براحتها ووقتها لأنّها لم تحسم شأنها وتتصدّى للآخر، فتُريه خطأه وتُنبّهه إلى أنّ ما يرتكبه هو خروج تامّ عن قيم العمل وقواعده، وأنّه مثيل له، فكلاهما موظّف لدى مؤسّسة عمومية، وكونه مسؤولا فيها أو عليها لا يُعطيه الحقّ في اعتبارها ملكا له، وموظّفوها ليسوا عبيدا يشتغلون عنده، وأنّه مثل غيره محميّ بسلطة القانون التي تُقيّد العامل بساعات دوام معيّنة ومحدودة، ولا يُلغى هذا الشّكل إلاّ في الحالات الاستثنائية حيث يُجبر كلّ الموظّفين والعمّال على أن يزيدوا بعض الوقت فوق زمن عملهم المعروف.

ويحول تفكيره السّطحي بينه وبين تتبّع مجريات ما هو مسلّط عليه من حالة عقابية تنكيلية، شُلّ عن مواجهتها بالكلام، فكيف بالفعل؟.

ويستمرّ تهيّبه من الآخر يبخسه مكانته، على الرّغم من مستواه وخبرته، ويسترخصه حقّه ويُحمّله ما لا يُطيق، فيتحوّل بليدا لا يُحسن كيفية ربط الأسباب بنتائجها، وهو يُعدّ تقريرا للوزارة عن المؤسّسة ومدى قدراتها التي تجعلها تستغني عن استيراد المواد من فرنسا وتكتفي باقتنائها من الأسواق المحلّية، وبعد إنهائه للتّقرير تجهض محاولة وصوله إلى الوزارة لأنّه يقع بين يدي الآخر، فيدخل عليه هذا الآخر مكتبه مقتحما فيُعنّفه حتى يوشك على ضربه، حينها يتنبّه أنّه مغفّل، بعث بالتّقرير مع السّائق وهو يعلم متانة العلاقة بين الآخر والسّائق. وتقرّر بهذا مصيره في أن يظلّ مسحوقا لا يجرؤ على فرض حكمه على أيّ كان.

3 -الشمعة والدهاليز: الطاهر وطار.

وتستكنه رواية الشّمعة والدّهاليز [1] نوعية لمثقّف مختلف الملامح عمّا سبق يُدعى سليم إلاّ أنّ أعراض السّلامة لا تشمله، فهو أستاذ جامعي وشاعر سيّج نفسه بإحكام بحيث لا يصل إليه الجنس الآخر، ليس له صديقة، ولا يمتلك حبيبة، ولم يُفكّر في الارتباط وقد

---

[1] الطاهر وطار، منشورات التبيين الجاحظية، الجزائر، 1995.

جاوز الأربعين. يعيش العزلة الإرادية، لا يعرف أحدا من جيرانه ولم يسمح لأحد بدخول بيته ما عدا أخته التي كانت تزوره في بعض الأوقات.

وبينما هو وحده في بيته ذات يوم كعادته إذا به يسمع جلبة عظيمة بالخارج يصل صداها حتّى بيته الموصد النّوافذ، فيُملي عليه فضوله بأن يخرج لاستطلاع جليّة ما يحدث، وعندما وصل إلى مصدر الصّوت تفاجأ بحشد عظيم للبشر عجّت بهم المدينة وهم يُهلّلون ويُكبّرون. لم تواته الشّجاعة لأن يقترب منهم كثيرا فتنحّى جانبا وراح يرقب ما يحدث. كانت صفوفهم متراصّة إلى أن فرّقتهم القنابل المسيلة للدّموع التي كان يرميهم بها رجال الأمن، فخشي على نفسه خطر البقاء في الشّارع فانسحب راجعا القهقرى يجري مرّة ويحثّ الخطى مرّات، وهو يُعيد بصوت خافت العبارات التي كان يُردّدها ذاك الحشد وكأنّه يستحثّ ذاكرته حتى تحفظها "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله"[1].

وتعترض طريقه مجموعة من شباب ذاك الحشد ويسألونه من يكون فيُجيبهم "أنا شاعر منكم"[2]، ويصوغ الخوف هذا المثقّف ارتجاليا في تفكيره وسريع المضي باتّجاه تحقيق هذه الارتجالية التي تنعكس على أفعاله وسلوكاته، فهو يُقرّر في لحظة مسألة الانتماء إلى تنظيم من النّاس لا يعلم عنه أدنى حقيقة، فهو لا يعرف من يكون هؤلاء الأشخاص، من الذي يصنعهم ولا ماذا ينتحلون من عقيدة أو عقائد، ولا ما يدينون به من مبدأ أو مبادئ، ولا ما ينتمون إليه من ملّة أو ملل، لا يعرف لصالح من يتحرّكون وضدّ من، لا يعرف المكان الذي منه ينطلقون وصوبه يرجعون، لا يعرف من يحكمهم فيُوجّههم، ومن يقودهم فيُحرّكهم، لا يعرف ماذا يبغون وبما يُطالبون ولما يُطالبون وممّن يطلبون، لا يعرف تعدادهم ولا تحت أيّ سقف اجتماعي يُقيمون ولا إلى أيّ المراتب الثّقافية ينتسبون، لا يعرف ماذا يكرهون وماذا يُحبّون وماذا يُفضّلون، لا يعرف كيف

---

[1] المصدر نفسه، ص.22.

[2] المصدر نفسه، ص.23.

يتصرّفون في حال الغضب وكيف يُصبحون في شكل الرّضا، لا يعرف رموزهم التي بها يتفاهمون ولا إيماءاتهم المشتركة بينهم والتي بواسطتها يتحاورون.

ويصير هكذا بفلتة لسان معهم، يُوافق أن ينسحب عليه ما يجري عليهم دون أن يحسب لذلك نتيجة، بتبعة لسان يُلحق مصيره بهم دون أن يكون له تصوّر لِما ستؤول إليه الأمور في مستقبلها، بحركة لسان يتدحرج بأقصى قوّة منحدرا إلى أسفل فيتوازى مع الأمّي ويُماثل الجاهل وهو ينفي تفكيره، فلا يتأمّل فيما يحدث حوله ولا يتدبّر الشّؤون، فيقلبها ممحّصا ليُدرك زائفها من أصيلها، ولا يأخذ فسحة من الوقت ليتقبّل أو يرفض، فيجرّ نفسه كما يجرّ المتاع، وكأنّه ليس على عاتقه مهمّة تنوير أجيال بأكملها وتعليمهم كيف يتعاملون مع راهنهم ليصيروا منه أو عليه، وكيف يضبطون تفكيرهم متعافيا ليُسيّر كلّ خطواتهم.

وهذا ما يستحيل إليه المثقّف إن هو "لم يجد في الحياة عملا يلتزم به، يقع في العزلة والفراغ والتردّد" [1]، ثالوث لا ينبت إلاّ في الأرض التي خصّبها الخوف، ولأنّه كان يرزح تحت ثقل هذا الثّالوث، تغلّبت عليه شراهته في الانتماء إلى أيّ شيء والانتساب إلى أيّ كان، معلنا بصورة ضمنية أنّه ملّ الوحدة التي ضربها على نفسه، فتاق إلى أن يكون له مكان مع مجموعة من البشر وكفى، غير مكترث بتفكيرها ولا بتصرّفاتها، المهمّ أن يُعوّض زمنا عاشه بعيدا عن صنوه البشري.

هدف جعله يتميّه وهو يُردّد ويُكرّر بكثير من الحذر شعارات سمعها دون أن يدري لها موردا أو مضربا، هدف جرّه وهو يُعلن عن ماهيته، إلى إخفاء الهوية الأولى مستقيلا متبرّئا منها، التي هي الأستاذ، ويُقدّم الثانية التي هي الشّاعر ويشدّ على وتدها مقدّسا إيّاها لأنّه تقفّى فيها منجاته.

---

[1] عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة: 1882–1952، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1985، ص.429.

وبهذا تسبق حركة الفعل عنده عملية التّفكير التي تتبرقع فلا تبرز لتكبحه إلاّ بعد أن يكون الفعل قد اجتاز مساحة غير هيّنة واقترب من الوصول إلى غايته. وفي هذا الزّمن المتأخّر، يُريه منطقه أنّ العمل ذاك لم يكن في وقته ولا في مكانه لأنّه لولا حبّ الاستطلاع الذي يسكنه ما كان في ذلك اليوم قد غادر البيت وزجّ بنفسه داخل الشّارع ليُشاهد ويسمع، وما كان جهر بالإعلام الخطير الذي يدفعه لأن يتساءل الآن "هل يُمكن أن تكون بينه وبين هؤلاء النّاس صلة ما؟، هل ينبغي أن تكون بينه وبين هؤلاء النّاس صلة ما؟"[1].

هل يُعقل أن يكون مع هؤلاء النّاس الذين لا يقدر حتى على تمييز أسمائهم أو تعليم وجوههم؟، هل هو واع بالعواقب التي ينوي جرّ نفسه إليها؟.

هل يُمكنه تحمّل المجازفة بمرتبته العلمية وبوظيفته الثّقافية، هو الأستاذ الجامعي، فيُضحّي بكلّ ما وصل إليه وينضمّ إلى أولئك البشر فيخرج معهم إلى شوارع المدينة ضمن صفوفهم الحاشدة الصّارخة والغاضبة والمطالبة، هل سينجح في تمثّلهم في نقمتهم؟، هل سينصاع صوته إليه فيعلو بالصّياح كما هم، وفرضا أنّه أتقن تقليدهم فيما يفعلون، فبأيّ حقّ تائه منه سيُطالب هو الذي ظلّ حياته مسالما لم يسمع جيرانه له صوتا.

وكيف سيتحوّل شكله وهو يُنادي مطالبا بأمور لا تعنيه أم أنّه سيجلس مفاوضا ذاته وبرويّة سيؤلّف رغباته الخاصّة، وعندما يكون مدسوسا معهم وتشتدّ حميّتهم في تلك الصّفوف حينئذ يجهر بمطلوبه.

وهل يتحمّل الأستاذ فيه منظره وهو يُرشق بالقنابل المسيلة للدّموع أو يُرمى بغيرها فيُولّي الأدبار هاربا، يجري لاهثا، يحتمي بالشّوارع فيرميه شارع ليلتقطه آخر إلى أن يضيع منه طريق عودته؟.

---

[1] الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص.60.

وإن استساغ تصوّره كلّ هذا فهل سيقبل أن يُساق إلى مراكز الشّرطة إن هو قُبض عليه، فيُعامل كمشاغب يُقلق استتبات الأمن؟، وعندما يسألونه عن مهنته بما يكون جوابه؟، هل سينكر عمله ويدّعي بأن لا عمل لديه؟.

وعندما يأمرونه باستظهار هويّته، هل سيكذب ويقول بأنّه نسي حملها معه؟، وإن فتّشوه وهذا محتمل ووجدوها وحقّقوا في أمره واكتشفوا أنّه أستاذ جامعي، فما الرّدّ المقنع لحالته هاته؟، هل سيكذب مرّة أخرى أيضا فيقول أنّه ليس معهم ولم يكن معهم، وأنّه كان مارّا في الشّارع لشأن من شؤونه فإذا به يُصادفهم، ولمّا اختلط الحابل بالنّابل قُبض عليه معهم خطأ، وهو بريء منهم؟.

أم أنّه سيرى نفسه بطلا فيُكابر ويُغالط ويُعلن بأنّه منهم، يؤمن بما يؤمنون، ويُدافع عمّا يُدافعون، ومستعدّ على أن يهلك معهم إن استدعى الأمر في سبيل قضيّتهم التي لا غبار عليها، وأنّهم مظلومون توجّب إنصافهم، وأنّه مع العدالة ولا يُمكنه أن يراها تُغتال ويتسمّر متفرّجا على مشهد موتها.

ثمّ يستدرك رشده ليتساءل ثانية، ولكن ما الذي يُجبره على تبنّي كلّ هذا، ما الذي يحمله على دخول المتاهة برجليه؟، ألا يليق به أن يظلّ بعيدا أحسن له؟، فيتولّى خصوصياته ويكفّ عن التّمظهر بما ليس فيه، وليبقى مثلما كان دائما الأستاذ الذي يتحدّد انشغاله في عمله وعلمه، فلا يتشعّب إلى انتشارات أخرى لا يسعه التّحكّم فيها، ثمّ يتذكّر الالتزام الذي كلّف ذاته به عندما انتمى إليهم ذات لحظة ويهتدي إلى تبريره وحلّ ما قطعه، وأنّه لم يُصرّح بذلك إلاّ بعد إحساس الخوف الذي انتابه، وهو الآن غير مقيّد باحترامه.

غير أنّ هذه المسألة الذّاتية لم تعصمه من أن تغوص قدماه في أرضيّتهم بعد أن التقى بأحد أمرائهم الذي رحّب بأن يكون معهم، فتمنّى وقتها "من صميم قلبه أن يبقى بعيدا

عن مجريات الأمور، يكفيه أن يُحلّل، أن يجمع المعطيات كعادته وأن يُقيم الإشكاليات جميعها، ويتنبّأ لينتشي فيما بعد وهو يرى تنبّؤاته تتحقّق واحدة بعد الأخرى"[1].

ويسمع خطوات الخطر تدنو منه شيئا فشيئا، فيتملّكه الخوف، وعوض أن تصدر منه ردّة الفعل المناسبة التي تنحرف به عنه، تخذله شجاعته الخائبة وتُجمده في موضعه دون حركة وقد فقد القدرة حتى على النّطق بكلمة "لا" المنهية لكلّ أتعابه الحالية، والماحية لمعاناته المقبلة التي من المرجّح أنّها لن تكون إلاّ قاسية.

إنّه لا يُريد أن يُقحم في الأجواء المشحونة بالغلّ والضغينة التي ما تنفكّ أن تتحوّل إلى مشاحنات ومنازعات مجنونة، تلعب فيها الجريمة وتصفية الحسابات على كلّ الخيوط، فهو سيزدري نفسه إن أضحى ورقة لعب في يد هذا أو ذاك، فقد عاش أكثر من أربعين سنة يحيد ما أمكنه عن طرق الحساسيات وسبل الحزازات، فهو رجل فكر يُجلّ العقل ويُكبّره، وعمله لا يكاد يخرج من هذه الدّائرة التأمّلية التي تُتيح له المشي في مسارات تقصي الظّواهر بأن يجمعها ويُرتّبها ويوصلها بما يُجاورها، ويفصلها عمّا يُجانبها فيقف عند أعراضها ودواعيها، فيتناولها بالتّحليل والتّشريح والمقارنة والقياس والرّبط والحذف، فيتحقّق له تفسيرها، ويتسنّى له في آخر الأشواط الحكم لها أو عليها، أو يفتح أسباب التّوفيق بين قطبيها الإيجابي والسلبي، فتُضاء له المنارات الاستشراقية لتؤكّد له صدق رؤاه الغيبية، فيمتلأ بنشوة الانتصار ويبقى كلّما توالت تلك النّظرات المتحقّقة، تضخّم فرحه، وزاد رضاه على ذاته وتوثّق اعتداده بها، ولذا فهو ما أحبّ في حياته غير الفكر ومعانيه.

أمّا السّياسة التي شاء له الآخرون أن يدخل باحتها لأنّه لم يقدر الولوج إليها بمفرده فهو لا يُحسن فهم أساساتها ولا الطّريقة التي تشتغل بها هذه الأساسات، ولذا فهو يتمنّى أن يُحدّد وضعه بشيء من الدّقة بإزاء ما صار إليه وعليه بحيث يعتذر منهم ويُعلن انسحابه من تنظيمهم لأنّه يحسّ بالعجز عن مواصلة السّير إلى جانبهم، ولكن يعود فيُحجم لأنّ

---

[1] المصدر السابق، ص.94.

توقيت العودة فات، وهو في هذه الحال مرغم على أن يصون ماء وجهه فلا يقولون عنه جبان تخلّى عن المبدأ وانسلخ عن نصرة الحقّ وأنّه ليس أهلا لرتبة الأستاذ الجامعي ولا يستحقّ أن يعيش، وقد يُفهم موقفه بأنّه خيانة، وإن سكتوا عنها فسيُعرّضون صفوفهم للتزعزع والتشتّت، فيكون الاتّفاق على إنهائه، فيستبيحون دمه ويسترخصون حياته، فيُعثر على جثّته ذات صباح أو ذات مساء في إحدى الشّوارع مطموسة، لا يستطيع أحد التعرّف عليها.

ويقتنع بأنّ التّراجع ليس في صالحه الآن، خاصّة وأنّه بدأ يتعاطف مع هذا التّنظيم وأصحابه منذ التقى بتلك الفتاة المتحجّبة التي أحبّها بمجرّد ما رآها تسير في الطّريق حيث همّ بتوقيفها والتحدّث إليها والسّؤال عن حالها. بدت له أليفة يعرفها، عرفها منذ سنوات، غابت عنه ورجعت فعثر عليها، فراح يتبع خطواتها واستقلّ الحافلة معها واقترب منها حتى إذا ما صار إلى جنبها، سألها "يُخيّل لي أنّي أعرفك. ألا تعتقدين أنّنا التقينا قبل اليوم"[1].

ويُنْخَرُ الحصن الذي قضى عمره يُشيّده ليحتمي به من الأخرى حتى لا يراها أو يفتعل أنّه لا يراها، فكان الفراغ المهول الذي وقف على مشارف ذاك الحصن متوثّبا جاهزا للهجوم حتى لا يسمح لتلك الأخرى بالاقتراب.

ويتراكض سقوط حجر الحصن ويتهاوى جزء منه، ومن الفتحة الحاصلة فيه تتسرّب إليه أشعّة الضّوء فتنسحب الضّبابة من على عينيه، وما أن يلمحها حتى يعرفها إنّها الأخرى فيعدو خلفها مفزوعا ليلحق بها، يُريد التّأكّد من أنّها هي وأنّ بصره لا يخدعه، ويتساءل أين غابت عنه كلّ هذه المدّة وكيف رجعت؟، هل عثر عليها بالصدفة أم أنّها هي الأخرى كانت في صدد البحث عنه، فتقاطع نهجاهما فالتقيا من جديد، وتمتلأ قوقعته الرّوحية فرحا ثمّ يتأنّى خائفا أن تكون مجرّد خيال، فيُساوره الشّك في صدق

---

[1] المصدر السابق، ص.105.

الصّورة التي رأى، فيقترب منها يُحاذيها ثمّ يسألها لأنّها هي فقط من يملك أن يؤكّد أو يدحض تهيّئاته.

ويُكاشفها بأنّه عرفها حتى بعد هذا النّأي كلّه ويسألها متى عدت؟، ولِما اختفيت؟، وأين كنت طوال هذا الزّمن؟، ومتى رجعت؟، ويستطرد كما لو كان يُجيب نيابة عنها، أظنّ أنك لم تتذكّرينني بعد، لقد التقينا قبل اليوم، كان ذلك منذ فصول كثيرة، أنا متيقّن أنك لو فتّشتي عنّي في ذاكرتك القديمة لوجدتني هناك، ويحسّ أنّها لم تتذكّره أو أنّها لم تبذل المجهود لتتذكّره فيُعقّب، لا ضير المهمّ أنّي غير واهم بأنّنا التقينا قبل هذه اللّحظات، فمن الصّعب علي نسيان البشر الذين التقيت، وخصوصا أنت، ويلتمس لجهلها إيّاه الأعذار. ربّما شكلي يكون تغيّر ولهذا لم تتمكّن من استحضار صورتي، فأنا كبرت بعض السّنين، وطبيعي أنّ بعضا من ملامحي يكون قد اختلف، ثمّ إنّها لم تنف معرفتها بي، وهذا مؤشّر يقول أنّي مصيب فيما أجزمت به. المهمّ من كلّ هذا أنّي لن أصير بعد الآن وحيدا كما كنت، سترتاح ذاتي وستنعم بالسّعادة.

وعندما وصلت إلى محطّتها ونزلت تمنّى لو أنّها ظلّت معه، لو أنّها نظرت إليه ليختزن فكره صورتها فيعرضها عليه كلّما استبدّ به الحنين إليها واشتدّ.

ومنذ ذاك اليوم لم يتركه خيالها وحده، فكان معه في كلّ خطوة وفي كلّ عمل، وفي بعض المرّات كان يغرق في شعوره وهو يستعيد النّظر إلى عيناها فيهتدي إلى "ذالكم النّداء الاسترحامي، أهي مريضة تشتكي وجعا ما؟، أهي تُعاني مشاكل ما؟ قد تكون مضطهدة في منزلها، وقد تكون في حاجة إلى حنان الأبوين !. ربّما تستغيث من وحدة؟، ربّما ملّت المطاردات؟، ربّما ملّت السّحابات الكاذبة؟، قد تكون تنتظر فارس أحلام جادّ!"[1].

وَجْدٌ أصابه فصارت هي شغله الذي يصعب أن يتوقّف، وبمفرده كان يُباشر العقد والفكّ بشأنها، فيحتمل ويستبعد ويتوقّع وينفي ويجزم ويتحفّظ ويغلب ويحكم، وهو بإزاء

---

[1] المصدر السابق، ص.112.

هذا كلّه يهدأ ثمّ ما يلبث أن يضطرب وهو يورد زخما من الاستفهامات ليُفسّر بها ما كانت تبوح به عيناها، فقد أحسّها تدعوه، تطلب عطفه وتتمنّى أن يُشفق عليها قلبه، ربّما كان ذلك من أثر داء أصابها فكابدت ألمه، وحينما ألحّ عليها وفشلت في هزمه ارتسم على صفحة عينيها؟، أم أنّ المعاناة ليست من علّة جسدية، فهي بعافيتها وصحّتها؟، والوجع هو من عوائق لم تتمكّن من إماطتها عن طريقها، فظلّ اصطدامها بها يُعثرها، وفي كلّ عثرة كانت تتأوّه وتكتم إلى أن ضاق بها وضعها فجهرت بآهاتها.

ولا تُقنعه هذه الإجابة الثّانية مثل الأولى تماما، فيُرجّح أنّها تُقاسي القهر في بيتها، قد يكون لها أب متسلّط متجبّر يؤنّبها لأتفه الأسباب ويُهينها دون مبرّر فقط لأنّه أبوها وهي ابنته، وهذا كاف لأن يُسلّمه الحقّ في أن يسهر على تربيتها بالطّريقة التي يرتضيها صحيحة، فالآباء دائما على صواب وهم في النّهاية لا يهمّهم إلاّ مصالح أبنائهم التي لا يعيها إلاّ الآباء الذين لا يحلّ لأبنائهم محاسبتهم أو لومهم.

أو أنّ المشقّة لم تأتها من الأب بل من أمّ دائمة الصّراخ والتّوبيخ، فلا شيء يصدر عنها يُعجبها لأنّها تُريدها نسخة منها، وهي تمتنع أن تكون نسخة من أحد، حتى وإن كانت أمّها. ولذا فهي تُفضّل أختها عليها لأنّها مؤدّبة لا تُناقش ولا تتبرّم وتُذعن بسهولة لكلّ أوامرها.

وقد لا تكون الشّكوى من الأمّ، بل من أخ عاق للأخوّة، لا يستطيع أن يُثبت وجوده إلاّ من خلال مضايقاته لأهل البيت، فلا يترك أحدا بسلام مع شأنه، وتكون هي المستهدفة باستمرار، فكانت تتذمّر من سلوكه الأرعن وتعامله الصّفيق، وكانت كثيرا ما تُبلّغ أباها وأمّها احتجاجها على ما يرتكبه من أخطاء، ولكن بلا فائدة.

ويسحب هذه الإجابة أيضا لأنّها لا تُرضي منطقه، ويؤلّف أخرى، فيراها يتيمة الأب والأمّ، ملّت غربتها التي امتدّ طولها فاستصرخت من يقوى على إعانتها لتخليصها من الوحدة التي توشك أن تودي بها. ويُلغي هذا الاحتمال أيضا، فتكون إنّما تصيح وتتظلّم من تجاربها العاطفية السّابقة الكثيرة والفاشلة ومن الوعود المتتالية الكاذبة التي لم تجلب

لها ما كانت تأمله من استقرار، فقرّرت أن تنتظر الفارس الشّريف الذي تعلو به سلامة محاسنه وجميل طبائعه ليكون لها العون في الشّدّة، والرّاحة بعد المشقّة، الشّريف الصّافية مكايله من الزّيف والمكر، فتطمئنّ على نفسها لأنّ لا ظلم يلحقها معه، الشّريف الذي لا يُماري لأجل مصلحة ولا يتكلّف نظير شكر ومدح، الشّريف الذي إذا صادق يُصادق متسامحا قويّا وإذا خالف يُخالف عزيزا رفيعا، لا ضغينة تُحرّكه ولا عداوة تؤرّقه، وإذا أذعن يُذعن للحقّ دون خوف ولا ذلّة، هذا الشّريف الذي لن يكون إلاّ هو الذي تعشق، رقصة الفرس منذ كان طفلا، وما الفرس إلاّ علامة من علامات الفروسية، وما الفارس إلاّ ذاك الذي يختزن كلّ دلالات الشّرف.

الرّقصة التي أتقنها في صغره ورافقته في كبره فلم يتوقّف عن ممارستها ولا نسيها يوما "احتزم ثمّ ارتدى البرنس واتّجه إلى غرفة التلفاز، قلّب ضمن أشرطة عديدة واستخرج شريطا حشاه في المسجّلة وضغط على زر ورفع الصّوت إلى أقصى حدّ وانطلق يرقص على اللّحن الفلكلوري الذي تُجسّده أساطير عدّة تتحدّث كلّها عن الفارس الفازع، والاستفزاع كان يطوي الغرفة جيئة وذهابا يلهث، العرق يتصبّب منه، وجناحا البرنس يتطايران. وقع مغميّا عليه جثّة هامدة واللّحن ينطلق"[1].

لقد كان أوّل عهد له بهذه الرّقصة وهو في المدرسة الفرنسية الإسلامية بقسنطينة، وها هو قد استقرّ في العاصمة منذ عدّة سنوات ولم يُفكّر في التّخلي عن مزاولتها، فهو يُعاود تجسيدها كلّما حنّت نفسه لذاك الزّمن وتمنّت أن تعود لذات المكان.

وهو لا يشرع في تأديتها إلاّ بعد أن يصنع لها احتفالية ردائية خاصّة لأنّ اللّباس العصري الذي تعوّد النّاس عليه في هذا الوقت يُفسدها وينزع عنها كثيرا من معانيها، فهي لا تصحّ في نظره إلاّ إذا اقترنت بجذورها الأولى وهي لبوسها الأصلي الذي يمنحها توازنها ويُقوّي انسجامها.

---

[1] المصدر السابق، ص.69-73.

ويتوجّه إلى حيث خزانة الثّياب فيستبدل سرواله الضّيق بآخر فضفاض ويشدّ على وسطه بنطاق عريض محكم ثمّ يضع على كتفيه البرنس العريض المجنّح الثّقيل الدّقيق السّبك والمضبوط النّسج، الذي تُحيكه أنامل الأمّهات وأيدي الجدّات في البيوت.

نظر في المرآة فأعجبه الشّكل الذي صار عليه وتمايل بخيلاء الفارس ومرّت بذهنه فكرة أن يتزيّ ذات يوم به ويخرج ليراه عليه رفاقه الأساتذة في العمل وطلبته والجيران وكلّ النّاس الذين يُصادفهم في الشّارع، وعندما ينتهي من تأمّل الفارس الذي أصبحه، يدخل غرفة التّلفاز ويتوجّه حيث الأشرطة الكثيرة والمتنوّعة ويبدأ بتقليبها باحثا عن شريط بعينه، وما أن يجده حتى يعلو وجهه الاغتباط، يُمسكه بين يديه بكلّ رقّة وكأنّه يخشى عليه التّلف، يضعه في المسجّلة، يُغلقها برفق ويضغط على زرّ التّشغيل فينطلق منها لحن شعبي، لا يُرضيه الصّوت المنخفض، يرفع الصّوت إلى ذروة حدوده، وتكون بهذا "الموسيقى الشّعبية ملاذا"[1].

ويبدأ عملية الرّقص التي تزيد تأكيد الفعل الاحتمائي، فيُصبح الفرس والفارس في ذات الآن، يرفع رأسه ثمّ يُخفضه، يضرب برجليه الأرض ثمّ باليمنى فقط ثمّ باليسرى، يفتح ذراعيه ويرفعهما إلى أعلى، يتجنّح البرنس فيبدو شكله كالنّسر المحلّق الفاتح جناحيه، الباحث عن فريسته يُريد تخطّفها من عل، ثمّ يخفض ذراعا ويرفع أخرى بالتّناوب، فتشتدّ قوّة النّسر وهو يضرب بجناحيه في الهواء. يُخفّض ذراعيه، يُحمحم كما الفرس، يختب الغرفة روحة وعودة وكأنّه في ميدان الحرب، يكرّ ولا يفرّ، يُقبل ولا يُدبر، يطوف ويجول ويُبارز الأشاوس من الرّجال فيهلكهم، ثمّ يعود فيحمل ويضرب ويبطش فينتصر، وتزيد سرعة دورانه بالغرفة فيشعر بالإعياء، يتصبّب عرقه، لا يُريد أن يتوقّف، يحسّ الغرفة ترتجّ من حوله والأشياء تدور من حوله أو هو يدور حولها، لا يقدر على الصّمود أكثر فيخرّ على الأرض مغشيّا عليه، والمسجّلة ما زالت تبعث بذاك اللّحن

---

[1] عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص.104.

الأسطوري الحبيب إلى قلبه، وكان هذا حاله، في آخر كلّ رقصة يسقط الفارس، ليُعاود النّهوض للمعركة المقبلة أو للرّقصة المقبلة.

وبقدر ما كان الفارس يمقت الخيانة صوّر له خياله ذات مرّة بأنّه سيكون مستهدفا وسيُحاولون إبادته غدرا ولكنّه لن يسمح لهم بإيذائه، سيتصدّى لهم باستعمال "الخنجر الذي اشتراه لهذا الغرض. يقف في زاوية مظلمة أو جانب المدخل ويبقر أوّل المتجرّئين، يتناول بندقية الصّيد المحشوّة بخرطوشين ويُطلق النّار في الهواء أو في صدر أحدهم. بالإمكان التّسلّل من إحدى الشّرفات أو النّوافذ والوثوب عند أحد الجيران والاستنجاد من هناك، لقد ربط حبلا بدرابزون الشّرفة لهذا الغرض"[1].

وتسرّه قناعته بأنّ الفكرة التي تمثّلت له ثابتة فأضحت تُلازمه وتتحرّك معه مثل ظلّه، ومع انبلاج كلّ يوم كان يحسّ توقّعه يقترب ليُلامس الحقيقة أو ليكون الحقيقة فيستشعر خطر هؤلاء الذين لن يتركوه في آمان، هؤلاء الذين متى أُمروا بمهاجمته سيفعلون وبلا تردّد، إذن فعليه هو الآخر أن لا يتراجع فيحتاط لأمره، فلا يمكث أعزلا حتى يفتكوا به، فهو لا ينوي أن يُسهّل عليهم جريمتهم بأن يغدو لقمة سائغة لأسلحتهم بل سيعيث فيهم ويجعلهم يتحسّرون على اللّحظة التي فكّروا وقرّروا فيها تصفيته.

ولذا فقد اقتنى خنجرا يصلح بشكل جيّد لهذا الغرض، فبمجرّد أن يشكّ بأنّهم يجوسون خلال الحي ويقتربون من بيته ليقتحموه، وما أن يفعلوا حتى يحمل عليهم، فهو أوفر حظّا منهم لأنّ البيت له وهو يعرف كلّ ركن وزاوية فيه، فما عليه إلاّ أن يختبئ لهم في مكان معتم بحيث لا يظهر، وأوّل واحد فيهم يخطو عتبة الباب يغرز فيه خنجره ولا يُبالي به أين تُصيبه الطّعنة.

أمّا مصير البقية فسيُنهيه عن طريق البندقية التي حمّلها منذ زمن بخرطوشين اثنين حتى تكون في متناول استعماله، سيطلق الخرطوش الأوّل في الهواء بداية حتى يُرعبهم، فإن خافوا وهربوا يكون قد تخلّص من وزرهم، وإن قرّروا المكوث فسيُوجّه الخرطوش الثاني

---

[1] المصدر السابق، ص.190.

إلى صدر أحد فيهم ويُرديه صريعا، ولن يَجْبُنَ عن قتله، ولن تأخذه به شفقة لأنّه لو تهاون في ذلك فإنّه سيكون هو المعدوم لا محالة.

وربما إن أنهى واحدا فيهم فسيلوذ الباقون بالفرار، وإن صمدوا فإنّه سيجري إلى الغرفة ذات الشّرفة، فقد علّق في سياجها الحديدي حبلا متينا لهذا الطّارئ يُمكّنه من التّسلّق ليصل إلى شرفة أحد الجيران فيطلب نجدته.

تناقض صارخ، جيرانه الذين لا يعرف أحدا منهم، جيرانه الذين حينما كانوا يُسلّمون عليه لم يكن يرض بردّ التّحية، ولكن عندما تُسدّ في وجهه المنافذ يتذكّر أنّ له جارا، وقد يكون منقذه الوحيد من الموت المحتّم.

ويصدقه حدسه مثلما كانت تصحّ تنبّؤاته في تحاليله وتعاليقه وتفاسيره، وتصل إلى بيته يوما جماعة مسلّحة وملثّمة، فلا يتمكّن من التّعرّف على أحد وتُنفّذ فيه حكم الموت، ولا يستطيع أن يفعل أيّ شيء من ذاك الذي كان قد افترضه لينجو منهم.

الفصل الخامس

الشّخصية الاكتئابية

أـ ماهية الشّخصية الاكتئابية.

ب- الشّخصية الاكتئابية البسيطة وتشكّلاتها في:

1- ريح الجنوب: عبد الحميد بن هدوقة.

2- الأنفاس الأخيرة: محمد حيدار.

3- سيّدة المقام: الأعرج واسيني.

ج- الشّخصية الاكتئابية المركّبة وتشكّلاتها في:

1- وقع الأحذية الخشنة: الأعرج واسيني.

2- بان الصّبح: عبد الحميد بن هدوقة.

3- النّخر: إبراهيم سعدي.

الشخصية الاكتئابية

لابدّ من التّأكيد ي مطلع هذا الفصل على أنّ الاكتئاب تشويش يلحق باطن النّفس فيتغيّر استيعابها لِما حولها ويقصر وعيها بمدركاتها المترسّخة فتنقلب مرجعيّاتها وتنعكس عليها لتستحيل إلى لون ما عهدته من قبل.

وكان يُعتقد فيما مضى أنّ سبب هذه التبدّلات إنّما يعود إلى "أرواح شرّيرة" [1] تتسلّط على الذّات الأدمية فتسلبها رصيدها من التّوازن التّعاملي والمفهوماتي للأشياء، وتمنحها بالمقابل بديلا تخريبيا يعمل على هدم كلّ الأنساق التي تكون قد رُتّبت وفقها هذه الذّات فاستقرّت عليها وارتضتها، فتصير بذلك عرضة لتلاطمات من المشاعر التي تُفضي بها إلى استكناه كمّية عظيمة من الألم لتُعيد تشكيلها، ومن ثمّة طرحها في صورة من "الحزن واليأس والقلق والمخاوف وهلاوس تسندها وتدعمها"[2].

فالحزن لا يتأتّى إلاّ من التّجارب الحياتية الفاشلة والتي تنحت بتكراريتها انهزامات تُضيّع منها فرص التّكيّف والتّشاكل مع الآخرين، ما يبعث لديها يقينا لا يشوبه الشّكّ بأنّها ملفوظة بالإجماع ومرفوضة من لدن الكلّ، وكلّما ارتفعت زئبقية إخفاقاتها كان طريقها صوب القنوط معبّدا وسهلا، فتُكبّلها بعد ذلك ديمومة من اضطرابات لا تخمد، فتبدو لها كلّ الأشياء مخيفة، ويستبدّ بها التوجّس الذي لا يدّخر طاقة في أن يرسم لها تنوّعية وتعدّدية تصوّرية وتخيّلية لِما هي مصابة به، فتظلّ وقتها كلّه متشائمة ناقمة رافضة لكلّ ما ينتابها، فلا يسلم نظرها إلى صورتها من الدّونية فترى كلّ الآخرين أفضل حالا وأحسن حظّا منها لأنّهم بعيدون عن المعاناة التي تلتصق بها فلا تكاد تُفارقها، فتستحوذ عليها مرارة الحسد وهي تُعلن أنّ الشّقاء كلّه غدا من قسمتها لوحدها.

فتتحجّر على مفترق السّبل لا تعرف أيّ الاتّجاهات منفتح المخرج لتمشي فيه، وبهذا تعجز عن تحقيق طموحاتها وآمالها المستقبلية، فتخور قدراتها مستسلمة تستصعب

---

(1) شيلدرون كاشدان، علم نفس الشواذ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، مراجعة محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت، ص.28.

(2) فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2003، ص.116.

كلّ فعل وأيّ فعل مهما كان تافها وسهلا. وعندما تغيب عنها كلّ الحلول وتنطمس رؤيتها لِما يُمكنها أن تشفي به غليلها ممّا يستبيحها ويُنكر عليها أن تكون ترتدّ باتّجاه تلك الذّات تقتصّ منها لأنّها افترقت عن الآخرين فلم تعرف كيف تكون مثلهم ولم تجتهد في أن تجعلهم يكونوا مثلها، فتستحدث فعل الصّراخ مرّة و"لطم الوجه باليدين ونتف شعر الرّأس والبكاء ومحاولات الانتحار" [1]. فيرتفع صراخها ويشتدّ حتى يُترجم ردّتها الاحتجاجية التي تُحقّق أمر إخراج المكبوت الثّقيل السّاكن في قرارتها، بل وفي كلّ جزء فيها، فتتخلّص منه.

ولمّا يُخفق التّصويت في صنع الرّاحة المنشودة تتّجه ناحية الجسد لتُحدث فيه الألم لتتوازي في مفهومها وتيرة الألمين فيُردف الوجع المادي بالمعنوي الذي كان السبب في تجريدها من إرادتها، فعطّل عندها عمل التفكير وفكّكه، فأصبحت حينئذ بشخصية منحلّة وضائعة، فترفع يديها إلى وجهها وتبدأ في صفعه بكلّ ما أوتيت من قوّة، ولكن تحسّ أنّ درجتا الألمين لم يتطابقا فبقي المعنوي يفوق بكثير المادّي، فتلجأ إلى إمكانية أخرى فتنتف شعر رأسها بكلّ عشوائية وشعوائية، وعلى الرّغم من هذا كلّه تقتنع أنّ الوجعان لم يقتربا وبعدهما مازال على حاله وأنّ الترجيح الذي كانت تبغيه لم يحدث.

فلا تملك وقتها إلاّ أن تجهش بالبكاء وتستغرق فيه أطول مدّة ممكنة لتؤكّد أنّ عجزها قد قصم ظهرها وأنّها لم تهتد إلى الفعل الإيلامي الصّحيح.

فيكون الانتحار بالنّسبة إليها الحلّ الأخير الذي يُريحها ويُنهي مآسيها التي أتعستها وفوّتت عليها كلّ ما صبت إليه.

ولا يقع الاكتئاب فقط على الذين يُجزمون بأنّهم غير مرحّب بهم في هذه الحياة وإنّما قد يتولّد بكلّ حمولته بعد فقد "شخص أو شيء عزيز" [2]، فلا تتقبّل الذّات حينها هذا التّضييع لذاك النّفيس الذي عاشت لأجله تتمنّى تحصيله أو ترغب في الاحتفاظ به بعد الوصول إليه، وبعد أن يتسرّب منها وتستدلّ على استحالة تمكّنها منه ثانية تتكسّر معنويّاتها وتتفتّت ويصير كلّ ما حولها لا يعنيها مطلقا أو تُصبح هي في منطقها لا تُمثّل

---

[1] عبد العلي الجسماني، الأمراض النفسية: تاريخها، أنواعها، أعراضها وعلاجها، الدار العربية للعلوم، ط1، 1998، ص.150.

[2] فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ص.117.

شيئا لِما يحوط بها، فيظلّ تفكيرها منحسرا فيما فقدته وكيف ولماذا عميت عنه فلم تحرص عليه حتى لا يتملّص منها؟.

وقد لا يكون الشّيء المضيَّع بالضّرورة معنويا بل يُحتمل أن يغدو مادّيا كفقد إنسان عزيز عليها، قريب منها، تعوّدته في كلّ الأحوال إلى جوارها، تلجأ إليه في حالاتها الحياتية المشحونة بالتّناقضات، المتشعبّة والمتغيّرة، لتنتبه فتجده قد غاب عنها ولا تملك لاسترجاعه أو استعادته أيّة حيلة أو سبيل، فتنغمس في الوحدة التي تتحوّل إلى غربة، فتتجهّم ضائقة بالحياة العبثية، فيبرز عندها ارتداد فعلي شديد القسوة يُعاقبها ويُحمّلها تبعة ما وقع، وقد تستصغر عملية العقاب هاته الواقعة عليها وتراها هيّنة مهما تعاظمت، لا تُساوي ما تستحقّه لأنّه لا يُعطيها الحلّ لِما تتخبّط فيه ولا تهدأ إلاّ حينما تعنّ لها فكرة الانتحار حلاّ خلاصيا وحيدا فتطلبه دونما خوف أو تردّد.

ويتّخذ الاكتئاب صيغتين اثنتين، إحداهما بسيطة والأخرى مركّبة.

أ) المبحث الأول: الشخصية الاكتئابية البسيطة.

1 ريح الجنوب: عبد الحميد بن هدوقة.

تختزن سردية ريح الجنوب [1] اكتئابية الأمّ خيرة التي فقدت أمّها التي كانت أقرب النّاس إليها ورُزئت في ابنتها الكبرى أثناء حرب التحرير ممّا خلّف في دخيلتها شرخا مهولا يُضاف إليه علاقتها بزوجها التي تُعدّ هي الأخرى مفقودة حينما أرغمها على الإيمان بأنّه القوّة التي لا يجدر بها أن تعصي له أمرا، وهي الضّعيفة المستسلمة التي لا يُسمح لها بأن يصدر عنها أيّ رأي بخصوص أيّ شأن من الشّؤون، مهما كان.

وعند قبر أمّها الذي كانت تتردّد عليه كلّ يوم جمعة تُفرّغ شحنات القلق وتراكمات الإحباط التي تفيض بها ذاتها، فما أن تصل إلى موقع القبر وتجلس بمحاذاته حتى تغلبها دموعها فلا تقوى على حبسها، وتدخل في بكاء مرير تبغي منه أن تؤبّن ذاتها، وترثي علاقتها الرّابعة المفقودة مع ابنتها الصّغرى نفيسة التي تحسّها بعيدة عنها ترفض أن تُقاسمها ألمها، وتمتنع من مشاركتها غبنها وكأنّها ليست منها، فلا تجد نفسها إلاّ وهي تشتكي لإحدى معارفها عن تصرّفات ابنتها معها "كادت تُنكر عليّ أن أبكي على أمّي. لم

---

[1] عبد الحميد هدوقة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط4، 1980.

تنظر إلى دموعي كما تنظر بنت. ألا يُحزن هذا يا خالة؟ ألا يُحزنك أن تري ابنتك لا تُشاركك بآهة ولا بدمعة وأنت تبكين؟. جرح الكبد لا يضرّ إلاّ صاحبه، إنّها تكرهني"[1].

إنّ الأمّ خيرة وهي تقول ما قالته إنّما كانت تعني بأنّها لا تتقبّل بأن تكون مجرّد طيف لأمّ بل تُريد أن تكون أمّا فعلية تُمارس ثقل قداستها على ابنتها فتقترب منها وتستعيد علاقتها بها، فتكون امتدادا حقيقيا لها دون أن تطلب منها ذلك، فتشعر بما ينتابها من تعاسة من قبل أن تُفصح بها الآه، فتجري لتُواسيها وتُخفّف عنها بعضا من الهمّ، وكذا تحسّ فرحتها من قبل أن تُذيعها ملامحها فتتبنّاها معها في كلّ اختلاجة تُحرّك كيانها.

فخيرة تتمنّى أن تتحوّل ابنتها إلى صديقة لها تُطلعها مطمئنّة على كلّ ما يخطر على بالها، فتُعلمها بأسرارها ولا تخطو خطوة، محتشمة كانت أو جريئة، إلاّ بعد أن تعود إليها فتستشيرها وتأخذ مباركتها عليها.

إنّ شعور الأمومة في خيرة يؤكّد لها أنّ ابنتها لم تعد في حاجة إليها مطلقا ويُريها إيّاها غريبة عنها، وكأنّها ليست هي أمّها، فهي لا تهتمّ لحالها ولا تُقيم وزنا لِما ينهال عليها من كدر، بل ولا تحترم حتى أحاسيسها، وترى أنّ بكاءها على أمّها ما هو إلاّ ادّعاء يخلو من صفة الصّدق كلّيا.

ولذا فهي تتراءى لنفسها مغفّلة إن هي دخلت معها في تلك البكائيّات المتكرّرة كلّ نهاية أسبوع أمام قبر الجدّة التي فارقت الحياة منذ سنين، ولم يعد في ذاك الرّمس إلاّ التّراب.

فخيرة تستشعر ابنتها وهي تتّهمها بالقصور العقلي وهي تُعاود المراسيم الجنائزية لأمّها كما لو أنّه لم يعد لديها ما تقوم به غير هذا الفعل النّواحي، وتصرخ بأنّ جمود ابنتها حيالها يؤذيها ويكاد يقتلها في بعض المرّات، فلا تملك تحمّله فيتولّد اعتقاد جزمي عندها بأنّ ابنتها ليست فقط غير مبالية بها، بل لا تُحبّها وتُضمر لها مقتا كبيرا لا تُخفيه عنها، فتفضحه أمامها وهي تُسيء الظّنّ بها وتزدريها في كلّ أوضاعها، مهما بلغت درجة فداحتها وخطورتها عليها.

وتظهر الأمّ خيرة وهي لا تفهم جيل ابنتها ولا تستوعب كيف تغيّرت المنطقيّات عنده من نقيض إلى مثله دون أن يكون هناك مسوّغ لهذا التّبدّل كلّه، وتسترجع الماضي

---

[1] المصدر نفسه، ص.27-28.

يوم كانت في عمر ابنتها فتذكر أنّها كانت وأمّها قلبا واحدا، وكانت نظرتها لكلّ الأمور بعين أمّها، وكان حكمها على الأشياء من منظار أمّها، حتى غدا سرورهما نفسه ووجعهما نفسه أيضا، وتُسرّ خيرة لنفسها بأنّ تجدّدها لن يحصل أبدا في ابنتها هاته لأنّها غير مؤهّلة ولا صالحة لذلك.

وتنحى خيرة باللاّئمة الشّديدة على نفسها لأنّ فلذة كبدها أعلنت تنصّلها منها وكأنّها لم تحملها وهنا ولم تضعها كرها، ولم تقم نحوها بما تستوجبه دواعي الأمومة، فتحكم الأمّ على كلّ ما فعلته بأنّه كان عبثا لا غير، وأفهمت أمومتها بأن تتعوّد على غياب ابنتها نفيسة عنها، حتى وإن جمعهما نفس الحيّز المكاني والزماني، وأقنعتها قناعة اليائس بأن لا تنتظر منها أيّ فعل إيجابي تُكسّر به الحواجز التي أحكمت وضعها حائلا بينها وبينها.

وبهذا تصمت الأمّ خيرة وتكتم ما يلحقها من وجع وابنتها تتعمّد جفوتها وتتمادى في توصيل كلّ المشاعر الباهتة إليها، ومع الصّمت كانت تعصرها المرارة فتتحسّر على مشهد أمانيها المتهاوية تباعا.

وهي على هذه الحال من الارتباك واللاّراحة يُطلعها زوجها ذات مساء بأنّه قرّر تزويج ابنتهما نفيسة ويأمرها بأن تتولّى هي إخبارها بالشّأن، فتحتار وتتصوّر بأنّها واقعة بين المطرقة والسندان، فالأوامر التي يُصدرها زوجها إجبارية التّنفيذ على أيّ وضع كانت، وهي علاقتها بنفيسة شبه مقطوعة، ثمّ إنّها متأكّدة من أنّها لن تتقبّل شيئا كهذا، فنفيسة ابنتها وتعرفها أكثر من أبيها. وتعقّدت أفكارها وتشوشّت ولفّها الإحجام والإقدام، وشعرت بالورطة التي هي بداخلها وهمّت بأن تتجاهل ما كُلّفت به، ولكنّ خوفها المريع من زوجها جعل يُقنعها بأنّها مضطرّة لإعلامها، وأنّه إن رجع ووجدها لم تقم بعد بالمهمّة التي أوكلها لها فإنّه لن يكون راضيا، وإن لم يرض فيستفزّه الغضب وبعدها ستكون هي عرضة لعقابه المدمي الذي جرّبته مرارا وتعرفه جيّدا، والذي لم تعد تتحمّله بعد هذا العمر.

ومكرهة تُخبر ابنتها بما اعتزم أبوها على فعله فتنتفض نفيسة وتدفع أمّها عنها محتجّة معلنة عدم الرّضوخ لإرادة الأب، ولكنّ الأمّ تفهم هذه الحركة من ابنتها فهما آخر، فتغزوها فكرة أنّها لم تعد تُساوي أدنى شيء وتدخل زوبعة من المشاعر اللاّمفهومة حتى يُغمى عليها "حتى قواها الجسمية خانتها، أحسّت كأنّ الأرض تحت قدميها صارت دوّامة،

تدور دورانا مجنونا، وتهبط تهبط أبدا، ووقعت على الأرض. لم تستطع التّنفّس ولا الكلام، وشعرت كأنّ ماء شديد البرودة يسيل في مفاصلها، وغمرتها موجة من العرق البارد، فترة من الوقت قضتها في وجود مظلم خانق، ثمّ أخذت الدّموع تسيل على خدّيها، دموع أمومة فقدت في لحظة كلّ مضمون، دموع على عمر رأته فجأة يقصر وقد كانت تتوهّم امتداده فيما تلد من أولاد"[1].

إنّ الصّدمة التي حدثت للأمّ خيرة نقلتها إلى لحظة خواء لازمني مفزع، انقطعت فيها صلتها بما حولها وبمن عهدتهم معها، فكسدت فجأة قدراتها البدنية وفقدت توازنها الوظيفي، وتسلّطت عليها قوّة تكبيلية شلّتها، أرادت مقاومتها وحاولت ولكن بلا جدوى، لتستسلم خائرة وهي تحسّ بأنّ الأرض تميد بها، بل تثور تحت قدميها وتمور بها في حركة لولبية ما انفكّت ترتفع درجتها إلى أن علّقتها في الفراغ مدّة لتهوي وتصطدم بالأرض. شعرت بعدها بشيء ما ثقيل يضغط بكلّ جهده على صدرها فيحرمها من النّفس، تاقت لأن تنطق، لأن تقول كلمة ما، ولكنّ الضّيق ازداد وطأة فمنع الصوت من أن يتحدّى وينفلت فيخرج، وظلّ رشدها مغيّبا لبعض الوقت إلى أن تلبّست كيانها رعشة برد وكأنّها دلقت بدلو ماء اجتمع ماؤه كلّه في مفاصلها ويأخذ بالسّيلان، حينها يرجع إليها وعيها فتسأل ما الذي حدث لها؟، وكم استغرقتها هذه الحالة؟ لتغرق بعدها في موجة من النّواح المتّصل والنّحيب الحزين، فتنهمر دموعها لافحة سخيّة لتجرف بعنف الأمومة التي لم يتبقّ منها سوى الهيكل، أمومة ما فتئت خيرة خائفة عليها وهي ترعاها وتحوطها حتى تنعم بها ذات يوم، وهي تستطيب معانيها وتتمعّن دلالاتها في أبنائها الذين كانت تظنّ بأنّهم سيعملون على صونها من التّلاشي، فيُحافظون على بقائها، فلا يسمحون للسّوء بأن يقترب منها ويمسّها مادام سرّ الحياة يدبّ فيهم.

ولكنّها تفجع في هذه الأمومة التي افتخرت بها ومجّدتها وتصبّرت بها على هموم عيشها، وكانت دائما تُردّد بأنّه يكفيها من الحياة أن تفوز بها.

ولكن في طرفة عين يقلب الرّاهن كلّ أمل عقدته وكلّ أمنية ترقّبتها، فيسلبها الحبيب إليها ويُعوّض غيابه بالدّموع التي صارت الكفيلة دون سواها بترجمة فضفاضية الكذبة التي مكثت عمرها تُصدّقها وتثق بها وتمنحها كلّ نفيس غال، وتتجشّم لأجلها كلّ

---

[1] المصدر السابق، ص.89.

شاق مضني، وتسلك نحوها كلّ وعر عسير، لتجد نفسها لا تختلف، بل أقلّ شأنا من العقيم التي لم تُنجب ولم تُربّ ولم تُضيّع زمن شبابها راكضة وراء خيال صدّقت امتدادها فيه، وهي تطمع في أن تتجدّد وتخلد أنفاسها في حيوات نسلها، ولكنّ وهمها دحضه الرّاهن الذي حدّد بأنّها ستحيا وحيدة وتموت دون أن تُخلّف بعدها ما يدلّ على أنّها مرّت بالدّنيا ذات مرّة، فتركت أثرها هنا وهناك. وتكره خيرة نسلها الرّديء وتتمنّى لو أنّ الحياة تعود بها إلى حيث كانت البداية، لتجرّدت من نسلها الفاضح الذي أعياها وجعلها تجني العدم، وأثناء تفكيرها الانكساري هذا يتبدّى لها المنطق ببياضه ليُريها بأنّ الزّمن لا يسير القهقرى مطلقا وأنّها ما كانت لتملك الحيلة التي بواسطتها تقطع خلفها، وأنّه يتعيّن عليها أن تقبل بما هو ماثل من أمرها لأنّها ما كانت لتكون إلاّ على وضعها هذا الذي لا يجري عليه التّحوّل أو التّبدّل.

وعلى الرّغم من أنّ ثورة خيرة هدأت بعض الشّيء إلاّ أنّ ذاكرتها بقيت مفتوحة على المعاناة التي مرّت بها وتجرّعتها بكلّ رضا أيّام كانت حبلى بتلك التي تدفعها الآن بكلّ عنفوان القسوة، دون أن تضع في تصوّرها ما كابدته في سبيلها حتى تجيء إلى الدّنيا، فقد غدت أثناء حملها بها ضعيفة هزيلة لأنّ الطّعام لم يكن يثبت في جوفها لحظة، فكثر اضطرابها ولازمتها الدوخة وحالات الإغماء المفاجئ والمتكرّر، الحالة التي لم تعتقها تسعة أشهر كاملة ليحلّ بعدها المخاض المرير بآلامه العنيفة وأوجاعه المخيفة التي لا تُطاق، لتجدها بعد ذلك بين ذراعيها فتضمّها إلى صدرها والفرحة لا تسع قلبها، فامتزجت في عينيها دموع المجاهدة بدموع الغبطة وهي تنظر إليها صغيرة، بريئة، ضعيفة لا حول ولا قوّة لها، فرأت فيها صغيرتها التي ستكبر، وأختها التي ستكون، وصديقتها التي ستُصاحبها، وحبيبتها القريبة التي لا تبتعد، فكانت أعزّ شيء إلى ذاتها لأنّها جزء من هذه الذّات.

ومهما كانت حركة نفيسة فظّة مع أمّها إلاّ أنّ الأمومة لا تكره فلذاتها لأنّها لا تُحسن أن تقسو عليهم، ولا تضمر لهم حقدا لأنّها لا تُجيد أن تغضب منهم، فتظلّ وقدتها مشتعلة يُحيط بالأبناء ضوءها ووهجها.

وهاهي الأمّ في خيرة تنسى كلّ خطأ بدر من ابنتها في حقّها وهي تجدها في غرفتها مغشيّا عليها وقد فقدت وعيها، فتجري نحوها بالتّلقائية العاطفية لأمّ جازع يكاد

الذّعر يقضي عليها فتصرخ "آه يا وحيدتي، وغلبتها الدّموع فلم تقدر على إتمام كلامها"[1]. وتفلت الآه من فؤاد الأمّ المتلظّي لتُعرّي نفسية قضمها التّعب، والتهمها القهر واليأس، وأسلمها إلى العزلة والوحدة التي تحوّرت إلى شكل من الضّياع لأنّ الأسرة التي صنعتها حتى تقيها من مثل هذه المتاهات، ظهرت غير مستوفية لشروطها، فزوجها لم يحسّها في يوم من الأيّام، وما نجح فيه هو الحجر عليها وتعجيزها، وأمّا ابنتها فلم تحد عن منوال شعور أبيها، ولكن ما تستهجنه الأمّ في زوجها لا تؤاخذ ابنتها عليه على الرّغم من أنّها لم تكن تُشاطرها أحاسيسها مثلما تتمنّى، ولكنّ فكرة أنّها تمتلك ابنة من صلبها حيّة كان أكبر مواس تطمئنّ إليه، ولذا فحينما رأتها ممدّدة أمامها تخيّلت أنّها خسرت المؤنس الوحيد المتبقّي لها تماما مثلما كان يجرفها الحنين نحوها، ويضنيها الشّوق إليها وهي بعيدة عنها في العاصمة بحكم الدّراسة.

فلا يُحيلها شجنها إلاّ على فعل البكاء فتجهش وتنخرط في عويل تُرثي به غربة صغيرتها وهي تكبت صوتها حتى لا يسمعها أحد. إنّها ابنتها الوحيدة التي لا تقوى على التّبرّء منها ومقاطعتها، ولا تستوعب طريقة إدانتها والتّنصّل منها لأنّها قطعة منها تشعر بحزنها فيُشقّيها قبلها وتعيش فرحها، بعيدا تترقّبه، وقريبا تستعجله، وحاضرا تغتبط بنشوته.

ولذا فهي لن تئد أمومتها لها لأنّها مازالت تأمل، وإن كانت غير متيقّنة، بأنّ صغيرتها ستعود راكضة إلى حضنها لتظلّ إلى جوارها ترعاها وتُسلّي عنها كلّ أوجاعها، مكفّرة عن زلاّتها معها، فتستسيغ أمومتها لها دون كدر كما كانت طفلة.

وتعترف الأمّ خيرة لعمقها بأنّها ضعيفة لا تملك أن تمنح ابنتها المساعدة التي تطلبها وبأنّها مهزومة، يخونها الإقدام على الفعل الملائم لتجاوز ما هي فيه وأنّها تُحبّذ الفرار مباشرة إلى دموعها كلّما دحرجتها المصاعب باتّجاه الهاوية، وهذا حال المكتئب الذي لا يتّضح له سبيل التّفكير أبدا، فيتعوّد على الاستنجاد بالسّهل من السّبل والرّكون إليه.

وتُشفق خيرة على ابنتها وتستكشف أنّها مقصّرة في حقّها لأنّ الضآلة التي تغمرها لا تسمح لها بأن تُبادر فيكون لها الرّأي المتبوع بالفعل "وتنهّدت متأسّفة أن ترى زوجها

---

[1] المصدر السابق، ص.89.

يُعاملها دائما معاملة خالية من كلّ رعاية ويتصرّف بمفرده في كلّ شيء. لها طفلة وحيدة، ومع ذلك لا تستطيع أن تكون لها كلمة في زواجها، وقالت في نفسها ربّي قدّر هذا ثمّ حظّي العاثر"[1].

وتتساءل خيرة أليست أمّا والمفروض أن يكون لرأيها مكانته، بل وثقله فيما يتعلّق بأمور أبنائها ومصيرهم؟، ألا يحقّ لها أن تبثّ فيما يعنيهم مثلما يفعل زوجها؟. وتبقى تساؤلاتها معلّقة لا تعثر على الإجابة الشّافية غير النّدم على أنّها قضت كلّ هذا العمر برفقة رجل يرفض في قرارته أن تكون معه في الحياة شريكة حقيقية، فمنذ البداية استأثر لنفسه بكلّ شيء وأحالها هي على المنفى الذي كان يضيق عليها بمرور الوقت حتى عسر عليها الخلاص منه.

فهي لا تذكر أنّه تصرّف معها مرّة واحدة كما يتصرّف الأزواج مع زوجاتهم، لا تتذكّر أنّه استشارها ذات مرّة في شأن يخصّها أو يخصّ أطفالها، حتى تجذّر عندها الإحساس بأنّه راغب عنها، زاهد فيها، وبأنّها مثل المتاع الزّائد عن الحاجة، ولم يُفوّت فرصة خلال هذه السّنوات كلّها التي قضتها معه إلاّ وحملها على الشّعور بأنّه مالكها وبأنّها أمته التي يجدر بها أن تخدمه وتُنفّذ طلباته، وتمتثل لِما يُقرّره سيّدها، فكانت علاقته التّعاملية معها قبيحة وقاسية، وكم استبشعت طريقته المتكرّرة التّكلّف والتي ما انفكّ يُوضّح لها بها بأنّه أعرف بمصلحتها ومصلحة أطفالهما منها، وكأنّه يُحاول بذلك إيهامها بأنّها معتوهة لا يجوز الاستماع إليها، وخطير الأخذ بتفكيرها حتى يُحيلها على الهامش ويستثنيها بسهولة كلّية من جميع حساباته.

وتشعر خيرة بالذّنب لأنّها وقفت تتفرّج عليه وهو يُصادر حقّها ذات يوم ولم تتصدّ له. اليوم أيضا وهو يُمدّد حَجْره ليطال ابنتهما الوحيدة فيُقرّر تزويجها حتى دون أن يعرض عليها الأمر، ودون أن يكون له فضول معرفة رأيها وقرارها، وكأنّها ليست هي المعنية بهذا الارتباط، فيُرغمها بذلك على ما لا تبغيه.

إنّ خيرة تعلم بأنّ ابنتها ترفض الزّواج بهذه الطّريقة من رجل سنّه ضعف عمرها، وهي تُوافق ابنتها على ما تراه، وتتعذّب وهي تُلاحظها تائهة العقل، شاردة الذّهن، مقهورة ممّا يسومها إيّاه أبوها من لامبالاة وعدم اهتمام.

---

[1] المصدر السابق، ص.205.

وفي نفس الآن هي خائفة من هذا الزّوج، فلا تقوى على مجابهته ولا قدرة لها على معاكسته، حتى وإن كانت متأكّدة من أنّه مخطئ.

وحتى ترتاح الأمّ فيها تنجح في تركيب صورتين لحالها، إحداهما وهي مربوطة بحبل القدرية التي ليس لها يد في تبديلها أو الحياد عنها، والأخرى الإشارة بأصبع الاتّهام إلى الحظّ الذي كلّما طلبت معاونته فرّ وامتنع، فظهر عجزها بإزاء كلّ شأن لأنّها "شخص غير محظوظ"[1].

وتسعى خيرة للاقتناع من خلال هاتان الصّورتان التّبريريّتان بأنّه لا مسؤولية لها فيما يحصل ولكنّ ذاتها تخذلها عندما لا تُصدّق هذا الزّعم منها وتُقدّم لها حقيقتها، وهي أنّها منذ روّضها، لا بل دجّنها زوجها، فقدت صلاحيتها الآدمية ولم تعد الأمّ فيها تفتخر بمتعة الحصانة، فينكمش شعور الأمّ وهو يتلقّى ضربات تأنيب الضّمير الذي ما أن يتوقّف حتى يبدأ سياط التّفاهة الذي يُحيله عديم القيمة أمام الأمومة الحقيقية.

2 الأنفاس الأخيرة: محمد حيدار.

أمّا محمد حيدار [2] فيُصوّر شخصية حليم والاكتئاب قد كساه فأعوزه التّمييز والتبس عليه شأن ما يرغب فيه ومسألة ما يرغب عنه، وضع أدّى بأمّه إلى أن تفتكّ زمام الأمر منه، فصارت هي من يأخذ القرار وهي من يحمله على تبنّيه لمّا أيقنت تشتّت تفكيره وعجز قدراته.

ويحدث ذات مرّة بأن تُملي عليه ضرورة أن يتوقّف عن التّعلّم لأنّ ما أدركه منه كفاية، وعليه بعد أن اشتدّ عوده أن يعول الأسرة التي هي في حاجة بالغة إليه، وهو القادر على ذلك، فيمتثل لها دون نقاش ولكنّه بعد مدّة تشمله حالة من اليأس وهو ينتبه فيرى كلّ أترابه مازالوا يتعلّمون إلاّ هو، فتتكوّن عنده عقدة الذّنب فيما ارتكبه في حقّ نفسه "شعور من الخجل يستبدّ بي، بأوصالي، كاللّص أتبدّى، كالمجرم استثناء، نكرة العيون لا تكتحل برؤياي إلاّ لماما"[3].

إنّ ما يُسيطر عليه هو حياء شديد حيال ذاته التي اضطهدها وأنكر عليها حقّها بصمته وخوره وخنوعه كعادته، فلم يُدافع عنها ولم يمنحها ما تطلبه وتطمح إليه، فقد كان

---

[1] مدحت عبد الحميد أبو زيد، الاكتئاب، دار المعرفة الجامعية، د.ت، ص.42.

[2] الأنفاس الأخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

[3] المصدر نفسه، ص.19.

دائما يؤيّد من يكبت هذه الذّات التي لم يقدر أن يراها يوما بعينيه هو، بل نظر إليها بعيني الآخرين، وعلى الرّغم من أنّه كان يدفع ثمن اغتصابه لذاته كلّ مرّة إلاّ أنّ حقّها اليوم غدا باهظا، وشكّه في أنّه باستطاعته تحمّل تبعاته أصبح أكيدا، فهو كلّما تمعنّ في حالته إلاّ وعاوده ذاك الاجتياح من الحياء فبدا لصّا سلب ذاته أعزّ شيء كانت تمتلكه والذي به كان يُمكنها أن تصل إلى سعادة النّجاح.

فبعد سنوات من الكدّ والمثابرة والاجتهاد يحتال عليها ولا يسمح لها بالفوز بهذا المطلب ويقتل كلّ الآمال والأمنيّات التي كانت تقفز وتشرئبّ لجنيها، ويُحدّق فيمن هم حوله فلا يعثر على شبيه له بينهم يستأنس به لأنّهم كلّهم أفضل منه، لم يستقبحوا ذواتهم، بل كانوا على مدى الوقت متوائمين منسجمين مع هذه الذّوات، فلم يمنعوا عنها صالحا ولم يُحرّموا عليها محلّلا، هو وحدة الذي أعلن العصيان على ذاته واستصغرها وأهانها وجرّدها من حقّها دونما حجّة.

ولا يترك له الحياء بعد ذلك خرقة واحدة يستر بها أخطاءه، فتنكشف عيوبه التي تشوّهه وتجعله يختلف عن الآخرين ويشذّ عمّا يحرصون على اعتباره شركة بينهم، فاستحقّ أن يكون أحطّهم مكانا وأقلّهم رفعة، يسحقه شعور الدّونية ويُحوّله إلى مجهول ممقوت لا يرغب أحد في معرفته أو التّعرّف عليه لأنّ أيّة علاقة معه، من أيّ نوع كانت كانت، هي من ضرب المجازفة، وحتى النّظر إليه هو شكل من المغامرة، إذ كيف يقترب منه الآخرون ويجتمعون به ويُحادثوه ويُعاشروه وهم يعلمون عنه جرأته على الجني على ذاته، فكيف لو تمادى وأجرم في حقّ ذواتهم هم الآخرون؟.

وهكذا توحي إليه دونيته بأنّه لا يليق به إلاّ أن يبقى وحيدا مذموما مستهجنا.

ويعيش حليم حالة من ثورة ضميره عليه ولا يحسّ إلاّ وهو يُرغمه على دخول الصّراع ضدّه، فلم يتوقّف عن لومه وتوبيخه وتعنيفه وتجريحه حتى يصرعه لأنّه لم يقم بالخطوة الحاسمة المرتجاة منه حتى يُنقذ ذاته التي بقيت تستنجد به، بل وتستفزّه أحيانا، ليَهُبّ لإنقاذها، ولكنّها عبثا ألحّت.

واستسلم حليم لدونيته ولتبكيته ذاته بعد أن شعر بأنّ شخصيته قد تاهت منه ومعنويّاته التي يرتكز عليها لضبط ما يبتغيه قد ضاعت، وأمّه تحكم تقرير مسألة زواجه بمن تُحبّ بعدما بلغها أنّه مفتون بفتاة من قرية مجاورة لهم، تمنّى بقلق أن يتمردّ على هذا

المقرّر، على تلك اللاّقدرة التي تحوطه وتتصرّف فيه فيسترجع ما خرج من يده ولكنّه بيأس محطّم يعدِل عن أمنيته "كظمّت غيظي وأنا في سهوم مريب، صار لدي دأبا مألوفا، كلّ شيء يُملى علي بشكل رهيب غير قابل للاعتراض. أمر يُزعزع ثقتي في التّواجد. بقي تمرّدي في حدود الشّعور المكبوت الذي يمخر عباب نفسي الوهنة"[1].

إنّ حليم يُصوّر ما يحدث له من انهزام يُجبره على كتمان حنقه حتى لا يظهر متوهّما بفعله هذا أنّه قد قضى عليه إلاّ أنّ تغيّر لونه وتعبّس ملامحه وشى بأنّه مازال يعيشه ومازال يختزن كلّ شحناته التي انعكست بكلّ قوّتها بدخيلته فولّدت فيه اللّحظة الفجوة التي تقطعه من الرّاهن فتجد ذاته فرصة التّملّص عبرها، ويصير هو إلى سهو لا يُدرك طبيعته ولا كيف يقوم الزّمن اللاّمملوء بالاستحواذ عليه. وتتكرّر معه حالة الغياب هاته إلى أن يتعوّدها ويُحبّها لأنّها الوحيدة التي تُذوّب هزيمته.

فيحسّ وهو في داخل الوقت المستقطع بأنّه قد استرجع قوّته واستعاد إيمانه بشخصه ولكن إن هي إلاّ ثوان ليعود فيذكر ثانية بأنّه مغلوب وأنّ كلّ ما يُفرض عليه محسووم وغير قابل للمناقشة أو النّقض أو التّراجع، وقبل أن يتهشّم آخر ما تبقّى له من ثقته بكينونته يُحاول أن يعترض ويجهر بأنّه يرفض ما يحدث له من زلزلة تُفقده توازنه وهي ترجّه، ولكنّه يُحجم ويظلّ يُراوح مكانه مصدّقا بأنّ الحظّ تجاهله وتعنّت معه، وهنا يلتمس القنوط سانحته إليه فيشدّ بخناقه فيُتعبه ويُدحرجه بعد ذلك باتّجاه الخوف الذي يسهل عليه نخر دخيلته والسّكن فيها ليبقى منقادا مأمورا مطيعا، يحمل على كاهله عبء الارتباك الذي يكسر تفكيره وثقل الحزن الذي يئد أحلامه، حتى من قبل أن تتوضّح هيئتها، وحزمة من المستحيلات التي يغيب عنه أنّها مجرّد هلاوس ممنوعة الاحتمال ولن تعمل إلاّ على تضبيب الرّؤية عنده إن هو منحها الاحتمال.

ويُخمّن حليم بأنّ فشله الذي لا يقدر على ردّه سيستمرّ سائرا إلى جنبه وأنّ كبواته القاسية التي يُغذّيها تردّده وتُململه ستُواصل مرافقتها له وأنّ كلّ الزّوابع التي أحسّها ويحسّها والتي بها كان يزعم لذاته بأنّه سيفكّ عنها رهنها، انكشفت أنّها ليست إلاّ تحويمات أبطلتها مرارة الوهن التي أسمّته تعيسا لأنّه لن يكون غير ذلك مادام لم يبذل جهدا ولم يُجرّب كيف يستسهل ما استصعب، وكيف يُخالف الرّاهن الذي أكرهه وجرّه إلى

---

[1] المصدر السابق، ص.29، 59 و62.

أن لا يكون هو بعد أن أمره بأن يرمق من خلف السّتار كيف تسير حياته ليتقبلّها في آخر المطاف بكلّ أشكالها وأحوالها التي تنقلب إليها فيُصبح بهذا أمره من اهتمامات الآخرين التي لا تعنيه ولذا فإنّه يمكث بعيدا.

ويُزوَّج بمن تهواها أمّه ويكون حاضرا في حفل الزّفاف ولكنّ العريس غائب فيه مستبرئ من الدّور الذي لا يليق به، ولا يُخفي مقته لتلك اللّيلة وعدم تحمّله لتلك الألحان وذاك الشّدو "انتفضت، وددت لهذا النّقيع أن ينتهي. مع ذلك واصلت سكوني فمهما يكن من أمر أنا العريس. كدت أنفجر. من عساني أصارح بهذه المكبوتات الغريبة؟ نفسا طويلا أخذته من سيجارة أتناولها لأوّل مرّة"[1].

ما يُبديه المشهد هو أنّ الجميع يحتفلون بعرسه إلاّ هو الذي يستبعد نفسه من زمكانية هذه الاحتفالية التي لا يجدها إلاّ بداية لتعاسة جديدة له تُضاف إلى تلك الحاصلة ولا يراها إلاّ تأكيدا لتفاهته المفترضة وترسيخا لعقمه الفكري الجلي.

ويفقد سكونه والانزعاج الحاد يتكاثف عليه فينتفض في سرّه كعادته وهو يودّ لو استطاع أن يقف ويصرخ في هذا الجمع بأعلى صوته بأنّه يرفض هذا الذي زُجّ فيه، يُنكر هذا الزّواج، لا يقبل بهذه المرأة أن تُشاركه حياته لأنّه ليس هو من اختارها، فهو لم يرها ولم يعرفها ولم يُحبّها، بل أمّه هي من جاء بها إليه، فهو لم يُفكّر أن يرتبط في هذا السّنّ، أقرانه كلّهم غادروا القرية نحو الشّمال حيث المدن ليُكملوا تعليمهم وبقي هو فيها مضحّيا بدراسته وشهادته ووظيفته، حتى يُنكّل به اليوم بهذه الطّريقة. ودّ لو صاح فأبلغ هذا الازدحام بأنّه ليس هو من دعاهم لأنّ لا رجل في هذا البيت كان يُريد الزّواج أو قرّره. تمنّى لو أعلن أمام كلّ هؤلاء المدعوّين بأنّه يُلغي هذا الأمر كلّه وبأنّه لن يسمح لهذه المهزلة بالاستمرار، فتتوقّف هذه الضّوضاء التي لم يندمج معها ويهدأ الضّجيج الذي أتعب أعصابه لأنّ كلّ هذا الذي يحدث ليس من أجله وإنّما لأجل أمّه وتلك التي استقدمتها إلى بيتهم، وعليهما تحمّل تبعة ما سيقع. ولكنّ كلّ هذا ما كان حريّ به أن يصير إلاّ في فكره الرّغبي الذي يسجن مواقفه في فعل التّمنّي الذي يطغى عليه دائما ليظهر بعده وقد تكسّرت قواه وهو يتذكّر أمّه ليُحمّلها كساده وسوء حاله فيقرّ بأنّه لا يحوز الاقتدار الذي يؤهّله لتحقيق ما يبغيه لأنّه يجهل عواقبه على أمّه، فهي لن تتحمّل صدمة كهاته، ومنه تحديدا،

---

[1] المصدر السابق، ص.64-66.

فقد تموت بسكتة ويفقدها فجأة، ثمّ هي لم تعد صغيرة سنّا لتتحمّل ضغطا خطيرا كهذا ويُبقيها بسلام، مستحيل. فإن لم يُهلكها فقد يُعيقها ليظلّ هو عمره الآتي يحترق بعقدة الذّنب التي لا يخمد أوارها.

ثمّ كيف سيرسم أهل القرية صورته، وكيف سيتداولون سيرته؟. مؤكّد بأنّهم سينعتوه بالعاق الذي قتل أمّه أو شلّها يوم زفافه. وأهل العروس كيف سيتصرّفون معه إن هو انساق وراء ما تُزيّنه له ذاته؟، وما مصير تلك المرأة التي جلبتها أمّه لتكون له؟.

المرأة التي تبعت دون تأنّ ودون تفكير أوّل عجوز تدقّ بابهم طالبة يدها فتجنى عليه متحمّلة وزره لأنّها ساعدت في تنفيذ الجريمة التي لم تكن الضّحية فيها إلاّ هو.

وفي هذا الجوّ النّاضح اتّهاما وتجريما يأمره فكره بأن يصمت ويُواصل تمثيل دور العريس حتى وإن لم يُتقنه، ويرغمه أن ينسجم مع ما حوله فيُطاوعه ولكن لبعض الوقت فقط لأنّ الضّيق تسلّل إليه وداهمه مرّة جديدة وبأشدّ ممّا كان حتى لم يطق معه صبرا، فعنّ له أن يتخلّص من تلك الترسّبات المستقرّة في أعماقه حتى يستسيغ الطمأنينة، وبدأ البوح بما يعتمل فيه.

لقد أحبّ امرأة واحدة هي (آمال) والتي تمنّى لو كانت اليوم هي عروسه ولكنّ أمّه رفضت راحته ورضيت له بأن يعيش الشّقاء ويُكابد انكساراته عليه. قبلت له أن يحيا الرّتابة ويتحمّل مللها مثلما فرضت عليه من قبل مقاطعة الدّراسة والبحث عن العمل الميؤوس إيجاده. وأسكته تبرّمه وسقطت عينه على السّيجارة التي لم يذق طعمها من قبل فتراءت له منقذا بإمكانه أن يُفرّج عنه ولو مؤقّتا بعض من همّه وحزنه إلاّ أنّه بعدما تناولها وجذب منها نفسا طويلا طويلا يُريد به أن يودعها كلّ اضطرابه وإنهاكه ويأسه، وجدها لا تفي بالغرض، مجرّد متعة عبثية. فأيقن باستحالة عثوره على دواء لحاله يُعيد إليه آدميته من جديد التي منذ فارقته لم يُفلح في أن يكون إنسانا كاملا يتباهي بخصوصياته مثل كلّ القوم وأمامهم جميعا.

وينقضي يوم الزّفاف بثقله التّعذيبي، وتعقبه أيّام أخرى أكثر منه عناء وقتامة، فلا يحسّ حليم بأيّ تغيير مسّ حياته، ولا يلمس أيّ جديد طرأ على حاله، فضيقه الذي اكتنفه مازال على وضعه، والفراغ الذي أتعسه مازال يُلازمه، وزوجته المقحمة على ذاته وحياته مازالت غريبة عنه لا يستطيع أن يألفها ويعُدُّها سبب كلّ بلاء حلّ به، فلا يراها

تقوى على أن تؤمّن له ولو القسط اليسير من السّعادة وهي تئنّ تحت ذلّها وترزح تحت انقيادها العشوائي البارد، فلم يجد لها المناسب من الشّعور ليمنحها إيّاه إلاّ الاحتقار والازدراء، فحمّلها مسؤولية استمرار إحباطه وقنوطه، وسلّط عليها انتقامه الذي صاغه متشعّبا، فينتقم منها فيها، ومن أمّه فيها، ومن الظّروف التي باعدت بينه وبين حبّه فيها، حبّه الذي استقرّ فيه فلم يتزحزح عن مكانه قيد أنملة، بل ظهر يكبر ويشتدّ يوما قبل الآخر.

ويتمنّى لو أنّ فرصة تُتاح له فتجمعه بها فيُطلعها على ما هو فيه وعلى ما ظلّ يُعانيه في وجده بها، فيعرض عليها أن يكون حبيبها، وسيترك لها الوقت كلّه لتبتّ في شأنه، وسيكون قرير العين بكلّ قرار تتّخذه نحوه. وبينما هو على هذا الحال من الرّجاء إذ بخبر صاعق يصله، فآمال حبيبته قد خُطبت فتشتعل ثورته وتأبى أن تهدأ، ويُفكّر جدّيا في أن يذهب إليها ويمنعها من هذا الذي تُريد اقترافه في حقّه، ويُحذّره أحد أصدقائه ممّا ينوي فعله، ولكنّه لا يكترث به ليقول "سأقف دون قيام هذه المهزلة؟ !. سأحذّرها مغبّة ما هي مقدمة عليه. باسم منطق الرّفض"[1].

ثمّ يُقرّ "انخرطت في بكاء مسموع تجاوز بكثير حدّ الإجهاش" [2]. ويمتثل حليم لتلقائيته المدمّرة ويجري لتنفيذ ما تُمليه عليه بعد أن تُبدي له أنّ ارتباط (آمال) برجل غيره حماقة وجب عليه أن يحول دون إتمامها، ويقتنع بذلك ويُقرّر الانتقال إليها في قريتها ومقابلتها، فيطلب منها العدول عن مسألة الزّواج الذي تُهيّئ له وتستعدّ. ويتوقّف برهة ليتساءل، ولكن كيف سيجعلها تُقابله؟، وهي لا تعرفه ولا تُدرك حتى وجوده؟. فقد ظلّ حبّه لها من طرف واحد، فهي لم تُبادله هذا الحبّ يوما ولم تعترف له به. ولكنّه على الرّغم من ذلك لن يتراجع، سيُفكّر في السّبيل، الحلّ وسيجده، مؤكّد.

وإن رفضت ملاقاته بعد كلّ ما قد يتجشّمه لأجل ذلك من مشقّة، ماذا سيفعل؟. حينها سيتشجّع ويقصد بيت عائلتها وهناك لن تكون لها حجّة عدم قبول رؤيته أو التّحدّث إليه أو الاستماع لِما جاء يُخبرها به، ولكنّ الأمر ليس بهذه السّهولة وعليه أن يفترض ذلك، فقد يحدث قبل الوصول إليها أن يصطدم بأبيها أو أخيها أو أمّها، فبما وقتها يُبرّر

---

[1] المصدر السابق، ص.142-143.

[2] المصدر نفسه، ص.148.

وجوده في منزلهم؟. هل سيُخبرهم بأنّه جاء ليرى آمال ويقول لها كلاما خطيرا يهمّها؟. ربّما كانوا قاتليه من قبل أن يسمعوا باقي هذره الذي يسعى لإلقائه عليهم، وإن لم يفعلوا ذلك به وكانوا متفهّمين إيّاه ومتسامحين معه وسألوه من يكون؟، ومن أين جاء؟، وكيف عرف أو يعرف ابنتهم آمال؟.

أسئلة كلّها لا يقوى على تركيب عبارات إجاباتها ولكنّه سيتهرّب منها وسيُجيب من أنا، ليس مهمّا، ومن أين جئت، ليس ذا بال، وكيف أعرف آمال أو عرفتها، فهذا أمر بديهي، فأهل القرية كلّهم يعرفون أنّ لديكم ابنة اسمها آمال، وأنا ما جئت إلى هنا إلاّ لأسدي لها النّصح، لا بل لأحذّرها من عاقبة الارتباط بذاك الرّجل الذي خطبها، وإن سألوه هل له علاقة ما به، وهل يعرف عنه شيئا، ماذا سيكون ردّه؟. حينئذ سيكذب، وما الضير إذا كان لا يستطيع منعها من الزّواج إلاّ بهذه الطّريقة. نعم سيكذب، سيقول بأنّه يعرفه ويرى بأنّه غير مناسب لابنتهم، وإن سألوه أيعلم عنه شيئا مشينا لم يتوصّلوا إليه، حينها سيؤكّد قصصا يؤلّفها عنه وعن قبح أخلاقه وطباعه.

سيقول أنه صعلوك وزير نساء وسينسج عنه من كلّ كذبة نصيب ليخلص إلى نتيجة يرميهم بها هو أنّ آمال لن تكون سعيدة معه وأنّها ستُردّ مطلّقة إليهم يقينا. وإن كان الرّجل من أقاربهم، ماله وما عليه تحت أنظارهم، فبما سيردّ وقتها؟، وجزما من قبل أن يتفوّه بكلمة يكون قد تلقّى من الضّرب واللّطم واللّكم والإهانة والتّقبيح ما لا تتحمّله كبرياء رجل، هذا إن لم يقبضوا عليه ويجرّوه مثل المنحور إلى أقرب مركز للأمن، وهناك سيأخذ أجره على الخير الذي أراد فعله، وسيكون بعدها نكتة العامّ والخاصّ لسنوات.

وإن احتمل أنّها قابلته ولا شيء من هذا كان، بماذا عليه أن يُخبرها؟، هل سيعترف لها بأنّه متيّم بها منذ فترة طويلة قدرها سنوات عشر وأنّه كان يُريد الارتباط بها ولكنّ إرادة أمّه شاءت أن تنتقي له امرأة أخرى؟ وعلى الرّغم من مضي زمن على زواجه منها إلاّ أنّه لم يشعر يوما نحوها بأيّ ودّ، بل إنّه يكرهها كلّما ذكر بأنّها سبب ما هو فيه. وهل ستصبر آمال عليه لتسمع منه كلّ هذا؟. وإن فعلت، فماذا سيقترح عليها؟، هل سيطلب منها الزّواج؟، وهل كانت ستُوافق؟، وإن حدث فهل أهلها سيرضون به؟، وإن فعلوا فكيف له أن يُقنع أمّه بالزّواج ثانية؟، ومن تلك التي مقتتها من قبل أن تراها؟. وكان ينغلق في وجهه الجواب عند كلّ استفهام.

وبعد أن يهدأ يعي أنّ ما فكّر فيه ليس منطقيا وأنّه لو كان فعله للحقه منه نتائج وخيمة هو في عجز عن تحمّلها، ليدخل في بكائية عويلية عالية لم يُخجله أن يصل صداها إلى أمّه، ولم يُحرجه أن تستكشفها زوجته لأنّه ليس عيبا أن يبكي الرّجال حظوظا خالفتهم وصادرت منهم أمنيّات أحبّوها وتحرّقوا لأن تكون لهم.

3 سيدة المقام: واسيني الأعرج.

وترفع سيّدة المقام[1] الوشاح عن شخصية العبّاس الذي تزوّج بأرملة أخيه الشّهيد، وبعد مدّة قصيرة يُرزقا بطفلة، فيعتقد بأنّها وُلدت قبل أوانها. وبعد انقضاء وقت ليس بالقصير، فاتح زوجته برغبته في الولد ثانية، ولمّا وجدته دائم الإلحاح عليها في ذات الموضوع أومأت إليه بأنّ الخلل فيه، فأسرع يُراجع طبيبا ولمّا أعلمه بأنّه رجل يستحيل أن يُنجب، لحظتها انتابته كلّ أحاسيس الفجيعة، فقفل راجعا إلى البيت وهو يراه لأوّل مرّة بعيدا، بعيدا جدّا، فشرع يطوي المسافات باتّجاهه، وما أن يصل ويدخل حتى يتوجّه إلى زوجته مباشرة، ملغيا السّلام والتّحيّة والمقدّمات فيسألها، ممّن الطفلة، ابنة من هي؟. فتُجيبه بمنتهى البرود ودون أن تُراوغ ودون أن تدور بأنّها ابنة أخيه الشّهيد، وأنّها يوم تزوّجته كانت حاملا بها ولم تشأ تحسيسه بذلك لأنّ خوفها ثبّطها.

وبعد أن سمع الحقيقة تجمّد واقفا في مكانه "عضّ على شفته السّفلى حتى أدماها. سالت دمعات سوداء من عينيه. قضى ليله بكامله يبكي" [2]. ودّ لو أنّها خاتلته وطعنت في رأي الطّبيب وأقنعته بأنّه طبيب جاهل ونصحته بأن لا يعود إليه ثانية، وحاولت أن تأخذ منه وعدا بأن لا يُعاود استشارة أيّ طبيب كان لأنّ هذه الأمور لا يملك مفاتيحها إلاّ الله. تمنّى لو واصلت كذبها عليه، أليست متدربّة عليه ومتفوّقة فيه !. لماذا لم تكتم عنه الحقيقة فأبقتها مطموسة عنه في عالم الغيب فظلّ هو جاهلا بها وبوجودها، يومها شعر بأنّ طفلته الحبيبة إلى قلبه ماتت ودفنها بيديه، طفلته التي سعد لمجيئها وأفرحه أن تصنع منه أبا في وقت يسير. ما كان يتصوّر بأنّه مجرّد أب مخدوع تمتّع للحظات ببنوّة مزيّفة ليست منه، فصلبه المفتّت لا يُجمَع أبدا ليمنح نسلا.

---

[1] واسيني الأعرج، منشورات الفضاء الحر، 2001 (الرواية، ط1 كانت سنة 1995).

[2] المصدر نفسه، ص.88-89.

ملأته الغصّة حتى ضاق قلبه فلم ينتبه وهو يقضم شفته السّفلى، لا بل يضعها بين أسنانه، يُمسكها، يضغط عليها بكلّ عنف الغيظ الذي لبسه، سال دمها، لم يأبه به، لم يؤلمه، فقد كان وجعه الآخر أقسى، غطّى على كلّ جرح.

وأصغى إلى ذنبه يُعنّفه مسائلا ألم يجد من ضمن النّساء كلّهن من تصلح له فيسعى لاتّخاذها زوجة إلاّ أرملة أخيه هاته، ويتشفّى ذنبه فيه ويراه يستحقّ ما يلحقه من عقاب لأنّه لم يحترم ذكرى أخيه الشّهيد الذي ليس راضيا وهو في قبره عن فعلته، ولم يستحسن منه بأن يستولي على مكانه، فوجب عليه دفع الثّمن، وها هو يُسدّده.

ولمّا شقّ عليه حاله أخذ يُقلّب في كلّ دفاتر حياته الماضية، فلم يعثر له إلاّ على صورة المظلوم، المنهزم، العاجز عن الأخذ بثأره والمجافي للصّفح في ذات الآن، فيذرف دموعا حارقة على ما أدركه، دموع كانت تزيد من حدّة تأجيج النّار التي تلتهم دخيلته في صمت وهي مشحونة بتعاسة الخيانة، وهي تطاله ممّن ظنّهم أهله وأقرب النّاس إليه، مثقلة بأسى الوقت الذي أهدره يعتقد بأنّه لن يموت وهو يُثبّت خلفه وراءه، فإذا بالحياة ملك أخيه الذي غادر ولم يغب.

يومها تاه منه القول لأنّ الشّوكة التي استوطنت حلقه ولم تسمح لأدنى صوت بأن يفلت، فلم يُوبّخ، ولم يسبّ، ولم يشتم، ولم يُجرّح، ولم يُطلّق تلك من كانت السّبب.

والوهن الذي ملك كلّ جسده جعل يديه لا تُطاوعانه على ارتكاب أيّة حركة، فلم يضرب ولم يقتل ولم يتعرّض للطّفلة بأذى أعزّ ما كان عنده قبل أن يُواريه التّراب ولم تصل يده لتُهشّم ما كان حوله حتى يشفي غليله.

فقد استقرّ في يقينه أن لا جدوى من أيّ فعل كهذا، فانكفأ على وجعه لا يتحكّم في عبراته، ليله كلّه وكأنّه يروم بها غسل ذنبه الذي جزم بأنّه لا يُغتفر، ليظلّ مذ ذاك اليوم لا تُفارقه عقدة الذّنب.

وما أن ينبلج صبح اليوم الموالي حتى يهجر البيت ويغيب فلا يترك أثرا يُستدلّ به عليه، فقد عزم أمره ليلا على الفرار بعد أن قدّر أنّ هكذا أحسن، فلِمَا يبقى في تلك الدّار مع أناس يعدّوه دخيلا عليهم فقد حان الوقت لأن يُعاملهم بالمثل، فلن يمكث في منزل واحد مع امرأة أفّاكة وملفقّة، كانت لأخيه قبل أن تصير إليه، أمّا الطّفلة فقد اتّضح بأنّها ليست منه، فلا علاقة إذن باتت تربطه بهما.

وخمّن أنّه أمضى وقتا متطفّلا عليهما، فليُباعدهما ما أمكن الآن لأنّ تلك التي كانت زوجته ستُذّكره بأنّه عديم الحيلة، حتى وإن لم تنطق بما يعني ذلك، فمجرّد رؤيته لها سيمنعه من أن ينسى بأنّه رجل مفترق عن الآخرين من جنسه الذين نجحوا وينجحون في استحداث الحياة من حولهم، بينما ينكمش هو لينظر إليهم خائب الرّجاء، لا تنسجم معه الأشياء إلاّ في البكاء الذي يبغي منه ندب حظّه الميّت.

ويتساءل إن هو فارق البيت، من سينتبه لغيابه؟، ومن سيحسّ بالفراغ الذي سيُخلّفه بعده؟، وهل فعلا سينجح بفعلته هاته من أن ينحت خواء وراءه؟، ولا يُهمل العبّاس استفهامه عالقا، بل يردّ عليه، مؤكّدا لذاته وعن دراية بأنّه ما ملأ حيّزا في حياته مطلقا، ولذا فلن يُقلق عدم ظهوره أحدا، ولن يُزعج اختفاؤه لا المرأة ولا ابنتها.

وتمتدّ رحلته بعيدا عن سكنه عددا من الأسابيع ليرجع متغيّرا يظهر على غير طبيعته وكأنّه ليس هو "ملتحيا ومكتئبا وصامتا، يُصلّي كثيرا على غير عادته بعد أن نكّس رأسه ولم يعد يتحدّث إلاّ قليلا"[1].

لقد قرّر وهو يبرح الدّار بأنّه لن يضعف أبدا فيعود إليها، ولكن ما أن تمرّ إلاّ بعض الأيّام حتى يلوي راجعا وقد تحلّل من رأيه، فقد فكّر طول تلك الفترة وبتمعّن فوجد بأنّه كان متهوّرا عندما ترك البيت لتلك المرأة وابنتها.

ففعلته غير منطقية إذ كيف يتنازل بمنتهى تلك السّهولة عن منزله لتنعم به تلك المخادعة، ويحتمل أن لا تكون فكرة الرّجوع من العبّاس، بل من آخر أفهمه بأنّه كان مخطئا عندما خرج إلى الشّارع وهو يمتلك مأوى، وقد يكون أشار عليه بأن يستعيد حقّه فوافق هذا نزوعا في نفس العبّاس الذي اندفع يستردّ ما فرّط فيه، صحيح أنّه وجد الذين استقبلوه وآووه وهو شاكر لهم، ولن ينسى فضلهم عليه، ولكنّه رجّح أنّ بيته أصلح له.

وإن كان يُفلح في العثور على مسكنه بعد هذا البعد ويتوقّف عنده ليدخله، فهو يفشل في اللّحاق بذاته الفارّة منه بعد أن يُعييه ركضه خلفها، فيُسلّم بحقيقة البقاء دونها، فينعكس هذا على هيئته التي تتغيّر حتى يُلتبس في أمره فلا يكاد يُعرف، فقد أطلق لحيته فتحوّلت غليظة تعمّ كلّ وجهه تقريبا فأخفت ملامحه.

---

[1] المصدر السابق، ص.89.

وفضحه السّأم فبيّن له كلّ ما حوله واحدا، وقد انصبغ بلون قاتم يُنبت الحزن ويُطفئ البهجة بالحياة التي توقّفت معانيها عنده في مفهوم يتيم هو اليأس الذي لا يصلح معه الرّجاء الذي يشغل البال، ولا الاهتمام الذي يشدّه الأمل فلا يفضي المعنى إلاّ إلى الزّوال والعدم.

أمّا كلامه فصار قليلا، يُسكته صمته لساعات ممتدّة متتالية. فماذا عساه يقول لتلك المرأة التي مكرت به، وعن ماذا يُمكنه أن يتحدّث إليها أو معها، وما بينه وبينها قد تدمّر؟، فبات يزدريها ويستكثر عليها حتى النّظرة، فلا يوليها إيّاها فيتجنّبها حتى لا يقع بصره عليها، فجرحه لم ينغلق بعد وما فعلته به لم يكن هيّنا عليه ولن يلفّه النّسيان يقينا أبدا. فأيّ نوع من العلاقة يقبل على نفسه بأن تربطه بها وقد افترت عليه في حميمته فبقي لسنوات مديدة يرى في نفسه الفحولة والأبوّة، فإذا بها فحولة رديئة وأبوّة ممسوخة الصّفة!.

ويؤرّقه الذّنب عندما يتأمّل تلك الطّفلة ويتذكّر بأنّها منسوبة إليه فيُفكّر بوجوب تصحيح الغلطة التي ارتكبها عن غير عمد منه بإعادة نسبتها إلى والدها الحقيقي، ولكن ما إن يتفطّن إلى أنّ أباها شهيد وقد تحتاج منه إجراءات إنصافها نسبها إلى جري متعب وطرق لأبواب كثيرة وإلى تضيع الوقت وإهدار المال، يعدل عن الأمر ويُسرّ لنفسه بأنّه في غنى عن هذا الضّنك كلّه.

فيتحوّل إلى الصّلاة فيُكثر منها حدّ المبالغة، فلا يكاد يخرج من واحدة حتى يدخل في أخرى، فيصير أمره مثيرا وكأنه اهتدى إلى طريق التّكفير عن زلّته اللاّمقصودة، فقد كان مشاركا لتلك المرأة في الجريمة بغفلته وجهله الذي وازى البلاهة، إذ كيف لم يُلاحظ يوم العرس أنّ تلك المرأة التي أصبحت زوجته كانت حاملا ؟. إنّه رجل فاقد للتّمعّن فيمن حوله والخبرة تعوزه، فلم يرِد على باله بأنّها قادرة على اقتراف تلك الشّناعة.

وكلّما عضّ الذّنب عليه بنابه أكثر أضحت تصرّفاته أغرب وأقبح، فيذهب يحني رأسه نافرا من الكلّ، لا يرغب في النّظر إلى أحد ولا يستسيغ أن تكون له رابطة بأحد، فبقي بعيدا عن الجميع. ويستمرّ على هذه الحال حتى يُطرد من عمله والسّبب أخطاؤه

المتكرّرة والمتشكّلة في "خموله وتهوّره وكثرة تردّده على الصّلاة حتى في غير وقتها، بل طالب بإنشاء مسجد داخل البلدية وتكوين نقابة إسلامية"[1].

وهكذا يتوضّح ما يكون قد أصاب العبّاس وينكشف السّرّ الذي رجع يحمله بعد غيابه عن الدّار الذي امتدّ لأسابيع عديدة، فقد التقى بجماعة إسلامية لم تُرد أن يتشرّد في الشّوارع فاستضافته عندها ذاك الوقت وعلّمته من تفكيرها ولقّنته من مبادئها، فتخلّى عن طباعه واكتسب أخرى جديدة، ونفض عنه كلّ قناعاته الحياتية التي ركن إليها ومشت معه، وتبنّى مكتسبات أرشدوه إليها ولم يكن عارفا بوجودها.

ولمّا كان محبطا وقتها وأثر الصّدمة ما يزال ثابتا عليه، انساق لكلّ ما قالوه له وصدّق كلّ ما أملوه عليه، فنفّذه ومارسه في بيته كما في عمله، فلم يُفرّق بين الحيّزين وكأنّه ضيّع الإحساس بالمكان فصارت البلدية حيث يشتغل بوّابا لا تختلف عن داره، فأصبحت الملاحظات من رؤسائه بشأن عمله كثيرة، ومؤاخذتهم له قائمة لِما لمسوه فيه من تقاعس، فقد كان يلتحق بعمله كلّ يوم متأخّرا، وعندما يصله لا يؤدّي مهمّته كما ينبغي، فقد كان يختفي ويترك المكان عند البوّابة شاغرا ولا يعود، فيظهر إلاّ بعد وقت مديد، وعندما يسألوه أين كان يُجيب بأنّه كان يُصلّي حتى وإن لم يكن موعدها، وكثيرا ما كان يتورّط ويُقحم نفسه في أمور ليست تعنيه، فيتمرّد على أوامر مسؤوليه ولا يُقيم وزنا لأحد، وتمادى إلى أن أصبح يُطالب إدارة البلدية بأن تستحدث مسجدا في مقرّها حتى يستطيع الاعتكاف فيه متى شاء، ونتيجة هذا يتراجع أداؤه لعمله ويضعف ولا يُبالي بذلك، بل يتعدّى حدود اختصاصه فيُطالب مسؤوليه بأن يعمدوا إلى تكوين نقابة إسلامية، ولم يكن يفعل سوى ترديد ما كان يصل مسمعه من لدن أفراد تلك الجماعات دون أن يفهم حقيقته، فما دام منهم وأصبح محسوبا عليهم فيجب عليه أن يعمل ما يعملون ويُطالب بما يُطالبون، فهو ليس أقلّ شأنا منهم، وما ينسحب عليهم هو مستعدّ لأن يسري عليه.

وحتى بعد التّنبيهات الصّارمة التي وُجّهت له لا يرتدع، فيكون مصيره الطّرد ليجد نفسه خالي الوفاض يتسكّع في الشّارع، فينقاد بشدّة لتلك الجماعات ودون تمحيص أو تمييز ودون مبالاة، يُشاركهم وبلا تردّد في كلّ ما يقومون به أو يُكلّفون به من أعمال، فلم يكن ليتخلّف عن أمر حسموه ولم يكن ليرفض قرارا توصّلوا إليه ليُثبت لهم بأنّه رجل

---

[1] المصدر السابق، ص.91.

يُعتمد عليه في كلّ المواقف، وجلية أمره أنّ عقدة الفحولة هي التي كانت تُحرّكه، فحاول أن يُثبتها من خلال ما كان يتطوّع لإنجازه.

ويوما بعد الآخر كانت هناته تكبر وتتضاعف إلى أن وصل إلى نقطة اللاّرجوع، فانضمّ إلى من استجمعوا أمرهم لاقتحام المحكمة وفشلت المحاولة وقُبض على الجميع "قالوا لي شهّد وازدم، لكنّي وجدت نفسي وحيدا وخرجوا هم بالوسطات"[1].

ويحدث له مرّة أخرى أن ينخدع وهو لم يُشف بعد من الخيانة السّابقة، فيُضيف الوجع الثّاني إلى الشّكوى الأولى.

ويثبت لديه بأنّه إنسان غير مرغوب في وجوده لأنّ الكلّ يتخلّون عنه بمجرّد قضاء مصالحهم منه، فهو لا حظّ له في هذه الدّنيا، ورأى بأنّ ما يلحقه من مصير ليس عدلا. لقد كانوا جميعا في تلك العملية وكان معهم خطوة بعد خطوة، لم ينشز عنهم ولم يستعرض قدراته عليهم ليفعل أكثر ممّا كان مطلوبا منه، لقد نفّذ بالحرف ما قيل له، لم يكن هو صاحب فكرة الاقتحام تلك، ولم يكن هو من وضع لها خطّتها ودبّر لها زمانها. قالوا نهجم على المحكمة، قال أنا معكم.

لقد كان في عصبة اعتقد أنّهم إذا جدّ الجدّ لن يُسلّموه وسيقفون إلى جواره ويحموه ويذودون عنه، ولكن ما أن لاح الخطر حتى انفضّوا من حوله كلّهم وانسلخوا من أيّة علاقة تربطهم به، فأظهروه الرّأس المدبّر للعملية، المحرّض الذي غرّر بهم واستغلّ جهلهم لعواقب الأمور.

لقد ظهر بليدا مرّة أخرى عندما غاب عنه أنّ وراء كلّ واحد فيهم واسطة قادرة على تغيير كلّ ملامح الحقيقة، فتجعل الباطل حقّا والحقّ باطلا، المجرم بريئا والمقتول ظالما، وفي الوقت المناسب نفخ كلّ واحد فيهم طوق نجاته إلاّ هو لم يعطوه واحدا.

كان يعلم أن لا جدار له يستند عليه عند الحاجة وأنّه أعزل، فلمّا قذف بنفسه في ذاك الآتون مثلما فعل، وكتم مرارته بالذّنب عندما لم يُصدّقوه. لقد اعترف لهم بكلّ شي، قال كنّا مجموعة وأفصح عن أسمائهم جميعا، فقيل له أصمت هؤلاء أشرف منك، لا يرتكبون ما ارتكبت. قال ما أنا إلاّ أصبع من أصابع اليد المنفّذة، فقيل له بل أنت اليد كلّها. قال ألم تلقوا القبض علينا جميعا؟، قيل له لا أحد ضُبط معك، ولا أحد شوهد معك،

---

[1] المصدر السابق، ص.93.

كنت تقترف الذّنب وحدك، وحريّ بك أن تدفع الثّمن وحدك. تعب وهو يعترف لهم بما جرى، ولم يتعبوا وهم يُحمّلوه كلّ تبعات القضية. غلبوه فانكسر وسكت، كان كبش المحرقة، ألقي في السّجن ليُسدّد فواتيرهم المشبوهة كلّها، ليعيشوا طلقاء ينعمون بالحرّية، فلا يتجرّعوا إهانة السّجن وغربته، لا أحد منهم اهتمّ لحاله فزاره أو سأل عليه إلى أن يقضي المدّة فيخرج فيجد نفسه بلا وظيفة، ألم يُضيّعها من أجلهم؟، وبلا سمعة، ألم تُسلب منه بسببهم؟.

ولا يتحمّل منظره بين النّاس فيُغادر مدينته سيدي بلعباس ويرتحل إلى أبعد ما يُمكن، فيتوقّف بالعاصمة وينوي أن يبدأ حياته هناك من جديد حيث لا يعرفه أحد ولا يُتّهم في السّرّ ولا في العلانية، وامتهن بيع الخضر في حي باب الواد الشعبي، ولكن لا يلبث إلاّ قليلا ليعود إلى تضييق الخناق على زوجته، يُطالبها بأن تُنجب له ولدا يملأ عليه فراغ الحياة والبيت، وبعد أن تزول عنه هذه النّكسة ينضمّ ثانية إلى الجماعات الإسلامية ويصير عضوا نشطا بينهم، وكان يفتح لهم بيته ليجتمعوا فيه، وأصبح يجهر بما يُعلّمونه إيّاه من فوائد، إلى أن احتدم الوضع وانفجر، فكانت المظاهرات والمشادّات، فوجل وجلا رهيبا وانزوى يرتعش "ظلّ يُبسمل ويُحوقل ويفكّ الحروف القرآنية بعدسات القراءة ثمّ قام من مكانه ووقف عند جدار سميك داخل البيت وبدأ يشهد يشهد ويُتمتم الله أكبر، الله أكبر، النّفير الكبير. لقد نُفخ في الصّور. آجوج ومأجوج يملأون البلاد، ارحمنا يا ربّنا"[1].

يبدو العبّاس مرعوبا من فكرة أن يعيش ثانية ما كابده في مدينته، فهو لا يرغب في أن يلحقه ذات المكروه الذي لحقه آنذاك جرّاء خيانة من عدّهم أصحابا له، وكأنّ ما يحدث قد ذكّره بمسكنته وضعفه وكيف أنّه لم يشفق عليه أحد ولم يرحمه واحد من هؤلاء الخلاّن كما كان يظنّ، فحمّلوه كالحمار أثقالهم، فأحسّ الذّل والقهر وهو لا يملك الحيلة التي يُدافع بها عن العبّاس، فمنحهم فرصة التّخلّص من مساوئهم والسّلامة من ذنوبهم.

تذكّر كيف عاشوا حياتهم الطّبيعية لم يمسسهم سوء بينما قُذف به هو في السّجن مثل كمّ فقد صلاحيته، تذكّر كيف تحوّل بعد أن خرج من غمّ ذلك المكان إلى أمثولة أهل المدينة في البلادة والحمق.

---

[1] المصدر السابق، ص.145.

خشي أن تصل الأمور هذه المرّة إلى عين ما حدث تلك المرّة، فتُعاود الأحداث ذاتها، ويكون هو الذّبيحة من جديد أو الجاني الذي أحبّته شبهته.

خاف أن يُقبض على واحد من خلاّنه الجدد فيذكر اسمه فتبرّأ في أعماقه منهم كلّهم، فهو لا يعرفهم، ليس منهم، وإن ذكروه هذه المرّة هو من سيتنصّل منهم، فهو لم يقم بشيء، كان فقط يتتبّع ما يجري، وعندما وصلت الأمور إلى العنف والحرب انتشل شأنه من وحلهم وبقي بعيدا لا يسمح لأحد بالدّنوّ منه.

وصار العبّاس بئيسا لا يُجيد ما يفعل وهو المقطوع من عزوة البشر، فاختفى خلف البسملات وتوجّه إلى الله يطلب منه أن يمنحه القوّة حتى يتمكّن من تجاوز ما أصبح عليه من جزع، فيضع نظّاراته مرتبكا ويتناول المصحف بيدين ترتجفان ليقرأ بعض السّور والآيات علّه يطمئنّ، ولكن ما أن يبدأ حتى يتوقّف واضعا المصحف جانبا، فينهض من مكانه ليسير بعض الخطوات صوب أشدّ جدار يراه في الدّار، يلتصق به زاعما بأنّه سيمنع عنه الخطر فلا يجد سبيلا نحوه.

ويشتدّ اضطرابه ويصل به ذعره إلى تحيّن الموت، فيبدأ بالتّشهّد مرّة، اثنتان، ويُلحق تشهّده بالتّكبير، ويتشتّت عقله وينفصل عنه فيجزم بأنّ السّاعة جاءت وستُنهي كلّ أصحابه، لقد جنوا على أنفسهم، إنّهم مثل يأجوج ومأجوج، إنّهم في كلّ مكان، عددهم كبير ولكنّهم لن يصمدوا، سيُهزمون، أمّا هو فلن يُجديه الآن إلاّ تلمّس الحماية والرّحمة من الله.

ب) المبحث الثاني: الشخصية الاكتئابية المركبة.

1 وقع الأحذية الخشنة: واسيني الأعرج.

يتقفّى واسيني الأعرج [1] ملامح الاكتئاب التي انتابت شخصية عيد عشّاب الذي وصل إلى الشّام ضمن بعثة علمية لإكمال دراسته، وهناك يلتقي فتاة مشرقية مسيحية يُغرم بها ويُقرّر أن يتزوّجها، ولكن عندما يتقدّم لطلبها من عائلتها يُجاب سعيه بالرّفض بحجّة أنّه مسلم وهم لا ينوون تزويج ابنتهم إلاّ بمن كان على ديانتها، ولكنّه لا ييأس ويُصرّ على تكرار الخطوة ثانية فيقتحم عليهم البيت ذات يوم ليشرح ظروفه ويُفسّر موقفه وهو يبغي انتزاع الموافقة منهم، وحينما أنهى ما كان لديه من كلام سأله أبوها عن ماهية دينه، فما كان من عيد إلاّ أن أقرّ بإسلامه، فعقّب الأب على إجابته بأنّ المشكلة كلّها تكمن في كونه مسلما.

وأحسّ عيد بأنّ تصلّبهم لن يتحوّل وبأنّه لا محالة سيقطع عليه كلّ السّبل، فما كان منه إلاّ أن تراجع فيما أعلن ليقول "بلا دين، إذا كان هذا يحلّ المشكل سأذهب إلى الكنيسة وأعتنق المسيحية أو اليهودية، فأنا قرأت العهدين القديم والجديد، وأستطيع أن أكون ما تشاءون"[2].

وهكذا يتوضّح أمر عيد الرّافض لأن يستسلم وهو يشعر بأنه قد يُحرم ممّن أحبّ وإلى الأبد، فاستقلّ كلّ عظيم واسترخص كلّ ثمين، ولم يُفكّر إلاّ في الوسيلة الدّفاعية التي تُعطّل هذا الافتقاد الذي بدا له وشيكا، فمضى يُلغي يقينه الدّيني الذي وُلد به، وانتماءه العقائدي الذي كبر معه، وصاغ كينونته الحياتية كلّها.

فأخفى إيمانه ثمّ حينما لم تُجد المناورة نفاه وجهر بأنّه لا يملك دينا،ة فوقّع طواعية على تنازل غريب وخطير وهو يُقدّم فروض الطّاعة والولاء لذاك الذي لفظه حتى يُقنعه بأنّه مستعدّ وبلا تردّد أن يكون على الدّين الذي يرتضيه له، المهمّ أن لا يُضيّع منه سيلفيا فتبقى إلى جانبه ومعه.

ويكشف واعيا عن نيّته بأنّه سيتحوّل مسيحيا مثلهم وأنّه لن يتوان عن تجسيد ذلك بصورة فعلية، بل وسريعة، بالتّوجّه إلى أقرب كنيسة أو قدّاس، مطالبا القساوسة هناك

---

[1] وقع الأحذية الخشنة، منشورات الفضاء الحر، 2002 (الرواية، ط1 كانت سنة 1981 ببيروت).

[2] المصدر نفسه، ص.141.

بتعميده، وإن لمس منهم تحفّظا، فسيُجبرهم على إقامة مراسيم التّعميد وسيحرص بأن يكون على مرأى الجميع، فيصير مسيحيا، وقد شهد ردّته أصدقاؤه الطّلبة وكلّ من يعرف في الشّام، وأفراد عائلة سيلفيا جميعهم، فيكون حينئذ منهم وإليهم، ويرتاح من المعضلة التي إن استمرّت ستودي بحياته.

وارتباك دخيلة عيد لا جدال فيه ويترسّخ وهو يُحمّل دينه الذي آمن به وقتا ليس بالبسيط وزر ما يعترضه من تنغيصات، فيراه عاجزا على أن يُحافظ له على العزيز الذي اختار، ومردّ هذا هشاشة الأساسات التي صنعت شخصيته دون أن تدعمها، فحدث أن رأى الأشياء بعين مريضة، صعُب عليها أن تعكس الصّورة واضحة، فخالطها اللّبس والزّيغ الكثير.

وينفي عيد إرادته ويجثو ضعيفا ذليلا، يضع مصيره برمّته بين يدي الآخرين، فيكون لعبة مسلّية بين أصابعهم يُحرّكونها في الاتّجاه الذي يرغبون ووقت ما يحلو لهم اللّهو بها، فإنّهم لا يُحجمون، فيُصبح أسيرهم المؤدّب الذي لا يتهاون في تنفيذ كلّ ما يأمروه به، حتى وإن كان شأنه أمرّ وأفظع من التّمسّح كأن يتهوّد مثلا، فهو لا تُثير عنده القضية أيّ حرج أو ضير، سيكون راضٍ وهو يقوم بذلك بانصياع وهدوء كاملين. ولماذا الاحتجاج، فهو يفتخر بأنّه قرأ كلّ الأسفار المسيحية القديمة وفقه معانيها، وله علم ودراية بالأسفار الجديدة، وأنّ واقع الأمر لا يخرج عن الوجه الواحد، فإن هو شدّ بتلابيب الأوّل أو الثّاني أو بهما جميعا، فالمعادلة لن تفترق وهو يتقهقر طفلا لم يحتلم فيتوسّل إليهم ويترجّاهم بأن لا يعاقبوه بإبعاد من أحبّ عنه.

ولكن وعلى الرّغم من كلّ هذا الرّكوع المشين يظلّ مرفوضا، فلا يحظى بالقبول مطلقا.

ومن هذا الوضع يتولّد بداخله الشّعور بأنّه كائن غير مرغوب فيه فيعترف بأنّه ملّ العيش وبأنّ بعده عن سيلفيا قد أعياه "في كلّ يوم ازداد كرها للحياة والأديان، الريح اللّي تجي تدّيني. هشّ ومرهق. غيابك يُتعبني ويقتلني. البارحة شربت كثيرا لأنّي بدأت أشعر باللاّجدوى من كلّ شيء"[1].

---

[1] المصدر السابق، ص.41، 107.

الظّاهر أنّ مقت عيد للحياة ليس حديثا ولم يتولّد من الحادثة التي أسقطته، بل أنّه كان يسكنه قبل ذلك بكثير، والذي يُحتمل أنّه وقع بعد ذلك أنّ بغضه ارتدّ إلى عمق ذاته وكأنّه يُعنّفها على أنّها مازالت تعيش، وكان الأجدر بها أن تضمحلّ مثلما تهاوت أمانيه وتلاشت أحلامه.

ويتساءل عيد لماذا الحياة حبّذت الاحتفاظ به؟، لماذا لم تتخلّ عنه وتُهمله مثلما تقزّز منه أهل سيلفيا فردّوا طلبه؟. لو أنّ الحياة رفضته لكان الآن يسكن رمسه مرتاحا مطمئنّا من كلّ كدر الدّنيا الذي صار يدفعه دفعا إلى معاداة كلّ الأديان ودون استثناء لأنّها تختزن في مفهومه كمّا من القوانين المنظّمة للحياة وفق منطق لا يرى عيد ضرورة الاعتراف به لأنّه ليس يفهمه إلاّ حائلا في وجه البشر، يعوقهم عن تحقيق ما يُريدون.

ويخلص بفكرته هاته إلى أنّ الدّين كيفما كان ما هو إلاّ أداة حجر ومصادرة تمنع حرّية الإنسان من أن تمتدّ أبعادها وتعظم مراميها، فتُضيّع عليه بهكذا فعل الفرص المتشعّبة من الفوز والارتقاء، ولمّا يتنبّه بأنّ الدّين هو ركيزة الحياة يصل تقبيحه إليها لأنّها تقف على مثل هذه الدّعامات ويكون استهجانه للبناء كلّه.

ويستطيع عيد بعد هذا أن يُحدّق في حقيقته التي كان يخافها دائما فيميل بنظره عنها، حقيقة تفضح سرّه وتُذيع بأنّه شخص غير مستقرّ، عاش كلّ هذه السّنوات فاقدا لهذه الخاصية، عاجزا عن صنع أخرى بديلة معوّضة، فاستقرّ على تململه يميل حيث مالت الرّيح دون أن يبحث عن الأسباب التي جعلته على هذه الحال، ولا كيف صار إليها، فغضّ باله عنها إلى أن طغى عليه الاهتزاز فعمّ كلّ دخيلته فماثل الورقة التي أسقطتها الشّجرة مستغنية عنها بعد أن جفّ ماؤها ويبست، فاستحالت ضعيفة خفيفة، تكفي دورة هواء بسيطة لترمي بها من مكان إلى آخر، فتُبعدها مسافات لا تُحصر.

ويتنهّد عيد زافرا نفحة شقاء وهو يحسّ بأنّ التّعب قد هدمه بعد انفصام ودّه عن سيلفيا، والواقع أنّ ما أعياه تأكيدا ليس بعد سيلفيا عنه وإنّما الذي نال منه هو ذاك الموقف الذي رمى بشخصه في آتونه، والذي ما أن يستعيده حتى يُضاعف إرهاقه، ولا يعثر على المبرّر الذي يُقدّمه لذاته حتى تتوقّف عن ضربه بعصا التّأنيب وهي تستجوبه لماذا استصغرها؟، لماذا أذلّها؟، لماذا أجبرها على أن تتمسّح بأذيال الآخرين حتى يرضون به لتكون النّتيجة مهانة قاتلة لا غير.

وحتى ينسى شكله المشين، بل والمخزي، الذي تقمّصه يغطس في الخمرة فيتحسّى منها القدر الذي يُغيّب به وعيه ويفشل في تذكّر الوجوه والمواقف ليهتدي متأخّرا إلى فكرة عملاقة تُفصح بأن لا شيء ذا قيمة في هذا الوجود، وأنّ عيشه كلّه عقم، فلم يحوي ذرّة نفع واحدة، ولمّا يتوقّف ذهنه عند هذه النّقطة تطلب ذاته بأن تختفي ويُطمس أثرها.

وأخيرا يرضى عيد بالانفصال المحتوم الذي ختم علاقته بسيلفيا، وحوّل ارتباطه بها إلى ضرب من المستحيلات، ويقتنع في ذات الآن بأنّ استعجال النّهاية غير كاف لاستقدامها، وحتى يتعوّد غياب سيلفيا ويقبل بالحياة التي تشبّثت به راح يتلهّى يوميا بالتجسّس على جارته، فينتظر عودتها إلى بيتها ليكمن لها خلف ستار نافذته المقابلة لشرفتها ويبدأ في تتبّع تصرّفاتها، ولم يكن يُثيره في هذا التلصّص إلاّ لحظة خلعها لملابسها، فلم تكن عينه لتغفل عن أيّة لقطة من هذا المشهد الذي كان يخلق لديه لذّة لا تُقاوم "تتخلّص من مساسيكها وأمشاطها وتُطلق سراح شعرها قبل أن ترمي الثّياب الثّقيلة على السرير. يظهر جسدها مصقولا غارقا في النّور كنحت يوناني قديم من تحت الألبسة الشّفافة التي سرعان ما ترميها[1].

ويستفحل أمر عيد إلى أن يفقد ملكيته على ذاته فتهرب منه جامحة لتُنقّب في أحرج خصوصيات الآخر الذي ليس لها معه أيّة صلة قبلية، ولم يكن بينها وبينه أيّ تعارف سابق.

وبهذا الفعل تتحرّك في عيد كلّ عيوب البشر وهو يُقيم لجارته مرقب رصد دائم يتكرّر كلّ مساء ودون وازع يردعه. يعبر الخطوط الحمراء ويتخطّاها، بل ويتجاوز حرّيته المنتهية ليتطاول ويغتصب حرّية الآخر.

ويختار عيد الحيّز المناسب للاختباء بحيث يرى جارته ولا تراه، فتجحظ عيناه وتلتصق بجسدها وهو يتحرّق لأن يستكشفه عاريا، وتستهويه بداية طريقة قطفها للمساسيك الموزّعة على رأسها لتقبض بها كامل شعرها، وما أن يُبصره ينسدل على كتفيها حتى تتكوّن بداخله متعة حزينة، فخلده يتمنّى لو كان هو من نزع تلك المساسيك اللّعينة وأمسك بخصلات شعرها بين يديه وعبث بها بين أصابعه يتحسّس نعومتها ثمّ

---

[1] المصدر السابق، ص.74.

قربها من وجهه، ثمّ دفن رأسه كلّه فيها ليشمّ رائحته، ثمّ يضمّه بين راحتيه فيُقبّله برفق وحرارة فتنتشي الدّنيا من حوله ويطمئنّ.

ولا تكفيه هذه المتعة فيتصنّم في موضعه فاغرا فمه يتلهّف على متعة ثانية، فشرع يُحدّق إليها وهي تخلع عنها لباسها الخارجي، رغب هنا أيضا لو كان هو من خفّف عنها ثقل ذاك الثّوب المعيق، فهو لا يُريدها أن تنزعج أو تشعر بالضّيق والحرج من تلك الألبسة التي تشلّ الحركة.

ولا يتحرّك عيد من البقعة الواقف فيها لأنّه يُريد تفاصيل أخرى تُمكّنه من استكناه صورة جسدها وقد أصبح لا يستره إلاّ ثوب داخلي شفّاف، فيتخيّل نفسه بيقماليون وهو ينحت تمثاله المرمري الأسطوري الجميل بكلّ دقائقه الرّائعة، وهو يُسابق الزّمن لأجل إتمامه. وهنا يكون عيد قد استوفى المتعة الثّانية، ولكنّ نهمه يطمع في الاستزادة ويأمره بأن يتريّث فلا يُغادر المكان، وإذا بها تقذف بلباسها الدّاخلي بعيدا، وهنا يشعر عيد بأنّه قد أكمل تمثاله وسرت في أوصاله الرّوح فتشعل نيران جوعه لهذا الجسد المبهر الذي يتحرّك قريبا أمام ناظريه، ولكنّه يظلّ بعيدا بعيدا جدّا عنه، لا يجد الحيلة للاقتراب منه ويكتفي بالنّظر إلى ثالوث المتع، هذا الذي يتحوّل بديلا للّذّة المادّية.

هذه المتع التي يعود إليها ليلا وهو في فراشه ليجترّها ويزيد عليها ألوانا من أحلام اليقظة، يصنع ذلك متعمّدا، حتى عندما يستيقظ صباحا يجد أنّ الحقيقة اختلطت باللاّواقع فصارا شكلا واحدا، وهذا ما استمات للظّفر به.

ويعتري عيد الانهزام عندما تنقطع عنه رسائل أبيه فجأة ومعها الحوالات المالية الشهرية التي كانت له رافدا يقيه الحاجة، فتحوّل إلى متسوّل يمدّ يده يطلب إحسانا من أصدقائه، وتعمّق إحساسه بالعذاب وفكّر بأنّ الحياة تُعاقبه دائما بأن تحرمه ممّن يُحبّ. في الأوّل كانت سيلفيا والآن حان دور أبيه الذي فقده هو الآخر وإلى الأبد.

وتستبدّ به حالة من الإحباط وهو يتأكّد من أنّه صار وحيدا، بل لقيطا غير مرغوب فيه، جاء إلى الدّنيا خطأ فاستحقّ كلّ هذا الكمّ من الهمّ والوجع والخوف الذي يسلبه تارة بعد أخرى السّلامة والرّضا.

ولمّا تحتدّ آلامه فلا يطيق معها صبرا يتناول كشكول مذكّراته ويبدأ في خطّ رسالة إلى أبيه "والدي الحبيب، اليوم فكّرت فيك طويلا لأنّي فكّرت في الموت. لا أدري لماذا أنا

ملتصق بك إلى هذه الدّرجة. حتى دراهمك لم تعد تعنيني، لكنّي أتساءل يوميا، في يقظتي وفي نومي، أمازلت حيّا؟، أمازلت تُفكّر في؟. أنت لم تُعلّمني هذا الفراق الفجائي. كان عليك أن تُعوّدني مثلما تفعل الحيوانات مع صغارها. لقد صرت أعيش في قفر مثل الذئب"[1].

لم يعد يربط عيد بالحياة إلاّ شخص واحد هو أبوه الذي يعدّه كلّ أهله، فهو الحبيب الذي كان ومازال، ويرتبط هذا الأب في تفكير عيد بالموت، فحينما تلوح له وتلحّ عليه ذكرى أبيه تطغى عليه مسلّمة الموت وكأنّه يشكّ في أنّ أباه يكون قد قضى نحبه، وإن صَدَق احتماله فما الذي يجعله يستمرّ بعده؟. فالأجدر به أن يلحقه دون تضييع للوقت، حتى وإن كان احتماله كاذبا، فمجرّد بقائه هكذا جاهلا عن مصيره كلّ شيء هو، فقد لا يستطيع تحمّله ولا التّعايش معه، ويُصبح من الأفضل لو أنّه يضع نهاية لحياته التي لم يعرفها إلاّ منكوبة.

ويتساءل عيد لماذا بقي طفلا؟، ولماذا تأخّر حُلمه؟، لماذا لم ينجح في تخطّي دائرة الأب فيُحلّق بجناحيه هو؟، لماذا لم يكبر فيستقلّ عن أبيه ويصير ككلّ الرّجال يمتلك شؤونه ومسائله الحياتية الخاصّة؟.

ويُحاول (عيد) أن يدفع تبعا لهذه الاستفهامات الغازية تهمة مستقرّة في ذاته، وهو أنّه ظلّ تابعا لهذه الأبوّة لأنّه يحتاج مالها، فتبرّأ من الفكرة مؤكّدا أنّه لم يعد مهتمّا بذاك المال، حضر أو غاب، وأنّ ما يؤرّقه حقيقة هو أنّه لا يستطيع الاطمئنان على أبيه الذي صار يراه في يقظته، فيتجلّى له طوال الوقت في كلّ أحواله التي عهده عليها، وإذا ما غفا فإنّه يزوره في نومه، فلم يبق لعيد إلاّ سؤال واحد يُكرّره باستمرار، أمازال والده حيّا؟، وإذا كان كذلك هل يذكره؟، هل يشتاق إليه ويُفكّر فيه، في ابنه مثلما يفعل الابن المحطّم رغما عنه، الرّاغب عن الرّاهن، والذي فضّل أن يحيا في الماضي لأنّ الأبوّة موجودة فيه.

ولم يهتد (عيد) إلى الطّريقة التي يطرد بها الوساوس التي ما انفكّت تغزو فكره لتُعلمه في كلّ وقت بخبر جديد عن أبيه.

---

[1] المصدر السابق، ص.182.

ويتفطّن إلى أنّ كلّ ما يُصيبه، إنّما سببه هو والده فيُحمّله مسؤولية أنّه لم يُعوّده النّأي عنه، فقد كان إلى جانبه جلّ الزّمن، بل كلّه، ولم يكن يتركه لوحده خوفا وحدبا عليه، فيُعاتبه لأنّه لم يُعامله مثلما يُعامل الحيوان صغيره فيتركه يتدبّر أمره بعد أن يلمس عنده القوّة على ذلك، فالطّيور تُغادر أفراخها بمجرّد أن يصير جناحاها قادران على الطّيران، والسّباع تتخلّى عن صغارها بعد أن تُميّز تمرّسها على الصّيد وعلى تأمين حاجياتها من الغذاء، فلماذا لم يكن معه مثل الطير؟، ولماذا لم يتصرّف معه مثل السّباع؟.

وينظر عيد إلى حالته التي أضحى عليها فيجد شبها كبيرا بينه وبين ذئب رُمي به في خلاء بعيد عن فصيلته، وعندما يروم العودة إلى حيث كان، يُضيّع طريقه، فيرضى بالواقع ويبقى بالمكان الذي لن يتعوّد عليه مطلقا، فيصير محكوما عليه بأن يُصبح نسيا منسيّا، فلا يعرف أحد عن أمره شيئا.

وتتدهور معنويّات (عيد) كثيرا وينعكس ذلك على صحّته، فيدخل المستشفى، وعندما يخرج، أوّل ما يفعله هو أخذ كشكوله وفتحه ليكتب رسالة أخرى لأبيه "اليوم فقط خرجت من مستشفى المواساة، كدت أموت. والدي الحنون، لماذا كلّ هذا الصّمت؟، هل آذيتك وأنا لا أعرف طريقا للشّرّ؟. كلماتك اللّطيفة كانت لي كالبلسم الشّافي يجعلني أتصالح مع نفسي وأعتزّ بها، فلماذا الآن غابت وانتفت؟. فإذا كنت أجتهد وأقاوم مصاعب الدّنيا فلأنّي تعلّمت منك الكثير. وجودك بجانبي يمنحني قوّة التّغلّب على الصّعاب. إنّ الأب مثل الرّوح، عندما تخرج يتهاوى الجسد ويبدو أنّ جسدي بدأ يتهاوى ويموت بصمت"[1].

مازال عيد لا يجد سبيل التّحرّر من سلطة أبيه عليه، فهاهو يجري نحوه ليُخبره بكلّ ما حدث معه، تماما مثلما كان يفعل صغيرا، وكأنّه بهذا التّعلّق يُريد تجاوز حقيقة الموت فيجعلها تبتعد فلا تمسّ أباه الذي لا يرضى له بأن يُرافقها. لذا فهو يُراسله لأنّه متأكّد من أنّه مازال يحيا ومازال يتلهّف لمعرفة أخباره، ومن أجل هذا فسيُسهب في إعلامه بكلّ أموره، فقد تعوّد منه أن لا يُخفيه شيئا، مهما بدا بسيطا.

ويبدأ بخبر تراجع صحّته وبعلّته التي ألزمته الإقامة في المستشفى لبعض الوقت قبل أن يُقرّر الأطبّاء الإفراج عنه عندما ظهر لهم أنّ حالته قد استقرّت وكأنّه يُريد بهذا

---

[1] المصدر السابق، ص.182.

أن يستدرّ عطف والده عليه فيهفو إليه مواسيا مثلما صنع دائما أو أنّه يُريد أن يتيقّن من خارج ذاته بأنّ والده مازال يُرزق بالحياة. ولا يقدر (عيد) على كتمان حيرته فيسأله لماذا قطع عنه بريده فلم يعد يُكاتبه مثل السّابق، لماذا لا يُطمئنه ويمنحه إشعارا واحدا يقول بأنّه باق لم يُغادر.

ويشعر (عيد) بالذّنب الذي يتطوّر إلى تأنيب للضمير ممّا يكون قد اقترفه في حقّ أبيه دون انتباه منه، الأمر الذي أزعج الوالد وأغضبه عليه، فظهر له أن يؤدّبه بهذه الوسيلة حتى لا يعود إلى مثله. ويتوقّف عيد مستدركا بأنّ أباه يعرفه ويعرف بأنّ الضّرر لا يصدر منه أبدا، فهو لا يتعرّض بالأذى لنملة، فكيف لبشر، وكيف لأبيه؟.

ويتضايق (عيد) من وحدته التي تُشرنقه، ومن غربته التي تُبكيه، فيطلب أباه ويُعلن حاجته إليه في أن يُبادله الحديث، فقد كان كلامه الدّواء الذي لا يُخطئ الشّفاء، وكان في كلّ الأحوال خطابه له هو ما يجعله يُقيم جسر الألفة والمحبّة بينه وبين ذاته، فتتولّد ثقته بنفسه وتثبت، فيعتدّ بها ويُفاخر، ثمّ يردف بأنّه هو من لقّنه بأن لا يُصعّر وجهه للصّعاب وبأن يُصارع ويُجابه ويبذل قصارى ما يملك من جهد حتى ينتصر شجاعا، فلا يوصف بالجبن أبدا. لقد كان يُعطيه من قوته ويضخّ دمه في جسده ليتشبّث بالحياة، فقد كان روحه التي لا يُريد جسده غيرها، وهاهو (عيد) يحسّ روحه تُغادره فيتعب الجسد ويهزل ليموت دونما صخب، فلا يسمع بحكايته المحزنة أحد إلاّ بعد أن يعثروا عليه منتحرا وزجاجات الخمرة منتشرة حوله، ومجموعة من أقراص مبعثرة لا تحمل أيّة علامة.

2 بان الصبح: عبد الحميد بن هدوقة.

تنطوي بان الصّبح [1] على شخصية (دليلة) الطّالبة الحقوقية التي توشك على التّخرّج والتي تُعاني حالة من التّفسّخ النّفسي بعدما استكشفت بأنّها حامل من زميل لها بالجامعة، ولمّا أعلمته الخبر قال لها بأنّه سيتدبّر الأمر ويتّصل بها، ونصحها بأن لا تقلق وتنتظر بعض الوقت.

وعندما أحسّت بأنّ اتّصاله قد تأخّر وبأنّه لم يظهر منه أيّ إشعار، اتّصلت هي به وطالبته بأن تلتقيه، ولكنّه اعتذر متحجّجا بمشاغل وارتباطات لديه.

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1984.

وما كان منها إلاّ أن تشكّ وتُكذّبه، فشدّدت لهجتها معه، واختارت مكان اللّقاء فكان شقّته، والزّمن وكان السّاعة الثّانية بعد الزّوال، وامتثل لأمرها لمّا فهم تهديدها. وقصدت في الوقت الذي ارتأته شقّته حيث كانت مواعيدها معه، وما أن دخلت حتى استولت عليها ذكرياتها فيها وناجت نفسها بأنّه هنا في هذا المكان فقدت أعزّ شيء، عذريّتها، وهذا في أوّل موعدها معه، يومها شربت حتى ثملت ولم تع بعدها ماذا حصل لتستيقظ وقد جُرّدت من ثوب العفيفات. ولم تقف علاقتها به عند هذا الحدّ، بل توالت لقاءاتها به، وفي نفس البقعة. كلّ هذا مرّ بذهنها وهي تخطو عتبة تلك الشّقة.

وهي تستفسره عن مصير الوعد الذي أعطاها إيّاه لقد تريّثت مثلما أشار عليها، وهاهو الأسبوع الأوّل يمرّ ويمتدّ إلى الثّاني، وسألته عن ماهية الحلّ الذي وصل إليه. لم يجب بداية. نظرت إليه ففهمت أنّه غير مكترث مطلقا بوضعها.

ولمّا رآها تُريد أن تقف على ما يُفكّر فيه صارحها بإمكانية الإجهاض، فليست المرأة الأولى ولن تكون الأخيرة التي تلجأ إلى مثل هذا الفعل لتحمي سمعتها فلا تنفضح أمام أهلها. لم ترض لذاتها سخرية كهذه، لم تحكم أعصابها وانفعلت وتصرّف غضبها وهي تجمع ثوبها وتُعليه إلى صدرها وتُخاطبه "انظر، بدون سروال ! عندما تفقد المرأة عذريتها مع جبان لماذا تتسرول. ماذا تقول لو ألد لك سيّارة مرسيدس أو 604 أو سيّارة أخرى ضخمة تُناسب مقام العائلة؟ عندئذ ترتاح ويرتاح أبوك من شراء الفرنك الفرنسي بدينارين! في كلّ تسعة أشهر ألد لك سيّارة، طبعا تقودني حالا إلى دار القاضي، حينئذ لنتعاقد لأنّ الإجهاض يلد سيّارة غير كاملة التّكوين"[1].

إنّ عقدة الذّنب تذلّ دليلة وتجعلها ترفض أن تتحمّل بمفردها تبعة ما حدث فتسعى إلى إقحام زميلها ودفعه إلى اقتسام الذّنب معها، فهو من أهدر عذريتها، وهو من أودع رحمها ذاك الجنين الذي صارت تتوقّع تحرّكه في أحشائها قريبا.

وتندم على ما جرّت نفسها نحوه وهي تلمسه، لا يحسّ بكدرها وخوفها، بل وتشتدّ حسرتها حينما يتأكّد لها بأنّها أخطأت التّقدير، فهو ليس الشّخص الذي ظنّت، فها هو يُريد أن ينجو على حسابها فيُرشدها إلى أسهل الطّرق بالنّسبة إليه، وهي التّخلّص من الجنين دون أن يُفكّر في تصحيح الوضع من سبيل آخر. لقد كانت غبيّة حينما فهمت من وعده

---

[1] المصدر السابق، ص.78-80.

لها بأنّه سيجد الحلّ أنّه ينوي الارتباط بها وأنّه يتحيّن الفرصة الزمنية ليُفاتح عائلته في أمر طلبها من أهلها، ولكن لا شيء من حدسها تحقّق.

فهو لم يُفكّر لحظة في أن يُواري الخطيئة ويردّ عنها الضّرر، ولم يجل في باله أن يسترها عن القريب فلا يهتدي إلى ذنبها ويُخفيها عن البعيد لا يستشنع صورتها.

وتنكسر دليلة ومنطقها يقذف إليها باستنتاج غاية في الأهمية، يقول على الرّغم من أنّ الجريمة المرتكبة مشتركة بينها هي المرأة وبينه هو الرّجل إلاّ أنّ آثار نتانتها علق بها وحدها، وخرج هو الرّجل معفيّا منها، لم يمسسه سوء.

وتنتهي بها عصبيّتها إلى العجز عن ضبط حركتها فتكشف له عن عورتها وتدعوه إلى النّظر، فهي لم تعد ترتدي السّروال منذ سمحت له بأن يخلع عنها عذريتها، فيكون السّروال خدعة في حالتها ما دامت لا تملك أن تتمتّع بالزّي الأرقى والأروع وهو العفّة.

وتنعته بالخوّاف وتنزع عنه صفة الرّجولة لأنّه صغير عن مقارعة الصّعاب، يُدبر هاربا من حصاد ما بذره ليُسمع الكلّ بأنّه مظلوم مفترى عليه، فهو الأعقل الذي يستحيل أن يتهوّر فيجمح، وهو الأنظف الذي لا يُمكن أن يتلوّث، وهو الحسن الذي يُستبعد أن يَقبُح.

وحتى يسكن أجيج قلقها ويهدأ تفك لسانها لتجلده بسخريتها على ما ضيّعه منها، فهو لا يستحقّ غير الاستهزاء في رأيها، فلتكل له ما يكفيه ويُتعبه حمله. وجعلت تُقزّمه وتعرض بالغنى الذي يرفل فيه وتحتقر الجشع الذي يُسيّره ويتحكّم في عائلته، واقترحت عليه تزدريه هل يرغب في أن تُنجب له سيّارة؟، وتُضيف تسأله عن النّوع الذي يُفضّل، وتذهب لتُجيب، أعرف أنّك تُحبّذ أفخرها مثل أبيك، وتُسهب قائلة بأنّها مستعدّة على نزع الضّيق عنه وعن أبيه الذي تُشفق عليه وهو يتحمّل همّ شراء الفرنك الواحد بخسارة دينارين اثنين، فهي ستسمح له بتوفير ماله فلا يقع في التبذير، ولن تتوقّف عن الإنجاب فتضع بين يديه ويدي أبيه كلّ تسعة أشهر سيّارة.

ثمّ تُعقّب لو أفعل ذلك لأعلنت على الفور رغبتك في الزّواج مني ولكنتَ اصطحبتني دون الاستهانة بالفرصة إلى القاضي، ولكنتَ استعجلته على إتمام المراسيم القانونية لذلك، لأنّه وقتها سأتحوّل إلى مصدر للثّروة مهول لك ولأبيك وعائلتك، فلن

تجرؤ على التّضحية بي ولن تتفوّه بكلمة الإجهاض أبدا لأنّه لن يكون في صالحك حيازة سيّارة غير مكتملة، فأنتم تُريدون دائما الأكمل والأروع لكم.

وحتى تُجزل له الوصف، تُعلمه بأنّه تافه وعديم الشّخصية، يأتمر بأوامر أبيه، وأنّه إذا ما غرب في الزّواج سيهرع نحو أبيه كالفأر المفزوع حتى يختار له امرأة في مستوى غناهم، وإن فاقتهم لا ضير، فهو زيادة خير. وتحتدّ في إذلاله وهي تسأله، هل عندما يُقرّر الاستفحاش في شقّته يطلب رأي أبيه؟، وهل حينما دأب على المجيء بها هنا كان يستشير أباه.

وتبدو دليلة ماقتة لحياتها الماضية وغير متقبّلة لذكرياتها السّابقة السّيئة، تُريد أن تتخفّف من ثقلها بالتّخلّص من بعضها وتوريطه إيّاها مادام دنيئا وضعيفا لم يحتلم ليحلّ ما تسبّب فيه من كوارث.

وتُعلن دليلة تبرّمها من الرّجال ومن المجتمع الأبوي الذي يُخطّط لكلّ شيء، دون أن يضع المرأة في حسبانه، ولا تكتم عنه قرفها منه وهي تشرح له أزمتها "أتدري فيما أفكّر؟ ولماذا أنا في هذه المرارة؟ لأنّي امرأة. وضعي كامرأة في مجتمع رجال هو الذي يُحزنني. أنت لست في نهاية الأمر سوى واحد من الرّجال. مأساتي أنّني أحيا في مجتمع الرّجال! الصّديق رجل، الأب رجل، الأخ رجل، الزّوج، حتّى بائع الخبز رجل. أليس سوى الرّجال!" [1].

تمنّت دليلة لو أنّها تعيش في أحضان المجتمع الأمومي حيث الولاية فيه بيد المرأة، منها تستمدّ سلطتها وسطوتها، فتُدير حركية الأنشطة من حولها، فتنسب من تُنجب إليها دون أن تكون في حاجة لرجل يقوم بهذه المهمّة.

لو كانت في ذاك المجتمع الحلم لتجاوزت هي اليوم هذا الذي تقف في مواجهته، تُطالبه بأن يستحدث لها حلاّ لِما هي عليه. ولمّا كانت شعرت بهذا الانحدار الذي يجرف إنسانيتها وهو يتعالى عليها ويتعجرف ليقول إجهضي، لا أملك لك أيّ مخرج منقذ، لن تكون مجبرة على مقابلته تستجدي منه تصرّفا ينتشلها من رعب العار، ومن وعيد الأب الذي لا يتوقّف غزوه، ومن الأخ المستمرّة استفزازاته، ومن خدوش الأظافر المتشابهة التي لا تستنيرها.

---

[1] المصدر السابق، ص.81.

لو كانت في مجتمع كذاك لما كانت اليوم بهذه الاستسلامية التي تقودها لأن تتّهم غفلتها مرّة وتهوّرها وحمقها مرّة أخرى. لما كانت تسأل نفسها كالمعتوه مثلما تفعل الآن، كيف حدث هذا؟، ولن تُغامر بالتّفتيش عن الشّرك الذي يكون قد بُني لها، ولما كانت اهتمّت بمتى وُضع في طريقها ولا كيف علقت به؟.

لو كانت ي ذلك المجتمع المنشود لما عاشت تُغالب من حولها ولما أتلفت أعصابها وأحرقت قوّتها مع هذا الرّجل وهي تستهزئ به مثلما فعلت منذ لحظات لأجل اللاّنتيجة، ولما تنازلت حتى يعفو عنها المذنب ويتعطّف عليها بورقة يرميها في وجهها يدعوها عقد زواج.

لو وجدت في مجتمعها الذي تُريد ما كانت لتكون مجرّد أنثى تتقزّز من أنوثتها الجبانة التي تحترف الاختباء وتسرق الاختفاء، لما ضاعت وفشلت، ولما سارت باتّجاه الانتقام حلاّ لِما يلحقها من مآس لا منافذ لها.

لو كانت هناك لتقبّلت حملها بفرح ولاستعدّت لاستقبال وليدها في أرقى الأحوال الممكنة، ولكانت تُلحقه بها وهي في كامل افتخارها وقمّة اعتدادها بالمرأة التي هي.

وتستفيق دليلة على راهن لم يمنحها ما تُفضّله وزاد على ذلك بأن أكّد لها ما تستقبحه وهو صورة الرّجل المحفوفة بهالة الإكبار والسّمو، فينقدح فيها شرر إحساس مركّب من الغيرة والحسد والقنوط يُنمّي أزمتها ويُضخّمها.

فتُقرّر أن تنتقم لأنوثتها بأن تنسلخ عنها وتلبس جلدة الرّجل حتى تتعرّف على المصدر الذي يستمدّ منه كلّ هذه المكانة وهذا القبول، وكيف يبني موقعه في الرّاهن بكلّ يسر ودون اقتدار.

ما السّرّ الذي يجعله لا يسقط في نظر الرّاهن فيستمرّ في حمايته له وتقديسه فيما يأتي، وهذا مهما كانت خطورة ذنبه وفظاعة زلّته، وما الذي يؤهّله للثبوت والبقاء.

وكيف لا تفوز هي بذلك من نفس الرّاهن على الرّغم من أنّها تعاملت معه من منطق أنّها أنثى مستكينة لا تُحبّذ التّطاول، ولكنّها تحطّمت على أوّل صخرة من صخوره المعدّة لها، فأضمرت عدائية شرسة للأنثى فيها والتي لم تصل إلى أن تؤمّن لها ولو الجزء الضئيل من الحماية.

ولأنّ وله دليلة بالجنس ظلّ فاضحا ولأنّه هو الذي تسبّب لها فيما هي فيه من مأساة، عافت أن تكون أنثى حتى لا تحسّ القمع أبدا فتُصبح هي القاهرة، تاقت لأن تُجرّب شعور النّصر على الأنثى كيف يكون وكيف يعيشه الرّجل؟، فتظهر دعارته المستترة وهو يُعاشر العشرات من النّساء، بل قد يبلغن أكثر من ذلك، دون أن يبدو عليه أثر ذلك لأنّه ببساطة لا يحمل عوامل إدانته معه، وهذا ما تُريده دليلة من تقمّصها لدّور الرّجل، تمويه الجريمة وطمس معالمها، تماما مثل ذاك الفعل الذي يمتهنه الرّجل.

وتتشبّث بهذا الطّرح تشبّثا يوازي العلّة لتقلب به حياتها فتعفي الأنثى فيها من نتائج ما حدث أو ما يحدث، فقد عاشت الهزيمة والتّنكيل زمنا يكفي وآن لها الوقت بأن تجتثّ الوخز الموجع وتتنفّس هواء الصّحة، ولن تنعم بذلك إلاّ إذا تحوّرت وعُدّت من الجّنس الآخر المناقض الذي تُحرّكه ذكورته بكلّ التّحرّرية الممكنة التي لا تسري عليها فعلة الحبس أو افتعاله.

وهكذا تخلص دليلة إلى أنّ ما يُقنعها بأن تبقى أنثى قد تقوّض بداخلها.

ولا ينجح التّحويم التبرّئي من الأنثى التي فيها في أن يُرشدها إلى الوسيلة التي ترتفع بها إلى المرتبة الأقوى لتتحلّل من عقدة النّقص والضّعف، فتبقى تُراوح مكانها ضمن واقع انتقدته واشتكت منه، فامتنع على أن يجود عليها بلحظة راحة تقطعها عن صيرورة ما كان "شعرت بالإجرام لأنّي أحمل في بطني جنينا. لم أفكّر لحظة لذّتي في حمله"[1].

إنّها تُبيح هذه المرّة للذّنب بأن يلتصق بها وبشكل جدّي، فلا تُعاند ولا تُكابر، فقد فهمت أنّ الذي نالها إنّما هو نتيجة تلقائية لحرّية الفوضى التي زاملتها وتوافقت معها فعطّلت فيها حاسّتها الأخلاقية البدئية، وبدت دليلة ملجومة والنّدم يتلصّص سائرا نحوها ليقبض على نبضها خفية، ويُشيع فيها نفس ذاك الشّعور الذي يتحرّك في المجرم، فجعلت تقيس المسافة بينها وبينه، فلم تُقدّر ما يفصلها عنه بعد أن عاكست السّليقة وتصرّفت ضدّ الطّبيعية، فتطابقت معه وهي تسطو على زمن من المتعة ما كان ينبغي لها أن تدنو منه، فكرّرت بذلك فعل المجرم السّارق وهو يمدّ يده ليستولي على ما لغيره دون حقّ، ومع أنّه

---

[1] المصدر السابق، ص.104.

لا أحد من البشر عرف بأمرها ولم تسع سلطة لضبطها، إلاّ أنّ المخلوق الكامن في جوفها سيعترف ضدّها ويُثبّت الدّليل عليها.

وتتراءى لها هيئتها وهي تتوازى مع المجرم القاتل أيضا الذي لم يتوان عن هرق الدّم واستصراخ الفرار، وحتى في هذه الحالة لن يهتدي آدمي إليها، ولكنّ الماكث في حشاها عندما ستختنق الحياة فيه، وقبل أن يهدأ خامدا سيُشير نحوها بحركة توحي بأنّها المتسبّبة في الحكم على مصيره ليكون على هذه الصّورة.

ولأوّل مرّة تقف دليلة تحدج ذاتها وتُحاسبها، وتأمرها بأن تمتثل لمواجهة تشظّيات متعها، وتُقرّ بأن لا داعي إلى تزييف الحقيقة وتحميل حاصلها لذاك الآخر لأنّها لم تكن أبدا مفعولا به وحسب وإنّما كانت فاعلا في ذات الآن، فالآخر لم يُرغمها على إتيان ما منحته إيّاه ولم يُهدّدها ولم يتوعّدها، فانصاعت لقبضته صاغرة مستسلمة، بل هي التي هادته برضاها وبرغبتها، بل وبكامل وعيها الإرادي والإدراكي، فقد كانت دائمة التّردّد على بيته، تقصده لتجني منه متعها المحمومة التي كانت تُحسن متفوّقة الاستزادة منها بموافقة قبلية صادرة عنها.

وتستوعب دليلة ولو متأخّرة المنطق على منواله الصّحيح، فتكفّ عن لطم الآخر بذريعة أنّه المخطئ رقم واحد لأنّ المذنبين لا يُعلّمون بالتّدرّجات الرّقمية وإنّما بماهية وشناعة ما صنعوه. كما تنتبه إلى أنّها لم تعد قاصرا فقد تجاوزت هذا الحاجز منذ سنوات، فهي اليوم على وشك التّخرّج، المسألة التي لا تُعفيها من التّبعات باعتبارها قد أضحت ناضجة وقادرة على التّمييز والفرز والتّمحيص، وبالتالي على الاستنتاج الغارق في الصّواب الذي كان يجب أن يُحرّم عليها الانحدار إلى الهاوية التي هي فيها.

وتقتنع أنّه عليها مثلما ربطت أن تفكّ، فهي لا تستحقّ المواساة، وجرّت تُفتّش عن الوسيلة التي تستر بها قبحها الذي يُعذّبها بتأنيبه وتوبيخه، فلا يتركها تبرأ وترتاح. وتجد الحلّ المصفّي لهذا الوضع، فتُنكّس رأسها وتنسحب لتحقيق الفعل "الانتحار ليس جبنا ولا يأسا، هو خلاص لمشكلتي. شربت من اللّذة حتى الثّمل. يجب أن أدفع الثّمن أنا وجنيني، هكذا لا يحيا في مجتمع يتصوّر رجالَه كلّهم آباءه"[1].

---

[1] المصدر السابق، ص.104.

ولا تقوى دليلة على الإنكار بأنّ انقيادها للنّشوة العابرة الزّائلة هو الذي رمى بها في حمأة هذه الورطة، فقد ضيّعت كلّ شأن لها لأجل برهة من متعة، فتبكي شبابها الذي احترق أمله في مستقبله فغدا حفنة رماد.

ولفّها السّأم وامتدّ بها الزّمن كئيبا متثاقلا واستحالت ذاتها قاحلة وحيدة يؤرّقها التّيه ويُخيّم عليها الصّمت، فيعمّ كلّ وجهات الحيّز المحيط بها، فيُشلّ شعورها ويعجز عن فكّ رموز الصّوت واللّون والطّعم، وحتى الشّكل، ويتلعثم فكرها عندما لا يتّكئ على الحلّ المراد.

وتدمع عيناها أسفا على ما جنته من قلّة عقلها ورعونة غريزتها، وجربّت أن تنسى ما وقعت فيه وتُواصل عيشها حتى وإن تكلّفت الطّبيعية فيه، ولكن ما أن تلمس المستقرّ في جنباتها حتى تتأرجح بها الدّنيا ويتنمّل جسدها فلا تستوعب ما يحصل لها فتنهار، ليُنطقها بعد ذلك تعبها فتقول ما كان لها أن تمتلك صحوة الاختيار ولا أن تصنع تمثالا لحياتها فتُحمّل بذلك القدر كلّ ما ألمّ بها.

وتُشيح دليلة ببصرها عن فكرة التّضحية بجنينها ليكون قربانا، تعيش هي بعده وقد تناست ذنبها فيستمرّ جبن أبيه وهو يُشيد الأخطاء.

ويرتفع صوتها في سرّها طالبا الرّحمة، لا يرغب في أن يلحقها المزيد، فقد كفاها ما أصابها.

وتوافق اقتناعها بخطوة الانتحار فهي لن تحيا إلاّ إذا بقي جنينها، ثمّ تستدرك أيّة حياة هاته التي ستكون لها وهي تجرّ خلفها طفلا مشرّدا تنكّر لوجوده سفّاح قذر، لتضيف الأجدر بها أن تهلك معه، فتمضي بسرّها فلا يقف عليه أحد، فهي لا تقبل أن تتعرّى فيعلم الجميع بما طوته ودسّته، يجب أن تنتهي فقد عبت من كلّ المتع حتى الارتواء، ماذا تبغي زيادة.

وتتصوّر مأتمها وهيكلها الممدّد الجامد فتُتمتم ماذا سيخسر هذا المجتمع البعولي بفقدها؟، مؤكّد لا شيء، وهو الذي لقّن ذكوره بأنّهم أصدقاء وأحباب بعضهم إلاّ "المرأة فهي العدوّ"[1] الذي وجب عليهم أن يحذروه قبل أن يجتهدوا في استعماله لسدّ ثغرات

---

[1] عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سوريا، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت، ص.182.

متعهم ونهمهم الجسدي، وعليهم في تلك الأثناء أن لا يتوانوا في تجريدها من كلّ مقوّمات الآدمية التي لديها.

وتُذكّر نفسها أنّه لم يتبقّ لها إلا أن تقتحم الارتباك وتضرب الإحجام وتستجمع كلّ قواها لتبدأ العدّ التنازلي، فلن يُكلّفها الوصول إلى العدم إلاّ ارتعاشة ولن يأخذ منها سوى انتفاضة ليدخل جسدها في الهدأة الدّائمة وقد سدّدت الضّريبة التي عليها.

3 النخر: إبراهيم سعدي.

ابراهيم سعدي[1] هو الآخر يُبرز شخصية جليّة الاكتئاب يدعوها دحمان، موظّف في البريد، ذو مستوى تعليمي متوسّط، علاقته بزوجته ظلّت تتحرّك من سيّء إلى أسوأ، فتكرّرت خصاماتهما وتجدّدت إلى أن وصلت يوما إلى الذّروة التي لم تستطع معها زوجته أن تتمالك أعصابها من الغضب، فأشهرت السّكين تُريد قتله، الموقف الذي رجّه رجّا عنيفا، فانقلب منحى حياته كلّها، فقاطعها وهجرها وهو مازال يُقيم معها في بيت واحد، وفي وضع كهذا لم يقدر على البقاء وحيدا.

فأشار عليه أحد زملائه في العمل بأن يتّخذ له صديقة أو عشيقة أو خليلة، ولمّا لمس منه القبول راح يُعرّفه على مومس تُدعى (وحيدة)، فأصبح كثير التردّد عليها، ولا يعود إلى البيت إلاّ بعد أن ينتصف اللّيل ورائحة الخمرة تسبقه. وفي أوج لاوعيه لا ينسى زوجته وما فعلته معه، ويتوعدّها بالانتقام منها، "إنّها تُريد أن تُدمّرني ولكن أنا الذي سيُدمّرها. أجل سأدمّرها وإلاّ حلقت شاربي هذا. تقهرني امرأة أنا، كلاّ أبدا. لم يولد بعد من يقدر عليّ أنا"[2].

يبدو أنّ دحمان يتحوّل ناحية الخمر حتى يُشوّش على ذاكرته، فتسهو عن تلك الحادثة التي أحسّ بعدها بأنّه أضاع رجولته، أعظم ما امتلك على الإطلاق.

---

[1] النخر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.

[2] المصدر نفسه، ص.74.

ولكنّه لم يُحسن التّقدير، ففي عمق سكره وعدم وعيه المفترض بما يتنقّل حوله، كان يذكر الواقعة فتتوضّح له صورتها بكلّ خباياها وتفاصيلها، فلا يفهم إلا معنى واحدا من كلّ ما حصل وهو أنّ زوجته رامت تحطيم الرّجل فيه وهي ترفع الخنجر في وجهه تُهدّده بالقتل إن هو اقترب منها شبرا واحدا. لقد فعلت ذلك بجرأة لم يعهدها فيها، وهي تُلوّح بالسّلاح في يدها، بدت جادّة لا تتوانى عن تنفيذ ما نوت، ولو كان تهوّر ودنا منها بحيث لم يحسّ لأسكنت الآلة الحديدية في جسده ولكان الآن في إحدى المستشفيات يُنازع الموت، هذا إن كانت ضربتها قد أخطأت موقعها، أمّا إذا كانت الطّعنة قد أصابته في مقتل لكان في هذا الوقت يرقد في قبره.

ويرجع فيجترّ هذه السّابقة ويستحضر ملامح زوجته أثناءها فتتبدّى له امرأة أخرى لا يعرفها. لقد أقدمت على فعلتها على مرأى من أطفالهما وأمّه وباقي أفراد العائلة الآخرين وكأنّها ودّت أن تُخبر نسله بأنّ أباهم ليس إلاّ جبانا، وتسخر من أمّه لتقول لها ماذا تعتقدين أنّك أنجبت وربّيت، غير خوّاف وهشّ لا يصمد فيهرب عند إطلالة أضعف خطر؟.

لقد غلبته وكسرت فيه هيبة الرّجال وهي تُعلنه أمام الجميع هيّنا ذليلا، وينكمش يؤنّب نفسه على أنّها لم تُصدر أدنى ردّة فعل، فأرغمته على أن يتصنّم في مكانه. لو كان تشجّع وباغتها وهو يقفز نحوها فانتزع السّلاح من يدها ورمى به بعيدا، وأشبعها بعد ذلك ضربا كيفما اتّفق لَما كان يعيش اليوم تحت كلّ هذا الرّكام من النّدم، وينحسر ثانية على نفسه ليقول ما كان ليفعل شيئا وهو واقع في هول المفاجأة، لقد أبهتته، ما بدر بذهنه مرّة أنّ الدّجاجة فيها قد تعلّمت الخدش وأتقنته وأنّها تخيّرت صاحبها ليكون أوّل ضحية لها.

فدحمان لم تختزن مخيّلته نموذج المرأة المتطاولة على الرّجل ولذا فعقله الباطن لم يتقبّل هيئتها تلك اللاّمألوفة لديه، ولذا راح يوقظه ويأمره بأن يردّ لها الصّاع صاعين ويدفعه دفعا إلى أن يُحطّمها وإلاّ لن يكون أبدا رجلا مثلما يدّعي.

ويردّ على عقله الباطن بأنّه سيفعل بها ما يُرغمها على النّدم وطلب السّماح منه طوال حياتها ولن يقبل منها اعتذارا.

فليس هو من يُجيز لامرأة بأن تتعدّى حدودها معه، وكأنّه بلفظة "امرأة" ينفصل عنها معنويا ويتنصّل من رباط الزّوجية الذي وصله بها، فهو لم يعد يُطيق أن تُحسب عليه امرأة جاحدة نكّلت برجولته أمام الجميع.

ولذا فقد قرّر أن لا تُرافقه باقي أيّامه، فهو لا يُمكن أن تُطاوعه ذاته بالتّعامل معها والخنجر المرفوع في وجهه والمتأهّب لأن يغوص في أحشائه مازال ماثلا مشهده أمام عينيه ولن يزول أبدا.

ويأخذ عهدا على نفسه بأنّه لن يُفوّت لها ذاك الفعل الأخرق وأنّه إن لم يُذقها من القهر مراتب وألوانا ومن الهوان صنوفا وأشكالا فلن يكون الرّجل الذي يعتدّ، وسيُباشر فيحفي شاربه ويستحيل أمرد مثل النّساء. ويهمس بدخيلته مفتخرا ولكن في مرارة، الرّجال لم يُغامروا بالتّعرّض لي بذرّة أذى، وامرأة مثلها تهزّ هامتي لتسقطها. وينفعل بشدّة من إشفاقه على الرّجل فيه ويصرخ أنّ من يقف ليُنازلني ويُغالبني لم تُنجبه امرأة لأنّ زمن ولادته لم يحن بعد.

وفي إحدى اللّيالي يرتدّ إلى الدّار كعادته وقد نأى عقله عنه فيتّجه نحو غرفته يفتح بابها، يدخل، لا يستبين من فيها، يتقدّم قليلا فإذا بنظره يقع على زوجته وهي تغطّ في نومها، يقترب من السّرير حيث استلقت، يدنو منها، وبمحاذاة رأسها يطلق صرخة توقظها على الفور، ثمّ ينزل عليها بوابل من السّباب والتّهديدات "عندي لك من الوقت ما يكفي لأن أدمّرك تدميرا تامّا. لا داعي إلى الزّغردة وإلى تزيين وجهك. أبنائي لن يُغيّروا أسماءهم، لن أموت إلاّ بعد أن أصير شيخا يا عاهرة نتنة. أنا حيّ، قلبي يخفق خفقانا حسنا. أنا حيّ قويّ"[1].

ما يتحدّث به دحمان هو مجرّد خيالات ادّعائية نسجها تصوّره له بعد أن كبّله قيد الخمرة وبادر مسرعا يُقدّم له الذّرائع والأسباب التي تُبيح له تأديب زوجته.

فتغزوه الهلاوس وهو يتأمّلها نائمة فيُحاول استقصاء ملامحها، ويزعم لنفسه أنّه وقف على فحوى أحلامها فرآها وهي تنتصر عليه فتُهلكه، وتتخلّص منه لتفرح الفرح الذي لا يُضاهى، فتتحرّر منها زغرودة البشرى التي تُطمئنها بأنّه صار ماضيا منسيا، لن يذكره أحد. وشاهدها تعيش منعمة بعده لا يضبطها ولا يشدّ انطلاقها أحد، فتُفكّر في

---

[1] المصدر السابق، ص.76-77.

الزّواج ثانية ولا تنتظر إلاّ مرور بعض الأشهر لتُنفّذ خطوتها، ويتفرّج عليها وهي تُزفّ لرجل آخر، ويحسّها في منتهى الغبطة والرّضا، ويتتبّعها فيجدها تتزيّن له وتزدان حتى تُبهره، أليس زوجها الذي تفتخر به وتُحبّه كما لم تُحبّ أحدا قبله؟.

ويلتفت في حلمها إلى أبنائه فيُصقع بأنّها نسبتهم كلّهم دون تردّد إلى الرّجل الذي استوطن نفسها فصيّرتهم كلّهم أبناء له وكأنّها وهي تستلّ منه خلفه تكسر ذكراه حتى في موته نكاية فيه، فهي تُدرك أنّه بمرور الوقت سينسوه جميعهم ولا يتذكّروا أو يذكروا إلاّ من استحبّته لهم أبا وارتضته لهم نسبا.

ولا ينجو دحمان من هول لحظة الوهم هاته فيشعر بأنّه أخذ يتضاءل ويتضاءل إلى أن ماثل اللاّشيء، وترتعد فريصته من حتمية الموت فلا يُريده أن يقترب منه أو يصل إليه لأنّه إن حدث فإنّ زوجته ستنجح في المضي إلى تحقيق الخطّة التي تدور بخلدها منذ مدّة. ولم يقدر على الصّبر وتَخَيُّلِ المزيد فهزّها بصياحه الذي أضمر لها فيه كلّ الكراهية والعدوانية فأفزعها وجعلها تستيقظ رغما عنها ليُسمعها بدوره ما يعتمل في دخيلته، فيذهب ليؤكّد لها بأنّه لن يموت وبأنّه لن يجود عليها بزمن السّعادة الذي ترتقب وأنّه سيرمي بكلّ آمالها فيبتلعها البحر، وبأنّه لن يسمح لها بنوال شيء ممّا تحتفل به مخيّلتها، سيكون الحجرة العثرة في طريق كلّ نواياها. ويفتخر أمامها بصحّته وصلابة نبضه، فهو لا تؤلمه علّة ولا يشتكي عاهة، وسيحيا العمر الطّويل فقط لأجل تصفيتها، فيكون إعدامها بيديه، ولن تؤول حتى في أحلامها إلى أحضان رجل غيره. سيقف حارسا على ذاكرتها وعلى راهنها وعلى أمانيها، فلن تتواصل إلاّ مع من يُوافق على فتح المعبر له.

وسيبقى بعدها فيتزوّج بأخرى أصغر منها، تفوقها جمالا وحسنا، تُعوّضه بلطفها وحبّها عن حياته الجرداء التي قضاها معها محروما من الحنان والفرح، وأطفاله سيظلّون في كنفه يحملون اسمه ويُذكرون به.

وبينما هو منغمس في لذّاته تتوفّى زوجة أخيه فيُصاب بالذّعر وهو يستشعر الموت يُحاذيه، فيرجع إلى نفسه وهو خجل ممّا صار عليه حاله من فساد وجنوح، ويندم على كلّ ما فعل، فيدخل المسجد الذي قاطعه أكثر من سنوات خمس ويُواظب على الصّلاة فيه، ولكنّ توبته لا تدوم إلاّ أيّاما قلائل ليُعاود الانحراف من جديد بملازمة السّهر ومنادمة السّكر ومعاشرة المومس وحيدة.

وتسير زوجته نحوه تُريد ترميم ما تشقّق في جدار الودّ الذي كان يضمّهما إلاّ أنّها تفشل بعدما تحوّل مقته لها إلى رعب شديد منها ممّا أظهره، متوجّسا من كلّ حركة يراها تقوم بها، ومضطربا من كلّ كلمة يسمعها تنطق بها. وأصبح يُكرّر في سرّه كلّ ما تُبديه له كناية عن عدم تصديقه لها "كيف تغيّرت كلّ هذا التّغيّر العجيب !؟، صباح الخير !!، مساء الخير!!، أيّ وجبة تُريد أن أُعدّ لك !؟، يبدو عليك التّعب الشّديد هذا المساء !!، يا له من زيف واصطناع !!. أتحسبه مغفّلا إلى حدّ الظّنّ بأنّ خداعها المفضوح قد ينطلي عليه!!؟. لم تتغيّر قيد أنملة، كلّ ما هنالك أنّها غيّرت خطّتها، أمّا هدفها فلا يزال يتمثّل في التّخلّص منه، في القضاء عليه، في دفعه إلى الجنون حتى تتزوّج من رجل آخر، وحتى تمنح لأبنائه أبا جديدا، ولكن هذا لن يحدث أبدا مادام على قيد الحياة، ربّما ستعمد إلى دسّ سمّ من السّموم في طعامه"[1].

دحمان لم يعد يأتمن زوجته فقد أتلف ثقته بها منذ جرّبت قتله ذات يوم، فصورتها الآن عنده ملتصقة بالجريمة تلك فلا تنفصل عنها، وتحرّكاتها من حوله لا يُفسّرها إلاّ تربّصا منها للإيقاع به.

فهو يعرف أنّها لم تستسغ إخفاقها في إزاحته من طريقها تلك المرّة، وستظلّ رابضة خلف محاولاتها حتى تعتلي مبتغاها.

إنّ حدسه لا يُكذّبه، وهو لن يُجازف بإقناعه أبدا بصلاح سريرتها، إذ كيف له أن يُصدّق بأنّها تبدّلت إلى هذا الحدّ، وفي هذه المدّة القياسية؟، وكيف له أن يركن إلى حقيقة أنّها غسلت كلّ ما ترسّب في قلبها تّجاهه من عداوة وضغينة. إنّ نفسه لا تُوافقه على مسايرة هذه التّرّهات.

بعد أن دخلت الحرب ضدّه وشحذت سلاحها لتُجهز به عليه فلا تتركه إلاّ جسدا هامدا، فهو لن يغفر لها دناءتها التي تمرّدت بها فداسته حليلا، ولن ينسى النّقيصة التي ركبتها فرفسته زوجا لتُشكّله بعد ذلك سخرية لأهل الدّار ومضغة لهم في السّرّ والعلانية.

ولذا فهو لن يُيسّر عليها مهمّة خداعه بتلك التّحية التي أصبحت تخصّه بها صباحا ولا تنساها فتلقاه بها مساء، وهو يسمع كلّ حرف تنطقه فحيح أفعى متأهّبة للدغه متى أغفى، وهو لن يشغله عن رصد تصرّفاتها أيّ عارض.

---

[1] المصدر السابق، ص.212-213.

ويُلاحظ دحمان أنّ زوجته تتمتّع بملكات ما كان ليعلمها فيها من قبل، فهي تُجيد تقمّص هيئة الزّوجة المطيعة والخدومة التي لا تصرفها حاجة عن إرضاء زوجها، ولا تُضعفها عطلة عن السّعي لإهدائه الرّاحة.

ومن بدعها الباطلة أن صارت تسأله عن الأكلة التي يشتهي حتى تُعدّها له بنفسها فتكون حاضرة على مائدة الغداء أو العشاء، فما عليه من هنا فصاعدا إلاّ أن يتمنّى ويطلب ليجدها تضع ما يشاء بين يديه، فهي من لها أعزّ من أب أبنائها إليها حتى تُلبّي له ما يبغي، وهي بالمقابل لا ترجو منه إلاّ أن يعفو لها زلّتها ضدّه والتي تعتبرها شؤما عليها وعلى حياتها معه.

إذن فقد أصبحت تجمع كلّ مواصفات المرأة المتفهّمة لمعنى أن يكون لها زوج فتهتمّ لأمر أكله وشربه، هي التي لم تكترث به لحظة إن كان أكل أو جاع، ولم تبحث يوما فيما يُفضّله من طعام أو يمجّه من شراب لتأتي الآن فتمنح هذه الأشياء عنايتها حتى تظهر في عينيه تلك البريئة المغلوبة على حالها، التي لم تتصرّف بتلك الفظاظة معه إلاّ لأنّها كانت في وضع شعوري صعب لم يقدر هو على الانتباه إليه.

ووعى دحمان أنّ زوجته تطوّر تكلّفها، خاصّة وهي تُجاهد في إطلاعه بأنّها تُشفق عليه من التّعب الذي يلحقه من عمله المضني طوال النّهار، وهي لم تأبه بعيائه الذي مكث يجرّه يوميا طيلة سنوات، والذي همّ بإسقاطه أكثر من مرّة، فما وجد عندها كلمة حنان واحدة تُخفّف بها عليه فيتجلّد ويقنع.

ويُعلّق دحمان بأنّ هذه الأحاسيس الكاذبة وهذا الاهتمام المحنّط ليس إلاّ طريقة لمراودته واستغفاله، ومن ثمّة إيقاعه في الشّرك الذي أعدّته لترتاح منه، فهي مازالت تُنشد تصفيته لترتبط بذاك الذي حلمت به كلّ حياتها، ولكنّه سيوصد في وجهها كلّ مجال حتى لا تصل إلى ما تتوخّاه، وخطّتها القديمة المستجدّة سيُحبطها وسيُبقيها تحوم في مكانها لا تُدرك ماذا حدث.

ثمّ يسترسل متدبّرا أمر طعامه فيطرح فرضية أنّها قادرة على وضع السّمّ له فيما تطبخه له من أكل، حينها ستُرديه قتيلا دون شكّ، فتخلو لها الأجواء لتُحقّق كلّ ما تاقت إليه نفسها لأنّها لن تجد من يقف في سبيلها.

ولكنّ الحلّ موجود، سيمتنع عن تناول طعام البيت، ونفذّ ما قرّر ولكنّه مع هذا لم يطمئنّ، وأضحت كلّ هنيهة من وقت تمرّ إلاّ وتضخّمت رهبته من زوجته، وتمكّن منه اليقين بأنّها قاتلته لا محالة.

ويتكرّر غيابه الهروبي عن البيت، ويكثر تعاطيه للخمرة، ويزداد رعبه، وتسوء حاله، فلا يتورّع عن الكتابة في قصاصة ورق أنّه إذا حصل ومات فإنّ زوجته هي القاتلة، ويُخفي هذا الاتّهام في جيب سترته، ويُمزّقه الانهزام ويصير نهبا للشّكّ وأن لا أحد يُحبّه أو يرغب فيه، والجميع يريدون به الشّرّ، بما فيهم أطفاله وأخوه.

وتفاجأ في مرّة من المرّات وهو يركض لائذا بيت المومس وحيدة بأنّها تمتنع عن فتح الباب له لأنّها تابت وودّعت حياة الفساد وتأمره بالعودة من حيث جاء، ولكنّه لا يرضى منها بهذا الخبر ولا يقبل بهذه الحقيقة، فيلتزق بالباب المغلق ويشرع في مخاطبتها "وحيدة، رُدّي عليّ، أريد الحديث إليك، سوف أقبّل قدميك، ما بقي لي أحد سواك. أنت بيتي وأهلي وأولادي. ألحس قدميك. لِم تتخلّي عنّي؟. أنت بدورك لا أقدر على فراقك[1].

هاهو دحمان الذي كان يصيح من قبل في وجه زوجته ويتشدّق بأنّه لن يتسامح مطلقا مع من يمسّ كرامته بسوء، لأنّ رفعته من آدميته ووجوده، وأنّه يُفضّل الاندثار على أن يتعرّض شرفه إلى الأذى. دحمان الذي ما انفكّ يُشدّد لهجته وهو يُجاهر بكبريائه فيضعها فوق كلّ الاعتبار ويؤكّد بأنّه لن يُفرّط في عزّة نفسه أبدا، حتى وإن كان لأجل أقرب النّاس إليه، وأنّه لن يكون إلاّ جارحا مع كلّ من يتجرّأ على استباحتها.

ذات دحمان ذاك يستحيل مشوّها يلتصق كالعنكبوت بخشب باب المومس وحيدة يستدرّ عطفها لئلاّ تُبقيه خارجا، فيترجّاها بأن تسمح له بالدّخول حتى يراها ويتحدّث إليها، فهو متشوّق إليها ومتحرّق لأن يكون معها.

وكلّما أمعنت المومس في تجاهله فلا تردّ له جوابا، تشبّث هو بالمكان وتذلّل بصورة فظيعة، فوعدها بأنّه سيفعل كلّ ما تطلبه منه، وأنّه لن يرفض لها أمرا، وأنّها لو رغبت في أن يُقبّل قدميها لَما أحجم، بل ولن يتردّد حتى في لثم الأرض التي تمشي عليها، المهمّ أن لا تصرفه عنها، أن لا تُبعده عن حياتها، فقد تعوّد عليها، وعَوّض بها كلّ

---

[1] المصدر السابق، ص.253-254.

أهله الذين كان يملك، زوجته الخائنة التي تسعى لإهلاكه، وأخوه المتآمر معها، وأبناؤه الدين يُبيّتون له شرّ أمّهم.

لقد غدا وحيدا، ولكن يكفيه أن تكون هي إلى جانبه، يكفيه أن ترضى عليه فلا تتخلّى عنه، فهو لا يُصدّق أنّها كالآخرين وستفعل به فعلتهم. ويعترف دحمان للمومس بما لم يعترف به لزوجته وهو أنّه يُحبّها ولا يقدر على الانفصال عنها، ولا يتحمّل أن يُصبح بدونها، فهي الملجأ الذي احتمى به عندما نبذه كلّهم. ويتساءل دحمان ما مصيره بعدها؟، ويحسّ الانكسار يُبعثر كلّ ذرّة من كيانه.

ولمّا يتضعضع جهده في إقناعها بالعدول عمّا رأته، ينسحب وهو يجرّ قدميه، يطوح به الاستصغار والقهر. ويعلم بعد ذلك بأنّ وحيدة تزوّجت فيُقرّر قتلها وزوجها إلاّ أنّه ينكص خورا.

ويعود إلى بيته فلا يعثر على أحد، يدخل غرفته فينتبه إلى ورقة على السّرير، يتناولها فيقرؤها، إنّها من زوجته تقول له فيها أنّها أخذت الأولاد وغادرت بهم إلى منزل أبيها. يتأمّل نفسه وفيما حوله ويُخمّن بأنّه لا يستحقّ أن يستمرّ في العيش، يُخرج الخنجر الذي كان ينوي تصفية المومس وزوجها به، ينظر إليه مليّا، يُعجبه لمعانه، يُصوّبه باتّجاه كبده، ويتخلّص من عبئه على نفسه.

الخاتمة

الخاتمة:

إنّ كلّ مشاريع البحث العلمي المتّصلة بالرّواية الجزائرية تبقى مجرّد بدايات مفتوحة على قراءات قد تجيء حتما، ربّما تشابهت وربّما تباينت، ولكنّ المؤكّد أنّها لن تكون إلاّ نزارا بسيطا يُضاف إلى كلّ ممتدّ لا ينتهي.

ولذا فخاتمة هذه الرّسالة لن تكون إلاّ نتائج أوّلية لزخم من أفكار مستقبلية التّرجمة.

1- يُعدّ فنّ الرّواية جنسا أدبيّا منعزلا عمّا سواه بتفرّد مضامينه وتعدّد أشكاله وتميّز مرتكزاته بحيث تقوم المحورية السّردية فيه بتشكيل فسيفساء تمتزج فيها ألوان من الأحاسيس والعلاقات الإنسانية لتُحقّق في النّهاية ثنائية اللّذة الجمالية والارتقاء الذّوقي.

2- إنّ التّأريخ للسّرديات العربية يبدو بعيدا عن المنطق وهو يتّخذ من رواية زينب حتى اليوم بداية له، غير آبه بما استجدّ من وقائع علمية وأدبية مؤكّدة، يغدو على إثرها السّائد هشّا يتوجّب هدمه.

3- إنّ موضوعية النّاقد وحدها القادرة على التّحكّم في ترسيخ البديل الجديد، القوي والمقنع الذي لا يُمكنه إلاّ أن يعترف بسردية الأمير مصطفى الجزائري "حكاية العشّاق في الحب والاشتياق"، فيعدّها المرجعية الأولى للرّواية العربية، وهو يراها تستوفي معظم المقاييس التي تؤهّلها لذلك.

4- لقد تمكّنت الرّواية الجزائرية، وبكلّ جرأة، من تسجيل تقريرها وهي تُقيم الجرد لكلّ حوادث الرّاهن ومظاهره الهيّنة والمتعاظمة، وتحصر كلّ ما يعلوه من تقاربية تآلفية، وما يختفي فيه من تناحرية تباعدية، وما يُعاوده من تعاكس قد يُصيب وقد يُخطئ، حتى صار المحكي في أغلب المرّات ذاك الرّاهن القائم بحقائقه.

5- إذا كانت الشّخصية المنفية تظهر سلبية في الرّاهن فإنّ حضورها في أيّ برنامج سردي يُعدّ إيجابيا وضروريا، بل ومهمّا لِما يكمن عندها من قدرة على صنع الفعل وردّة الفعل الذي يفكّ الحدث، فيتحرّك متواليا وممتدّا ومتباعدا، فتتكشّف وتتوضّح جملة من المعالم المتناقضة التي تُخرج السّردية من أحادية التّشكّل في نمط ثابت وجامد.

6- إنّ الشّخصية المنفية قد تتكوّن من آثار ما يُسمّى بالسّقطة التي تُنمّيها وتُهيكلها وتُحدّد جزيئياتها وتُفرز دقائقها، وقد يصوغها ما حولها وهو يُلقي عليها بأثقاله من فاقة،

وجهل واضطهاد، تعجز عن تحمّلها ولا تقوى التّكيّف مع متاعبها، وجرّاء هذا تسكنها العدوانية التي تُشهرها باتّجاه الآخر، تماما مثلما تُوجّهها نحو ذاتها.

7- تظهر الشّخصية المنفية وهي مقهورة الحال مستذلّة المنزلة، مغتصبة الحقّ، لا تستطيع استرجاع ما سُلب منها، فيرتفع صخبها، سعيا منها لإحداث فعل الخلاص ممّا تُكابده، وعندما لا تنجح تذهب إلى خلق عالم مواز لها، يستوعبها، يُحرّكه الماضي ويُهدهده الحلم.

8- الشّخصية المنفية لا تعترف بزمنية الحاضر ولا تتّفق وإيّاها، وبالتالي فهي تمتنع عن الرّضوخ لها وتأبى التّعامل أو التّفاعل معها.

9- أحوال الشّخصية المنفية تبدو مرعبة عندما تتجاوزها الأحداث، فلا تستطيع أن تتمالك نفسها، فتظهر عديمة الاختيار، مرغمة على أن تصل إلى منطقة الطّابوهات لتُعلنها، وبتهوّر مساحتها الخاصّة لتتبنّى فيما بعد كلّ تقنياتها وأنظمتها وقواعدها.

10- قد تُعطي الشّخصية المنفية ذاتها حجما يفوق حقيقتها، وقد تؤمن بذلك وتعيشه، ولكن سرعان ما يصدمها إحساس الإخفاق فتعي وضعها، فتتحوّل عدمية لا تهتمّ بشيء، فيتعمّق شعورها بلا جدواها، فتتقهقر نحو فعل السّخرية حتى تُخفي الجراح المتفتّحة فيها.

11- وهكذا يثبت بأنّ الشّخصية المنفية تُحمّل الرّاهن أسباب دائها ولكنّها بالمقابل تعمل على تطوير أدواته الإجرامية عندما تُسبّل يديها إفصاحا على استسلامها وعدم تمكّنها من المواجهة، فتظلّ جامدة يعوزها التّفكير الذي به تُغيّر وضعها.

12- كثيرا ما جاء الحوار على لسان الشّخصية المنفية وهو يتوجّه صوب العامية وفي حدّها الذي تتقاطع فيه مع الفصحى، باعتبار هذا النّوع من الشّخصيات يُمثّل الرّاهن بكلّ تجسّداته الإنسانية. والتّعبير العامي يمنحها القدرة على التّصرف في كومة المشاعر والمعاني القريبة من الرّاهن أو التي هي الرّاهن.

13- ووفق هذا فإنّ الشّخصية المنفية تنجح دائما في إضفاء التوازن على البرنامج السّردي بجعله أكثر نبضا وأعمق صدقا.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع:

الفصل الأول والثاني:

روجر ألن، الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة حصة منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1986، ص10.

رينيه ويليك أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص221.

علال سنقوقة، المتخيل والسلطة، منشورات الاختلاف، ط1، 2000، ص22.

عزيزة مريدن، القصة والرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص78.

سيد البحراوي، الأنواع النثرية في الأدب العربي، المكتبة الأنجلو–مصرية، ج1، 2003، ص82.

حنا مينا، هواجس التجربة الروائية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1982، ص90.

Roland Barthes, Essais critiques, éditions du Seuil, 1964, p.42.

R. Barthes, L. Bersani, Ph. Haman, M. Riffaterre, I. Watt, Littérature et réalité, éditions du Seuil, 1982, p.41.

Jean-Pierre aubrit, Le conte et la nouvelle ??, Armand Colin, 1997, p.68.

Izvetan Todorov, Théorie de la littérature, éditions du Seuil, 1965, p.204.

Isabelle Daurrais, Frontière du roman, le personnage réaliste et ses fonctions, Espace littéraire, 2002, p.126.

فاروق حورشيد، ؟؟ في الرواية العربية، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص75.

أحمد سيد محمد، الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص17.

عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر 1870–1938، دار المعارف، ط4، 1983، ص323.

عمر بن قيثة، الأدب العربي الحديث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص104.

محمد بن إبراهيم (الأمير مصطفى)، حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تحقيق أبي القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1983، ص04.

عمر بن قيثة، دراسات في القصة الجزائرية (القصيرة والطويلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص148.

عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978، ص130.

محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص118.

قراءات في القضية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص09.

العقيد دحو، جريدة صوت الأحرار، الجزائر، العدد 2374، 18 ديسمبر 2005، ص16.

يراجع هواجس التجربة الروائية، ص163. المرجع

بدر محمد الأنصاري، قياس الشخصية، دار الكتاب الحديث، 2000، ص30.

الشخصية ريتشارد س. لازاروس، ترجمة سيد محمد عنيم، مراجعة محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص52.

باديش فوغالي، بنية الخطاب الروائي في تجربة رايح خدوسي من خلال روايته (الضحية والغرباء)، منشورات دار الحضارة، 2004، ص07.

محمد عزام، فضاء النص الروائي: مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، دار الحوار والنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص85.

عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، مجلس الثقافة والفنون والآداب، 1998، ص103.

Yves Reuter, Introduction à l'analyse du Roman, 2ème édition, Dunod, Paris, 1996, p.51.

Isabel Daunnais, Frontière du roman : Personnage réaliste et ses fictions, p.124.

Michel Raimond, Le Roman, Arman Colin, 2ème édition, 2000, p.173.

Françoise Rullier, Approche du roman, Theuret, Hachette livre, 2001, p.81.

نبيلة إبراهيم، فن القصص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، دار قباء للطباعة، د.ط، د.ت، ص175.

Françoise Rullier, Le dialogue dans le roman, Theuret Hachette, 2001, p.60.

روبرت شولز، عناصر القصة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1998، ص33.

الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط1، 1987، ص111.

Bernard Valette, Esthétique du roman, Modern Nathan, 1993, p.120.

سيد البحراوي، الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، المرجع السابق، ص88.

إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2002، ص151، 155، 158، 180، 181 و182.

الرواية لـــ؟؟، ترجمة مرزاق بقطاش، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص22.

عبد العزيز شبيل، الفن الروائي عند غادة السمان، ص126.

صلاح فضل، عين النقد على الرواية الجديدة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص71.

نبيل راغب، فن الرواية عند يوسف السباعي، مكتبة الخانجي، ص149.

جورج طرابيشي، الرجولة وإيديولوجية الرجولة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983، ص65.

بدري عثمان، الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص46.

بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص24.

غالي شكري، المنتهي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص172.

انظر سلام إبراهيم، دراسة للمجموعة القصصية بيت النمل لهيفاء زنكنة. www.iraqi writer.com 2003

محي الدين صبحي، أبطال في الصيرورة، دراسات في الرواية العربية والمعربة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص119.

عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشرقية، درا القصبة للنشر، 2002، ص128.

مصطفى التواتي، فن الرواية الذهنية عند نجيب محفوظ من خلال (اللص والكلاب، الطريق، الشحاذ)، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص129.

جورج طرابيشي، عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص188.

غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1978، ص81.

حلمي المليجي، علم نفس الشخصية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص127.

عرعار محمد العالي، رواية الطموح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص82.

الرواية، ص 84.

عبد المالك مرتاض، الخنازير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص128.

حميدة عياشي، ذاكرة الجنون والانتحار، النشر لافوميك، 1986، ص85.

واسيني الأعرج، رواية وقع الأحذية الخشنة، منشورات الفضاء الحر 2002، بيروت، ط1، 1981، ص48.

واسيني الأعرج، النزوع الواقعي الانتقادي في الرواية الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1985، ص122.

غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص162.

رشيد بوجدرة، فوضى الأشياء، دار بوشان للنشر، 1990، ص71.

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، موفم للنسر، الجزائر، 1993، ص370

الفصل الثالث:

عبد الرحمن محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية،ج5، دار راتب الجامعية، بيروت، 2001–2002، ص.389.

عبد الرحمن محمد العيسوي، سيكولوجية الانحراف والجنوح والجريمة، دار راتب الجامعية، بيروت، ط1، 2001، ص.55.

مجدي أحمد محمد عبد الله، علم النفس المرضي: دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص.229.

الأزهر عطية، ؟؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص.86.

بين فكي وطن، منشورات الجاحظية، الجزائر، 2000، ص.09.

سعيد مقدم، منشورات رابطة كتاب الاختلاف، ط1، 2000، ص.23.

الطاهر وطار، ؟؟، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1976، ص.179.

مصطفى ناسي، دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص.47.

عبد السلام محمد الشاذلي، لمثقف في الرواية العربية الحديثة (1882–1952)، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، ط1985، ص.404.

بشير بويجرة، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، 1970–1986، دار الغرب للنشر والتوزيع، ج2، ط2001–2002، ص.48.

سورة الأنبياء، الآية 105.

محمد مصايف، الرواية العربية الحديثة بين الوقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص.62.

بيت الحمراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.87.

فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، لبنان، ط13، 2003، ص.38.

مجلة الملتقى الدولي الثامن للرواية، عبد الحميد بن هدوقة، مطبعة ؟؟، برج الكيفان، الجزائر، ردمك، 2004، مقال بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية الجزائرية: أسئلة الكتابة، الاختلاف والتلقي، ص.88.

الفصل الرابع:

عبد الحميد بن هدوقة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.79–80.

عبد المالك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، دراسة في المعتقدات والأمثال الشعبية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص.22.

الانفجار، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص.30.

عبد السلام حيدر، الأصولي في الرواية، المجلس ألأعلى للثقافة، 2003، ص.97.

محمد ساري، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1986، ص.140–141.

سورة السجدة: الآية 11.

سورة الإسراء: الآية 85.

اسماعيل غموتات، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص.78.

غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، ص.223.

غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص.67.

كولون ولسون، اللامنتي، نقله إلى العربية ؟؟ زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1979، ص.76.

الحاجز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.21.

الطاهر وطار، منشورات ؟؟ الجاحظية، الجزائر، 1995، ص.22.

عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة: 1882–1952، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1985، ص.429.

عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص.104.

الفصل الخامس:

شيلدرون كاشدان، علم نفس الشواذ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، مراجعة محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت، ص.28.

فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2003، ص.116.

عبد العلي الجسماني، الأمراض النفسية: تاريخها، أنواعها، أعراضها وعلاجها، الدار العربية للعلوم، ط1، 1998، ص.150.

فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ص.117.

عبد الحميد هدوقة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط4، 1980، ص.؟؟. (الرواية كانت ط1 سنة 1970)

مدحت عبد الحميد أبو زيد، الاكتئاب، دار المعرفة الجامعية، د.ت، ص.42.

الأنفاس الأخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.19.

واسيني الأعرج، منشورات الفضاء الحر، 2001، ص.88-89 (الرواية، ط1 كانت سنة 1995).

وقع الأحذية الخشنة، منشورات الفضاء الحر، 2002، ص.141. (الرواية، ط1 كانت سنة 1981 ببيروت)

عبد الحميد بن هدوقة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط؟؟، 1984، ص.78-80.

عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سوريا، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت، ص.182.

الفخر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص.74.

المراجع بالترتيب:

القرآن الكريم:

إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2002، ص151، 155، 158، 180، 181 و182.

أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، موفم للنسر، الجزائر، 1993، ص370

أحمد سيد محمد، الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص17.

الأزهر عطية، ؟؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص.86.

اسماعيل غموتات، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص.78.

انظر سلام إبراهيم، دراسة للمجموعة القصصية بيت النمل لهيفاء زنكنة. www.iraqi writer.com 2003

الأنفاس الأخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص.19.

الانفجار، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص.30.

باديش فوغالي، بنية الخطاب الروائي في تجربة رايح خدوسي من خلال روايته (الضحية والغرباء)، منشورات دار الحضارة، 2004، ص07.

بدر محمد الأنصاري، قياس الشخصية، دار الكتاب الحديث، 2000، ص30.

بدري عثمان، الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص46.

بدري عثمان، بناء الشخصية الرئيسية في روايات نجيب محفوظ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص24.

بشير بويجرة، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري، 1970–1986، دار الغرب للنشر والتوزيع، ج2، ط2001–2002، ص.48.

بيت الحمراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.87.

بين فكي وطن، منشورات الجاحظية، الجزائر، 2000، ص.09.

جورج طرابيشي، الرجولة وإيديولوجية الرجولة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983، ص65.

جورج طرابيشي، عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص188.

الحاجز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.21.

حلمي المليجي، علم نفس الشخصية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص127.

حميدة عياشي، ذاكرة الجنون والانتحار، النشر لافوميك، 1986، ص85.

حنا مينا، هواجس التجربة الروائية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1982، ص90.

رشيد بوجدرة، فوضى الأشياء، دار بوشان للنشر، 1990، ص71.

الرواية لــ؟؟، ترجمة مرزاق بقطاش، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص22.

الرواية، ص 84.

روبرت شولز، عناصر القصة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1998، ص33.

روجر ألن، الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة حصة منيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1986، ص10.

رينيه ويليك أوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1981، ص221.

سعيد مقدم، منشورات رابطة كتاب الاختلاف، ط1، 2000، ص.23.

سورة الإسراء: الآية 85.

سورة الأنبياء، الآية 105.

سورة السجدة: الآية 11.

سيد البحراوي، الأنواع النثرية في الأدب العربي المعاصر، المرجع السابق، ص88.

سيد البحراوي، الأنواع النثرية في الأدب العربي، المكتبة الأنجلو-مصرية، ج1، 2003، ص82.

الشخصية ريتشارد س. لازاروس، ترجمة سيد محمد عنيم، مراجعة محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص52.

شيلدرون كاشدان، علم نفس الشواذ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، مراجعة محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، د.ت، ص.28.

صلاح فضل، عين النقد على الرواية الجديدة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص71.

الطاهر وطار، ؟؟، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1976، ص.179.

الطاهر وطار، منشورات ؟؟ الجاحظية، الجزائر، 1995، ص.22.

عبد الحميد بن هدوقة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.79–80.

عبد الحميد بن هدوقة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط؟؟، 1984، ص.78-80.

عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص.104.

عبد الحميد هدوقة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط4، 1980، ص.؟؟. (الرواية كانت ط1 سنة 1970)

عبد الرحمن محمد العيسوي، سيكولوجية الانحراف والجنوح والجريمة، دار راتب الجامعية، بيروت، ط1، 2001، ص.55.

عبد الرحمن محمد العيسوي، موسوعة علم النفس الحديث، علم نفس الشواذ والصحة النفسية،ج5، دار راتب الجامعية، بيروت، 2001–2002، ص.389.

عبد السلام حيدر، الأصولي في الرواية، المجلس ألأعلى للثقافة، 2003، ص.97.

عبد السلام محمد الشاذلي، شخصية المثقف في الرواية العربية الحديثة: 1882–1952، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1985، ص.429.

عبد السلام محمد الشاذلي، لمثقف في الرواية العربية الحديثة (1882–1952)، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، ط1985، ص.404.

عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشرقية، درا القصبة للنشر، 2002، ص128.

عبد العزيز شبيل، الفن الروائي عند غادة السمان، ص126.

عبد العلي الجسماني، الأمراض النفسية: تاريخها، أنواعها، أعراضها وعلاجها، الدار العربية للعلوم، ط1، 1998، ص.150.

عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978، ص130.

عبد المالك مرتاض، الخنازير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص128.

عبد المالك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، دراسة في المعتقدات والأمثال الشعبية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص.22.

عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، مجلس الثقافة والفنون والآداب، 1998، ص103.

عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر 1870–1938، دار المعارف، ط4، 1983، ص323.

عرعار محمد العالي، رواية الطموح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص82.

عزيزة مريدن، القصة والرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، د.ت، ص78.

العقيد دحو، جريدة صوت الأحرار، الجزائر، العدد 2374، 18 ديسمبر 2005، ص16.

علال سنقوقة، المتخيل والسلطة، منشورات الاختلاف، ط1، 2000، ص22.

عمر الدقاق، فنون الأدب المعاصر في سوريا، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت، ص.182.

عمر بن قيثة، الأدب العربي الحديث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص104.

عمر بن قيثة، دراسات في القصة الجزائرية (القصيرة والطويلة)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص148.

غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1978، ص81.

غالي شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، ص.223.

غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص162.

غالي شكري، المنتمي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط^{3}، 1982، ص.67.

غالي شكري، المنتهي في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1982، ص172.

فاروق حورشيد، ؟؟ في الرواية العربية، دار العودة، بيروت، ط3، 1979، ص75.

فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2003، ص.116.

فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، ص.117.

الفن الروائي عند غادة السمان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط1، 1987، ص111.

فوضى الحواس، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، لبنان، ط13، 2003، ص.38.

قراءات في القضية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص09.

كولون ولسون، اللامنتي، نقله إلى العربية ؟؟ زكي حسن، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1979، ص.76.

مجدي أحمد محمد عبد الله، علم النفس المرضي: دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص.229.

مجلة الملتقى الدولي الثامن للرواية، عبد الحميد بن هدوقة، مطبعة ؟؟، برج الكيفان، الجزائر، ردمك، 2004، مقال بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية الجزائرية: أسئلة الكتابة، الاختلاف والتلقي، ص.88.

محمد بن إبراهيم (الأمير مصطفى)، حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تحقيق أبي القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1983، ص04.

محمد ساري، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1986، ص.140–141.

محمد عزام، فضاء النص الروائي: مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، دار الحوار والنشر والتوزيع، ط1، 1996، ص85.

محمد مصايف، الرواية العربية الحديثة بين الوقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص.62.

محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص118.

محي الدين صبحي، أبطال في الصيرورة، دراسات في الرواية العربية والمعربة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص119.

مدحت عبد الحميد أبو زيد، الاكتئاب، دار المعرفة الجامعية، د.ت، ص.42.

مصطفى التواتي، فن الرواية الذهنية عند نجيب محفوظ من خلال (اللص والكلاب، الطريق، الشحاذ)، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص129.

مصطفى ناسي، دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص.47.

نبيل راغب، فن الرواية عند يوسف السباعي، مكتبة الخانجي، ص149.

نبيلة إبراهيم، فن القصص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، دار قباء للطباعة، د.ط، د.ت، ص175.

النخر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص.74.

واسيني الأعرج، النزوع الواقعي الانتقادي في الرواية الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1985، ص122.

واسيني الأعرج، رواية وقع الأحذية الخشنة، منشورات الفضاء الحر 2002، بيروت، ط1، 1981، ص48.

واسيني الأعرج، منشورات الفضاء الحر، 2001، ص.88-89 (الرواية، ط[1] كانت سنة 1995).

وقع الأحذية الخشنة، منشورات الفضاء الحر، 2002، ص.141. (الرواية، ط[1] كانت سنة 1981 ببيروت)

يراجع هواجس التجربة الروائية، ص163. المرجع

Bernard Valette, Esthétique du roman, Modern Nathan, 1993, p.120.

Françoise Rullier, Approche du roman, Theuret, Hachette livre, 2001, p.81.

Françoise Rullier, Le dialogue dans le roman, Theuret Hachette, 2001, p.60.

Isabel Daunnais, Frontière du roman : Personnage réaliste et ses fictions, p.124.

Isabelle Daurrais, Frontière du roman, le personnage réaliste et ses fonctions, Espace littéraire, 2002, p.126.

Izvetan Todorov, Théorie de la littérature, éditions du Seuil, 1965, p.204.

Jean-Pierre aubrit, Le conte et la nouvelle ??, Armand Colin, 1997, p.68.

Michel Raimond, Le Roman, Arman Colin, 2ème édition, 2000, p.173.

R. Barthes, L. Bersani, Ph. Haman, M. Riffaterre, I. Watt, Littérature et réalité, éditions du Seuil, 1982, p.41.

Roland Barthes, Essais critiques, éditions du Seuil, 1964, p.42.

Yves Reuter, Introduction à l'analyse du Roman, 2ème édition, Dunod, Paris, 1996, p.51.

فهرس المواد

مقدمة. أ-ز

المدخل: الرواية الجزائرية بين التقليد والتجريب. **01-11**

أ- إطلالة على مفهوم الفنّ الرّوائي بعامّة. 02-07

ب- سبق الرّواية الجزائرية. 08-11

الفصل الأول: ماهية الشخصية الروائية وتشكّلاتها. **12-40**

أ- ماهية الشّخصية الرّوائية. 13-21

ب- تشكّلاتها. 21-40

الفصل الثاني: الشّخصية الأوديبية. **41-93**

أ- ماهية الشّخصية الأودبية. **42-44**

ب- الشّخصية الأودبية الإجرامية وصورها في: **45-67**

1- الطّموح: عرعار عبد العالي. 45-54

2- الخنازير: عبد المالك مرتاض. 54-62

3- ذاكرة الجنون والانتحار: حميدة العياشي. 62-67

ج- الشّخصية الأودبية الاستكانية وصورها في: **68-93**

1- التفكّك: رشيد بوجدرة. 68-76

2- فوضى الأشياء: رشيد بوجدرة. 77-86

3- ذاكرة الجسد: أحلام مستغانمي. 86-93

الفصل الثالث: الشّخصية السّيكوباثية بالتكوين. **94-161**

أ- مفهوم الشّخصية السّيكوباثية. **95-99**

ب- الشّخصية الأمومية وتجلّياتها في: **125-99**
1- خطّ الاستواء: الأزهر عطية. 109-99
2- بين فكيّ وطن: زهرة ديك. 117-109
3- البارانويا: سعيد مقدّم. 125-118
ج- الشّخصية العقيمة وتجلّياتها في: **161-126**
1- الزّلزال: الطّاهر وطار. 136-126
2- بيت الحمراء: محمد مفلاح. 148-137
3- فوضى الحواس: أحلام مستغانمي. 161-148
الفصل الرابع: الشّخصية السّيكوباثية بالاكتساب. **237-162**
أ- مفهوم الشّخصية السّيكوباثية بالاكتساب. **164-163**
ب- الشّخصية السّيمونية وتمثّلاتها في: **196-165**
1- الجازية والدّراويش: عبد الحميد بن هدّوقة. 176-165
2- الانفجار: محمد مفلاح. 186-176
3- السّعير: محمد ساري. 196-186
ج- الشّخصية المثقّفة وتمثّلاتها في: **237-197**
1- التّهور: إسماعيل غموقات. 213-197
2- الحاجز: هـــ. سعيداني. 222-213
3- الشّمعة والدّهاليز: الطّاهر وطّار. 237-223
الفصل الخامس: الشّخصية الاكتئابية. **305-238**
أ- ماهية الشّخصية الاكتئابية. **242-239**
ب- الشّخصية الاكتئابية البسيطة وتشكّلاتها في: **273-243**
1- ريح الجنوب: عبد الحميد بن هدّوقة. 252-243
2- الأنفاس الأخيرة: محمّد حيدار. 262-253

3- سيّدة المقام: الأعرج واسيني. 273-263

ج- الشّخصية الاكتئابية المركّبة وتشكّلاتها في: 305-274

1- وقع الأحذية الخشنة: الأعرج واسيني. 284-274

2- بان الصّبح: عبد الحميد بن هدّوقة. 295-285

3- النّخر: إبراهيم سعدي. 305-295

الخاتمة. 309-306

فهرس المصادر والمراجع. 322-310

فهرس المواد. 326-323

Résumé:

Cette thèse de recherche a pour but d'étudier la notion du **Personnage Outsider** et sa conception dans le roman algérien à travers les différents romans écrit en arabe, apparus entre 1970 et 2000.

Mots clef: le roman, le roman algérien, personnage, personnage Outsider, conception, Œdipien, psychopathie innée et acquise, tristesse.

Summary:

The main purpose of this present Doctoral research is to shed a light on one of the most significant literary element in the Algerian novel which is **the Outsider Character** and its conception in the Algerian novel throughout the different novels written in Arabic that appeared between 1970 and 2000.

Key words: the novel, Algerian novel, character, Outsider character, conception, Oedipal, innate and acquired psychopathy, sadness.

ملخص:

تُحاول هذه الدّراسة أن تكشف ملامح الشّخصية المنفية في الرّواية الجزائرية المكتوبة بالعربية في الفترة الممتدة من سنة 1970 إلى سنة 2000.

الكلمات المفتاحية: الرّواية، الرّواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، ماهية الشّخصية الرّوائية، الشّخصية المنفية في الرّواية العربية الجزائرية وتشكّلاتها، أوديبية، سيكوباثية بالتّكوين، سيكوباثية بالاكتساب، اكتئابية.